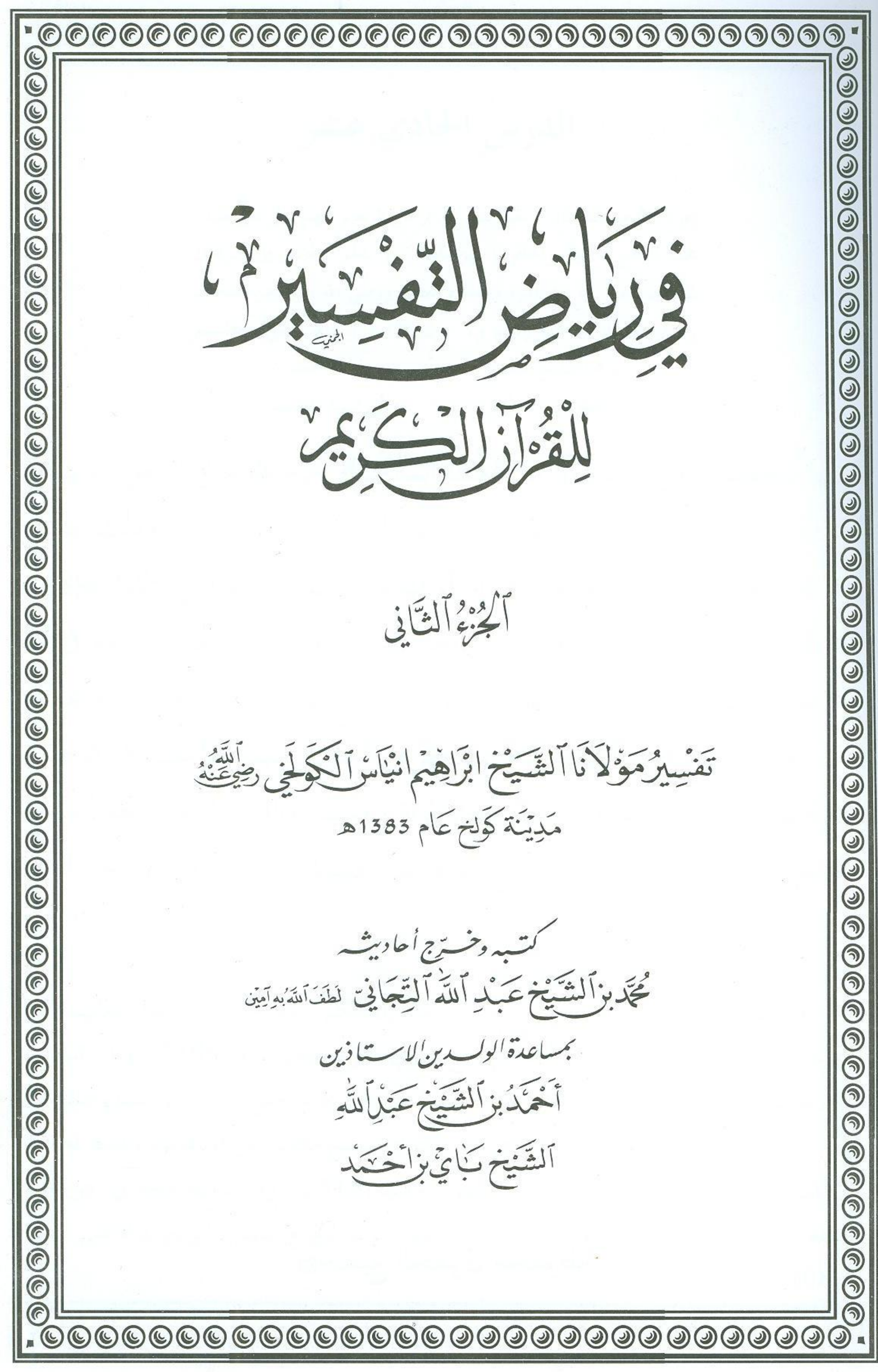


في رياض التفسير للقرآن الكريم

الجزء الثاني

تفسير مولانا الشيخ ابراهيم انياس الكولخي رضي الله عنه

مدينة كولخ عام 1383هـ

كتبه وخرج أحاديثه

محمد بن الشيخ عبد الله التجاني لطف الله به آمين

بمساعدة الولدين الاستاذين

أحمد بن الشيخ عبد الله

الشيخ باي بن أحمد

الدرس الحادي عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري	لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة	تأتي لنا بالظفر

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ حرم الله على الرجل أن ينكح المحصنات أي ذوات الأزواج، المرأة تحت الرجل محرم نكاحها، وذلك صيانة للمسلم من أن يشترك مع غيره في امرأة فهذه ليست مروءة، فهي دناءة ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلا إذا اقتضى أن الرجل سبى امرأة لها زوج فهذا له قوة في أن يستولي عليها دون مشاركة فلهذا حلت له بالملك بعد الاستبراء. هذه أربع عشرة أو خمس عشرة من النساء حرم نكاحهن، وألحقت السنة الأخت في الرضاع والصهر والجمع بين المرأة وخالتها وبين المرأة وعمتها، والذين لم يقبلوا هذا[1] منعوا نسخ القرآن بخبر الآحاد (ولا تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها)[2] خبر آحاد

1- قال القرطبي عند تفسيره قوله تعالى "وأحل لكم ما وراء ذلكم": هم الخوارج ولا يعتد بخلافهم لأنهم مرقوا من الدين، وكذا نقله عنه ابن حجر في فتح الباري (شرح الحديث رقم 5108)، وقال النووي: هم طائفة من الخوارج والشيعة (انظره في شرح الحديث من باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها).

2- حديث (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها) صحيح مسلم: عن أبي هريرة واللفظ له. من كتاب النكاح/ باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها (2518)، وفي صحيح البخاري: عن جابر بلفظ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث كتاب النكاح/ باب لا تنكح المرأة على عمتها (5108).

وليس نَهيا إنما هو خبر، والخبر لا يثبت حكما ينسخ نص القرآن[1]. فأجيب بأن في الآية ما يدل على معنى الحديث وهو قوله تعالى "وأن تجمعوا بين الأختين" فحيث كان المنع علته القرابة بينهما فهذه القرابة تدخل بين المرأة وخالتها وبين المرأة وعمتها. والرسول صلى الله عليه وسلم علل ذلك بأن ذلك يوجب البغضاء والعداوة بينهما وقطع الأرحام[2] فلذلك قالوا إن المنع إرشاد لا تشريع.

«والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم» الإحصان في القرآن على أربعة معان: الأول المرأة ذات الزوج "والمحصنات من النساء"، والثاني التعفف "محصنين غير مسافحين"، والثالث الحرة "فمن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات" أي الحرائر، والرابع الإسلام "فإذا أحصن" لأن الإماء ليس لهن إحصان، إنما معنى أحصن أسلمن فقط ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فرض الله عليكم هذا الحكم تأكيدا ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أو وأُحِل قراءتان «وأحَلّ لكم ما وراء ذٰلكم» سوى ما حرم عليكم من النساء ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ تطلبوا النساء ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بصداق في حق الحرة أو ثمن في حق المملوكة ﴿مُحْصِنِينَ﴾ متزوجين ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ غير زانين. لما ذكر أربع عشرة امرأة أو خمس عشرة بيّن أنه أحل ما سوى ذلك، وهذا التحليل أبدي في قسم وغير أبدي في قسم، كما أن المحرمات أقسام: محرمة تأبد تحريمها وهي ما ذكر من النساء، ويحرم نكاح المبتوتة، وهذا التحريم ليس أبديا إلا بعد زوج، وذات الزوج إلا بعد الطلاق، وذات العدة حتى تنقضي عدتُها،

1- هو قول الخوارج فالحديث عندهم لا ينسخ حكما ثبت في القرآن لعدم ثقتهم برواة الحديث كما قال ابن حجر.

2- أخرج ابن حبان من حديث ابن عباس (نهى أن تزوج المرأة على العمة والخالة وقال إنكن إذا فعلتن ذلك قطعتن أرحامكن) ذكر الحديث عنهما ابن حجر في فتح الباري (شرح الحديث 5108).

والأخت الثانية حتى تُطلق أختها، والخامسة حتى تُطلق الرابعة، هذا التحريم ليس أبديا ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ تمتعتم ﴿بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ممن تزوجتم بالوطء ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن التي فرضتم لهن ﴿فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم﴾ أنتم وهن ﴿بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ من حطها كلها أو بعضها أو زيادة عليها. العوائد في النكاح كلما تراضى الزوج مع الزوجة فلا بأس بذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾ غنى ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فلينكح الإماء ﴿مِن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ من الإماء المؤمنات ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ الإيمان شرط في نكاح المملوكات، والإيمان قلبي فلهذا ذكر سبحانه وتعالى «والله أعلم بإيمانكم» فاكتفوا بظواهره وكِلوا السرائر إليه فإنه العالم بتفصيلها، فرب أمة تفضل الحرة، وهذا تأنيس بنكاح الإماء، تزويج المملوكة، مملوكة الغير يجوز إذا عجز الإنسان عن تزويج حرة وخشي العنت، والصبر خير من تزويج المملوكة لأنك تصير ولدك إلى رق، وهذا مذهب مالك أن من عجز عن أن ينكح حرة وخشي العنت فله تزويج الإماء، ومذهب الشافعي لا يشترط شيئا في تزويج الإماء، فسّر النكاح بالوطء فقط إذا لم تقدر على وطء الحرائر في الحين ليس عندك حرة تنكحها فلا بأس بتزويج المملوكة ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ مواليهن ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ أعطوهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير مطل أو نقص ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زانيات جهرا ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أخلاء يزنون بهن سرا ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ زوجن أي تزوجن ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زنا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر الأبكار إذا زنين ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ الحد فيجلدن خمسين ويغربن نصف سنة ويقاس عليهن العبيد، ولم يجعل

الإحصان شرطا لوجوب الحد بل لإفادة أنه لا رجم عليهن أصلا ﴿ذَلِكَ﴾ نكاح المملوكات عند عدم الطول ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ﴾ الزنا ﴿مِنكُمْ﴾ بخلاف من لا يخافه من الأحرار فلا يحل له نكاحها وكذا من استطاع طول حرة وعليه الشافعي. وخرج بقوله «من فتياتكم المؤمنات» الكافراتُ، فلا يحل له نكاحهن ولو عدم وخاف ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لئلا يصير الولد رقيقا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالتوسعة في ذلك.

أخبر تبارك وتعالى في هذه الآية بحكم النكاح ما يحل وما يحرم، والنكاح يختلف الناس فيه باختلاف طبقاتِهم: واجب على من كان قويا وشديد التوقان للشهوة، هذا واجب عليه أن ينكح، ومندوب في حق المعتدل، وممنوع في حق العاجز عن الإيقاع أو عن النفقة والمهر. وإذا أراد الشخص أن يتزوج فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول (عليك بذات الدين)[1] يختار ذوات الدين حقا بنات الصالحين، وتُختار البكر لأن البكر أصدق محبة، قالوا: إن الثيب إذا تزوجتها وليس لها ولد من غيرك فلك نصف قلبها والنصف الباقي للزوج الأول، وإن وجدتْ ولدا قبلك فليس لك منها شيء، نصف قلبها للزوج الأول والنصف الثاني للولد، تأكل رزقك وتعاديك غالبا. ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم: (حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة)[2]، النساء لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يجد في

---

1 – (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) عن أبي هريرة متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب الأكفاء في الدين (5090) وفي صحيح مسلم: كتاب الرضاع/ باب استحباب ذات الدين (2661) وفي رواية (فعليك بذات الدين) (2662)

2 – (حبب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) رواه عن أنس أحمد في مسنده: مسند المكثرين/ (13526) وفي سنن النسائي: كتاب عشرة النساء/ باب حب النساء (3878).

الزوجات عونا على تبليغ الرسالة وكل متزوج يجد معونة من زوجته في إقامة الدين. لو لم يكن إلا أن تكفيه من الطحن والعجن والطبخ والغسل وكنس البيت ورعاية الولد، كل هذا لو باشره الرجل لاشتغل به عن دينه، فإذا المرأة ليست من الدنيا، بل هي عون على الدين في حق المسلم، فلذا قالوا إن المرأة الصالحة ليست من الدنيا، فلذا قال الرسول (حُبب إلي من دنياكم النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة) المرأة فيها الوجه الحسن الذي يُذكره بجمال الله تبارك وتعالى، والطيب فيه الرائحة الطيبة وأصله من الجنة فكل هذا حُبب إليه، ولكن قرة عينه في الصلاة، لم يقل إن قرة عينه بالصلاة ولكن قرة عينه في الصلاة، الحالة التي يجدها في الصلاة هي التي تقر بها عينه صلى الله عليه وسلم لا عين الصلاة محل المناجاة "فاسجد واقترب" ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ شرائع دينكم ومصالح أمركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ طرائق الأنبياء في التحليل والتحريم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يرجع بكم عن معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لكم ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرره ليبني عليه ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ اليهود والنصارى والمجوس والزناة ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ يسهل عليكم أحكام الشرع ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن النساء والشهوات. ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية أنه يريد لنا أربعة أشياء بفضله تبارك وتعالى: يريد أن يبين لنا الشريعة ويريد أن يهدينا الصراط المستقيم ويريد أن يتوب علينا ويريد أن يخفف عنا. «ويريد الذين يتبعون الشهوات» فرقة من قريش كانوا ينتقدون حكم الشريعة يقولون أنتم حرم عليكم القرآن عماتكم وخالاتكم وتزوجتم ببنات العمات وبنات الخالات فعلى هذا يحل تزويج بنات الأخت وبنات الأخ هم سواء، بنات الأخت حرام في القرآن والعمات حرام

وتزوجتم بنت العمة وتزوجتم بنت الخالة فكيف حرمتم بنت الأخ وبنت الأخت؟ «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما» هؤلاء هم الذين أرادوا بكم الميل والله أراد بكم الهداية. أراد لنا أربعة أشياء: أن يبين لنا الشريعة هي واضحة ليلها كنهارها، وأراد أن يهدينا الصراط المستقيم وهو الصراط إلى الله تبارك وتعالى، وأراد أن يقبل منا التوبة فنرجع إلى الله تبارك وتعالى، وأراد أن يخفف عنا وهذه أكبر نعمة علينا. جعل التخفيف على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته فصار سيرهم بالمعونة كما كان سير من قبلنا بالمؤْنة. قال إبراهيم "إني ذاهب إلى ربي سيهديني" فكان الذهاب من إبراهيم مؤنة، وقال في حق موسى "ولما جاء موسى لميقاتنا" فكان المجيئ من موسى مؤنة على موسى، وقال في حق محمد "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا" فكان الإسراء معونة لا مؤنة، وقال في حقنا نحن "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" فكانت الإراءة من الحق لا منا معونة أيضا. فمنعوا الوصل والوصال وأعطي محمد صلى الله عليه وسلم الوصل والوصال "دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى" والوصال "ما كذب الفؤاد ما رأى" وفي حقنا نحن (من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا..)[1] فكان هذا كلا بالمعونة لا بالمؤنة ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ لأن الله تبارك وتعالى خلق الأشياء متباينة، الملَك نوراني حياته في العبادة فقط ويستمر على ذلك لا يتغير، والبهائم والحيوانات حياتُهم في شهواتِهم فقط ولا يتغيرون عن ذلك، وخلق الإنسان ضعيفا

---

1 - (قال الله تعالى إذا تقرب العبد إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة) صحيح البخاري عن أنس: كتاب التوحيد/ باب ذكر النبي وروايته عن ربه (7536)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (4850).

بحيث لا يقدر على حالة فلضعفه وصل إلى أعلى مقام. الإنسان لما ضعف تجده تارة يتبع الشهوة كأنه بَهيمة، تارة يأكل وتارة ينكح ويشرب، وتارة يغضب وتارة يمكر، وتارة يصلي ويذكر الله ويتعبد كأنه ملَك، وهذا التغير ليس إلا في الإنسان؛ الملَك لا يقدر أن يتقلب إلى حالة الحيوانات، والحيوانات لا تقدر أن تتقلب إلى حالة الملك، والإنسان تارة ملَك وتارة حيوان، لضعف الإنسان لا يقدر على حالة، إذ أحب الأشياء إليه الأكل، إذا وُضع الأكل بين يديك وشرعت تأكل لا يمضي نصف ساعة إلا وعجزت عن الأكل، الشرب كذلك، شهوة النساء كذلك، إذا وقفت أعجزك الوقوف، إذا جلست لا تقدر أن تستمر على الجلوس، إذا اضطجعت لا تقدر أن تستمر على ذلك، إذا نمت عجزت عن النوم وإذا استيقظت عجزت عن اليقظة، كل ما فعل الإنسان لا يستمر عليه إلا وعجز عنه لضعفه؛ فلهذا الضعف أعانه الله تبارك وتعالى حتى صار خير البرية. الله يقول: أنا مِلك حي لا يموت، ابن آدم إذا أطعتني جعلتك ملكا حيا لا يموت فبذلك يكون خير البرية، وبِهذا الضعف أيضا يفسد الإنسان حتى يصير شر البرية، لأنه لا يقدر على حالة، إذا فعل فاحشة ينتقل منها إلى فاحشة أخرى وينتقل منها ولا يسأم الإنسان أبدا لا يفعل شرا إلا وتمنى أن يفعل شرا من ذلك حتى يصير شر البرية، فلهذا وصف الإنسان بأنه خير البرية ووصف بأنه شر البرية هذا لضعفه. هذا الضعف مدح في حق من أحبه الله وذم في حق من أبغضه الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ بالحرام شرعا كالربا والغصب. حرمة مال المسلم كحرمة دمه، حرم الله تبارك وتعالى مال المسلم وعرضه ودمه ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ﴾ تقع ﴿تِجَارَةٌ﴾ مبايعة بين شخصين ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ وطيب نفس فلكم أن تأكلوها، إذا بعت أو اشتريت ذلك حلال عليك

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بارتكاب ما يؤدي إلى هلاكها أيا كان في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ في منعه لكم من ذلك. الإنسان لا يتكالب على الدنيا فيكون حريصا على الدنيا بحيث لو فقد ماله قتل نفسه، فإن من قتل نفسه حرم الله عليه الجنة، أو لا تقتلوا أنفسكم لا ترتكبوا شيئا يؤدي إلى الهلاك. فسرها عمرو بن العاص حين قام وقت السحر واشتد عليه البرد فتيمم وصلى وقال: الله يقول «ولا تقتلوا أنفسكم» وقال هذا التأويل بين يدي الرسول صلى اله عليه وسلم وما أنكر عليه[1]. وقيل إن قتل النفس هو تعلقها بالدنيا والحرص عليها، لأن الدنيا أبناؤها الذين يشتغلون بِها لا بد تقتلهم عن آخرهم. كان عيسى عليه الصلاة والسلام مسافرا معه يهودي يدّعي أنه آمن به، فأخذ عيسى ثلاث خبزات وحمّلها اليهودي، فلما طال السفر سرق اليهودي واحدة منها وأكلها، فلما انتصف النهار دعاه عيسى قال له: آتنا الطعام فأتى بخبزتين، قال له عيسى: أين الثالثة؟ قال: ما رأيتها، أقسم أنه ما رأى الخبزة الثالثة. فمر غزال قال له عيسى: قل لهذا الغزال يأتني، قل له أجبْ روح الله. فقال له يا غزال أجب روح الله. فأتى الغزال واضطجع قال له:

1- جاء في سنن أبي داود عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت إني سمعت الله يقول "ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما" فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا. سنن أبي داود: كتاب الطهارة/ باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم (283). وفي مسند أحمد: مسند الشاميين/ باب بقية حديث عمرو بن العاص (17144). وقد ترجم به البخاري في صحيحه من كتاب التيمم/ باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم. (فقال) ويذكر أن عمرو ابن العاص أجنب في ليلة باردة فتيمم وتلا "ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما" فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف.

اذبح فذبح، قال له أوقد نارا فأوقد نارا وشوى فأكلا، فلما أكلا حتى شبعا قال له عيسى: قم بإذن الله فقام وذهب، قال اليهودي: هذا عجب. قال له: بحق من فعل لنا هذا أين الخبزة الثالثة؟ قال: ما رأيتها، فذهبا ووصلا إلى بحر قال له: هذا بحر أمامنا ما الرأي؟ قال: هذا لا نتجاوزه إلا بسفينة، قال له: أغمض عينيك، فأغمض عينيه فإذا هما وراء البحر، تجاوزا البحر. قال: سبحان الله هذا عجب. قال: بحق من فعل لنا هذا أين الخبزة؟ قال: ما رأيتها. فذهبا ووجدا ثلاث جزافات من الذهب فجلسا قال له عيسى: هذا شيء من الذهب لنا نقسمه بيننا، جزء لي أنا وجزء لك أنت وجزء لمن أكل الخبزة. قال له: أنا الذي أكلتها، قال عيسى: أفٍ لك، ما رأيتَ من الآيات كلا لم يحملك على أن تصدُق والدنيا تحملك على الصدق، خذ الجزافات كلها. وذهب عنه عيسى[1]. بقي جالسا عند جزافات الذهب لا يقدر أن يحملها ولا يقدر أن يذهب عنها فجلس عندها فقط. فلما جن الليل جاء ثلاثة نفر فقالوا: ما تفعل هنا؟ قال: هذا الذهب لي وأنا أجلس هنا أحرسه، فقتلوه وأخذوا الذهب هم ثلاثة كلهم أخذ جزافا، فجلسوا حتى الصباح أضر بِهم الجوع قالوا: نرسل واحدا منا إلى قرية يشتري لنا طعاما نأكله فأرسلوا أحدهم، فلما ذهب تشاور الرجلان، قالا إذا أتى فلان نقتله قبل أن نأكل ويبقى الذهب لنا نحن الإثنين، ولما ذهب هو إلى السوق اشترى طعاما قال: أجعل فيه سما إذا أكله صاحباي يموتان ويبقى الذهب لي، فجعل السم في الطعام وعاد إلى الرجلين فلما وضع الطعام قتلاه حينا وأكلا فماتا أيضا، فرجع عيسى ووجد الأربعة موتى كلهم عند الذهب. قال: هكذا الدنيا تفعل بأولادها «ولا تقتلوا

1- من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ج1/ 703.

أنفسكم» باتباع الدنيا «إن الله كان بكم رحيما» في منعه لكم من ذلك. ﴿وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَلِكَ﴾ ما نُهي عنه ﴿عُدْوَانًا﴾ تجاوزا للحلال ﴿وَظُلْمًا﴾ تأكيد ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ ندخله ﴿نَارًا﴾ يحترق فيها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وهي ما ورد عليها وعيد كالقتل والزنا والسرقة. وعن ابن عباس: هي إلى سبعمائة أقرب[1] ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إن الله يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ هو الجنة. الكبائر قالوا إنّها تعد إلى سبعمائة، سئل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (اجتنبوا الموبقات السبع: الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف الحرة المحصنة، والفرار من الزحف)[2]. حد صلى الله عليه وسلم الموبقات بهذه السبع، هي التي ذكرت الآية «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» وقيل كل ما ورد عليه وعيد في القرآن[3] «وندخلكم مدخلا كريما» هو

1– عن سعيد بن جبير أن رجلا قال لابن عباس: كم الكبائر سبع؟ قال هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار. ابن كثير ج1/ 487.

2 – أخرج البخاري عن أبي هريرة (اجتنبوا السبع الموبقات قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ باب قوله تعالى إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما (2766)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر وأكبرها (129). وأخرج الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور) فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب عقوق الوالدين من الكبائر (5976)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر وأكبرها (126).

3– قال ابن عباس: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. ابن كثير ج1/487.

الجنة. إن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب، ويبدل السيئات حسنات ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ نزلت لما قالت أم سلمة: ليتنا كنا رجالا فجاهدنا وكان لنا مثل أجر الرجال، فنزلت[1] ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من جهة الدنيا أو الدين لئلا يؤدي إلى التحاسد والتباغض ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثواب ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُواْ﴾ بسبب ما عملوا من الجهاد وغيره ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ من طاعة أزواجهن وحفظ فروجهن. هذه الآية تمنع تمني ما أعطى الله إنسانا غيرك، وذلك أن سعادة الإنسان على ثلاثة أقسام: سعادة نفسانية كالذكاء والعلم والمعارف كمية وكيفية، والعفة والشجاعة والكرم كل هذه أخلاق تتعلق بنفس الإنسان، وقسم منها بدني كالصحة وطول العمر ما يتعلق ببدن الإنسان، وخارجي ككثرة الأولاد والمال والأصدقاء والإخوان والذكر الحسن ومحبة الناس للشخص إلى غير ذلك، فإذا نظر الإنسان إلى إنسان توفرت عنده هذه الأشياء وهو ليس عنده شيء منها، إما أن يتمنى حصول ما عند الإنسان أو يتمنى زوال تلك النعم عن الإنسان. إذا تمنى زوالها فهو حسد وإن تمنى أن يحصل له مثل ما حصل للإنسان فهذه غبطة وليست معصية إلا أن القرآن نَهانا أن نتمنى ما عند الإنسان على كل حال، فإذاً لا يتمنى أحد ما عند أحد، لا تقل اللهم أعطني دارا كدار فلان، مالا كمثل مال فلان وزوجة كزوجته، ربما يكون شيء عند أحد خيرا، وإذا كان عند غيره يكون شرا، رب من كان كثير المال وصلح

1- أخرج أحمد في مسنده عن مجاهد قال قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ولنا نصف الميراث فأنزل الله "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض". مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث أم سلمة زوج النبي (25511). وأخرجه الترمذي في سننه كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة النساء (2948) وقال هذا حديث مرسل.

دينه ولو انتقل هذا المال إلى المتمني لفسد دينه. إذا الإنسان لا يتمنى ما عند غيره بل يسأل الله من فضله، يسأل الله ما فيه صلاح دينه ودنياه وأخراه. وإذا نظرت في هذا تجد الدعاء الذي علمنا القرآن هو أفضل الأدعية مطلقا "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" وقيل «ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض» في خبر الدنيا وإليه يشير حديث (انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم)[1] لأن الإنسان كائنا من كان إذا نظر فوقه يرى من عندَه أضعاف أضعاف ما عنده هو فيستقل ما عنده فيقل شكره وربما يحسده، وإذا نظر إلى من دونه كائنا من كان يرى أنه فاق كثيرا من الخلق بأشياء كثيرة فيستكثر ما عنده ويحمد الله تبارك وتعالى. إذاً إذا أردت أن تنظر فانظر إلى من تحتك ذلك أدعى للشكر ولا تنظر إلى من فوقك ذلك أدعى للحسد والسخط، وهذا في أمور الدنيا. أما في الدين فلا بأس أن تنظر إلى من هو فوقك لتقتدي به وتجاهد نفسك حتى تكون كمثله، ولا تنظر إلى من هو دونك فترى أنك في حالة محمودة. الإنسان ولو بلغ ما بلغ من الكسل وقلة العمل إذا نظر إلى من دونه يرى أن حالته حسنة، لهذا تنظر إلى من هو فوقك ولا تنظر إلى من هو دونك. والإنسان إذا تمنى ما عند غيره وتمنى زواله فذلك حسد، والحسد يأكل حسنات العبد كما تأكل النار

---

1 - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق (5264) وللترمذي ولابن ماجه وأحمد كلهم عن أبي هريرة حديث صحيح.

الحطب[1] ﴿وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ ما احتجتم إليه يعطكم. لا تتمن زوال نعمة من أحد بل سل الله فقط يعطك ما تريد "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ومنه محل الفضل وسؤالكم ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الرجال والنساء ﴿جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ عصبة يعطون ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ لهم من المال ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ حلفاؤكم الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظوظهم من الميراث وهو السدس ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ مطلعا ومنه حالكم، وهذا منسوخ بقوله "وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض" ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ سبب نزول هذه الآية أن سعدا بن الربيع ضرب زوجته فشكا أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم القصاص ودعا سعدا لتقتص المرأة منه فنزلت هذه الآية «الرجال قوامون على النساء» فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير)[2] فعلمنا أن المرأة ليس لها قصاص على زوجها ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ مسلطون ﴿عَلَى النِّسَاءِ﴾ يؤدبونهن ويأخذون على أيديهن ﴿بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بتفضيله لهم

1- جاء في الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب) سنن أبي داود: كتاب الأدب/ باب في الحسد (4257)، ولابن ماجه في كتاب الزهد/ باب الحسد (4200).

2- قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية: الآية نزلت في سعد بن الربيع نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير فلطمها فقال أبوها يا رسول الله أفرشته كريمتي فلطمها، فقال عليه السلام (لتقتص من زوجها) فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ارجعوا هذا جبريل أتاني) فأنزل الله هذه الآية فتلاها صلى الله عليه وسلم وقال: (أردنا أمرا وأراد الله غيره) وفي رواية أخرى (أردت شيئا وما أراد الله خير). القرطبي ج168/5.

عليهن، فضل الرجل بالعلم والعقل والولاية وغير ذلك ﴿وَبِمَا أَنفَقُواْ﴾ عليهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ النكاح بينهما والمال يدفعه الرجل ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ منهن ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لفروجهن وغيرها في غيبة أزواجهن ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ حيث أوصى عليهن الأزواج. الرجل سلطان على المرأة، لأن الرجل أعلم منها وأعقل وله الولاية عليها وهو الذي ساق المهر وتكفل بالنفقة، فإذاً الرجل أمير على المرأة، فالمرأة الصالحة لابد أن تطيع أمر زوجها وتحفظ فرجها ومال زوجها إذا غاب عنها الزوج. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتَها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها)[1] المرأة الصالحة تطيع أمر زوجها وتحفظ فرجها ومال زوجها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والإمام راع وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2] معاشرة النساء من أفضل الطاعات، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحسن العشرة مع

---

1 - (خير النساء من تسرك إذا أبصرت وتطيعك إذا أمرت وتحفظ غيبتك في نفسها ومالك) للطبراني في الكبير عن عبد الله بن سلام حديث صحيح. الجامع الصغير ج1/ رقم 4046.

2 - عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته قال وحسبت أن قد قال والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته) صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب الجمعة في القرى والمدن (893) صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل (3408).

نسائه، لأنّهن ناقصات عقل ودين[1]، من صبر لضررهن يجد عند الله ثوابا كبيرا. قالوا: إن احتمال المرأة في شيء واحد احتمال لعشرين شيئا[2]، إذا غضبت المرأة واحتملتَ غضبها سلّمتَ الولد من اللطمة، وسلمت العجل من الضربة، وسلمت الضيف من الطرد، وسلمت القدر من الكسر، وسلمت الثوب من الشق إلى غير ذلك، إذا أغضبتها آذت هؤلاء كلا وإن صبرتَ سلّمتَ هؤلاء كلاًّ. ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانَهن لكم بأن ظهرت أمارته ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فخوفوهن الله ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ اعتزلوا إلى فراش آخر إن أظهرن النشوز ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربا غير مبرح إن لم يرجعن بالهجران. المرأة إذا أظهرت نشوزا فالطريقة الأولى أن تعظها تقول لها: إن الله تبارك وتعالى أوجب عليكِ طاعتي امتثال أمري واجتناب نَهيي، والمرأة إذا رضي عنها زوجها دخلت الجنة[3]، فإن انتفعت بِهذه الموعظة فنعم وإلا فاهجرها في المضاجع، إن انزجرت فذاك وإلا فاضربْها ضربا غير مبرح بأن لا تكسر عضوا ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فيما يراد منهن ﴿فَلاَ تَبْغُواْ﴾ تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ إذا وعظتها وقبلت الموعظة لا تقل لابد لي من ضربِها ظلما ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ علمتم ﴿شِقَاقَ﴾ خلاف ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين الزوجين، إذا وقع بينهما

1- ورد بذلك حديث صحيح متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب الزكاة/ باب الزكاة على الأقارب (1462) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (114).

2- ذكره في روح البيان ج203/2.

3- عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب. سنن الترمذي: كتاب الرضاع/ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة (1081).

شقاق ﴿فَابْعَثُواْ﴾ إليهما برضاهما ﴿حَكَمًا﴾ رجلا عدلا ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ أقارب الزوج ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أقارب المرأة، ويوكل الزوج حكمه في الطلاق وقبول عوض عليه، وتوكل هي حكمها في الاختلاع فيجتهدان ويأمران الظالم بالرجوع أو يفارقان إن رأيا ذلك. ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ الحكمان ﴿إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بين الزوجين يقدرهما على ما هو الطاعة من إصلاح أو فراق ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿خَبِيرًا﴾ بالبواطن كالظواهر ﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برا ولين جانب ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ القرابة ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ القريب منك في الجوار أو النسب ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ البعيد عنك في الجوار أو النسب ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ الرفيق في السفر أو العمل وقيل الزوجة ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطع في سفره ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الأرقاء ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً﴾ متكبرا ﴿فَخُورًا﴾ على الناس بما أوتي ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بما يجب عليهم ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ به ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من العلم والمال، وهم اليهود لهم وعيد شديد، الخبر محذوف ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ﴾ بذلك وبغيره ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ذا إهانة ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مرائين ﴿وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كالمنافقين وأهل مكة ﴿وَمَنْ يَّكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ صاحبا يعمل بأمره كهؤلاء، ﴿فَسَاءَ﴾ بئس ﴿قَرِينًا﴾ هو ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ لا ضرر عليهم ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ فيجازيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ﴾ أحدا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة، أصغر نملة بأن ينقصها من حسناته أو يزيدها في سيئاته ﴿وَإِن تَكُ﴾ الذرة ﴿حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ من عشر إلى أكثر من سبعمائة ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ من عنده مع المضاعفة ﴿أَجْرًا

عَظِيمًا﴾ ربما يعطي الله شيئا من عنده ليس للعبد فيه عمل، وذلك كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: إذا جاء يوم القيامة وقف الرسول صلى الله عليه وسلم وشفع وشفع الأنبياء وشفع العلماء وشفع الشهداء والمؤمنون حتى لم يبق في النار إلا من لا شفيع له فيقول الرب تبارك وتعالى: شفع الأنبياء والشهداء والأولياء والعلماء والمؤمنون لم يبق إلا أنا وأنا أرحم الراحمين، انظروا في النار كل من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه من النار فيُخرِجون خلقا كثيرا، فيقول انظروا من كان عنده نصف دينار فأخرجوه فيخرِجون خلقا كثيرا، فيقول انظروا في النار من كان عنده مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا، وبعد ذلك يأخذ قبضة لم يسبق لهم خير قط ويدخلهم الجنة بفضله وكرمه[1]، هذا معنى «وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما» يؤتي شيئا من عنده فقط ليس للعبد فيه أي سبب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليها

1- جاء في مسند أحمد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الشفاعة يوم القيامة: ...ثم يقال ادعوا الصديقين فيشفعون ثم يقال ادعوا الأنبياء قال: فيجيء النبي ومعه العصابة والنبي ومعه الخمسة والستة والنبي وليس معه أحد ثم يقال ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا وقال: فإذا فعلت الشهداء ذلك قال: يقول الله عز وجل: أنا أرحم الراحمين أدخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا ...الحديث. مسند أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ مسند أبي بكر الصديق (15). وأخرج النسائي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما مجادلة أحدكم في الحق يكون له في الدنيا بأشد مجادلة من المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار، قال: يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار، قال: فيقول اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم، قال: فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كعبيه، فيخرجونهم فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا قال: ويقول أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان، ثم قال من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى يقول من كان في قلبه وزن ذرة. سنن النسائي: كتاب الإيمان وشرائعه/ باب زيادة الإيمان (4924) وسنن ابن ماجه: كتاب المقدمة/ باب في الإيمان (59).

بعملها وهو نبيها ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد صلى الله عليك وسلم ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ شهيدا على هؤلاء. إذا جاء يوم القيامة يجاء بنوح عليه الصلاة والسلام وهو أول الأنبياء فيقال له: هل بلغك جبريل ما أرسلت به إليك؟ يقول: نعم بلغني جبريل؛ وأنت هل بلغت لقومك؟ يقول: نعم بلغت لقومي. ينادَى أمة نوح: هل بلغكم نوح؟ يقولون: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فيقول الله تبارك وتعالى: من يشهد لك يا نوح أنك بلغت؟ يقول: أمة محمد صلى الله عليه وسلم. فتشهد أمة محمد أن الله أنزل في القرآن: "إنا أرسلنا نوحا إلى قومه، إلى آخر السورة، فشهدوا بأن نوحا قد بلغ وهم كفروا، فيشهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن أمته وسط عدول خيار تُقبل شهادتُهم[1]. ثم كذلك إلى آخر الأمم، فيجاء بمحمد صلى الله عليه وسلم شهيدا علينا نحن. كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالسا فنزل عليه جبريل وقال له: إن الله يأمرك أن تسمع القرآن من أبي بن كعب؛ فأرسل الرسول إلى أبي قال له: أمرني ربي بأن أسمع منك القرآن، قال له: سماني باسمي؟ وبكى فرحا؛ فصار يقرأ من أول سورة النساء حتى بلغ هنا «وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» ففاضت عينا الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: حسبك حسبك[2].

1– عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله جل ذكره "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا (4487). وقد تقدم في الدرس5.

2 – عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأُبَي إن الله أمرني أن أقرأ عليك "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب" قال: وسماني؟ قال: نعم، فبكى. صحيح البخاري: كتاب المناقب/

دفن أبو يزيد البسطامي فجاءه الملكان قالا له: ومن ربك؟ قال: لا تسألاني سلاه هو إن قلت إني عبده و لم يقبل لا فائدة في هذا، سلاه إن قال إني أنا عبده فذلك وإلا لا فائدة في كلامي[1] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم المجيء ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ يتمنون بأن يكونوا ترابا لعظم الهول، كما في آية أخرى "ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا" يتمنى الكفار أن تتسوى بِهم الأرض ويكونوا ترابا ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا﴾ مما عملوا. في وقت آخر يكتمونه يقولون "والله ربنا ما كنا مشركين"، ما بين هاتين الآيتين: "والله ربنا ما كنا مشركين" هذا كتم، وهنا قال "ولا يكتمون الله حديثا" لأنّهم حاولوا الكتمان "والله ربنا ما كنا مشركين" فختم الله على أفواههم، فتكلمت الأعضاء كلا، نطقت كل جارحة بما عملت فلم يكتموا شيئا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ﴾ الآية الثالثة من آيات الخمر، لما نزل "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس" شرب بعض وترك بعضٌ، فعمل عبد الرحمن بن عوف وليمة واستحضر كبراء الصحابة، فأكلوا وشربوا الخمر وقدَّموا سيدنا عليا بن أبي طالب لصلاة المغرب فقرأ سورة "الكافرون" بحذف اللاءات كلا، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ

باب مناقب أبي بن كعب (3809). وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي بن كعب وصحابة من الأنصار (4510).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: اقرأ علي، قلت آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" قال: أمسك، فإذا عيناه تذرفان. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب فكيف إذا جئنا من كل أمة (4582) وفي صحيح مسلم من كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه (1333).

1- روح البيان ج2/ 128.

﴿الصَّلاَةَ﴾ لا تصلوا ﴿وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ من الشراب[1] ﴿حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ بأن تصحوا، فقرأ الرسول هذه الآية فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا كافيا، إلى الآن ما تبين الحكم، بعضهم يشرب إذا أراد النوم في الليل ويصحو قبل صلاة الصبح فيصلي وهو غير سكران، وبعضهم ترك مطلقا حتى نزلت الآية الرابعة من سورة المائدة حرمت الخمر تماما ﴿وَلاَ جُنُبًا﴾ بإيلاج أو إنزال ﴿إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا مجتازين مسافرين ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُواْ﴾ فلكم أن تصلوا إذا اغتسلتم، أما قبل الاغتسال فالنهي عن قربان مواضع الصلاة أي المساجد إلا عبورها من غير مكث، إذا كان الشخص جنبا لا يدخل المسجد حتى مسجد بيته مصلاه لا يمكث فيه إلا عابر سبيل فقط ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ مرضا يضره الماء ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو مسافرين وأنتم جنب أو محدثون ﴿أَوْ جَا أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ هو المكان المعد لقضاء الحاجة أي أحدث ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً﴾ تتطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش وهو راجع إلى ما عدا المرضى ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقصدوا بعد دخول الوقت ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ترابا طاهرا فاضربوا به ضربتين ﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مع المرفقين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ هذه الآية نزلت في التيمم، إذا كان الإنسان ليس عنده

1- أخرج الترمذي في سننه عن علي رضي الله عنه أنه قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون فأنزل الله تعالى "يا أيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون". سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة النساء (2952). وفي سنن أبي داود من كتاب الأشربة/ باب في تحريم الخمر (3186) عن علي وفيه أن رجلا من الأنصار دعاه وعبدَ الرحمن بن عوف وذكر الحديث.

ماء، أو مرض مرضا عجز عن استعمال الماء خاف من زيادة مرض أو حدوثه أو تأخر برئه كما قال الفقهاء، فله أن يتيمم، وهو أن يقصد صعيدا طيبا، والصعيد الطيب عند الشافعي ما ينبت النبات، أخذه من قوله "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه" والصعيد الطيب عند مالك كل ما ظهر على وجه الأرض من أجزاء الأرض من تراب أو سبخة أو حجر[1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ حظا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ﴾ بالهدى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ﴾ تخطئوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ منكم، الله أدرى بالأعداء منا، فيخبركم بهم لتجتنبوهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ حافظا لكم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ مانعا لكم من كيدهم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ﴾ قوم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ الذي أنزل الله في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التي وضع عليها ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ دعاء أي لا سمعت ﴿وَ﴾ يقولون ﴿رَاعِنَا﴾ وقد نهى عن خطابه بها، وهي كلمة سب في لغتهم من الرعونة التي هي الحماقة ﴿لَيًّا﴾ تحريفا ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا﴾ قدحا ﴿فِي الدِّينِ﴾ طعنا في الإسلام ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بدل وعصينا ﴿وَاسْمَعْ﴾ فقط ﴿وَانظُرْنَا﴾ انظر إلينا بدل راعنا ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مما قالوه ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أعدل ﴿وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نمحو ما فيها من العين والأنف والحواجب ﴿فَنَرُدَّهَا

1- انظر قولي الشافعي ومالك في تفسير ابن كثير ج505/1.

عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ فنجعلها كالأقفاء لوحا واحدا ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نمسخهم قردة ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ مسخنا ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ قوم داود ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قضاؤه ﴿مَفْعُولاً﴾ ذكر في هذه الآية أن الله تبارك وتعالى لعن قوم داود الذين اعتدوا في السبت كما تقدم في سورة البقرة، حقا لعنهم داود عليه الصلاة والسلام "لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم". إن الله تبارك وتعالى جعل من عباده قوما لعْنُهم كلعْنِه تبارك وتعالى، ودعاؤهم كدعائه تبارك وتعالى وهم خلفاؤه، فإن داود وعيسى كلاهما دعا على قوم ولعنهم "لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم" أولئك الذين لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم هم الذين قال الحق هنا إنه لعنهم بنفسه، لعْن داود هو لعْن الله تبارك وتعالى «أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا» ولما نزلت أسلم عبد الله بن سلام فقيل كان وعيدا بشرط، فلما أسلم بعضهم رُفِع، وقيل يكون طمس ومسخ قبل قيام الساعة ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الذنوب سبب نزول هذه الآية أن وحشيا قاتل حمزة، كتب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إني أريد الإسلام ولكن يمنعني آية من كتاب الله "والذين لا يدعون مع الله إلها آخر" وأنا عبدت الجبت والطاغوت "ولا يقتلون النفس التي حرم الله" وأنا قاتل حمزة "ولا يزنون" وفعلت هذا كثيرا فنزلت "إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا"، كتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا، فقال: أنا عزمت على التوبة ولا أعلم هل إذا تبت أعمل عملا صالحا أم لا؟ ولم يتب فنزلت هذه الآية «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك» من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ المغفرةَ له بأن يدخله الجنة بلا عذاب ومن شاء عذبه من المؤمنين بذنوبه ثم يدخله الجنة. فنزلت هذه الآية فأرسلها الرسول صلى الله عليه

وسلم إليه، فقال: قال «لمن يشاء» ولا أدري هل أكون ممن يشاء أم لا، حتى نزلت "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا" فأرسلها إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلم بعد ذلك[1]. الناس على أقسام قسم أسلموا وعملوا عملا صالحا وماتوا على ذلك فهم من أهل الجنة بإجماع، وقسم عصوا الله تبارك وتعالى وتابوا واستغفروا من ذنوبِهم أولئك من أهل الجنة بإجماع، وقسم عصوا وماتوا قبل التوبة فأولئك مختلف فيهم. المرجئة يقولون إن المؤمن لا تضره المعاصي، يدخل الجنة فقط، وإن جميع الوعيد في القرآن إنما هو في حق الكفار، أما من آمن فقط فقد سلم من جميع الوعيد. وقسم يقول إن من فعل كبيرة خرج من الإسلام، إذا من فعل كبيرة فهو من أهل النار، وأهل السنة لا يخرجون مسلما من الإسلام بسبب كبيرة، فإذا ارتكب مسلم كبيرة ومات قبل التوبة فأمره إلى الله، والحق في ذلك ما قال أهل السنة بدليل هذه الآية «إن الله

1 - جاء في مجمع الزوائد للهيثمي: وعن ابن عباس قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام، فأرسل إليه: يا محمد، كيف تدعوني (إلى دينك) وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهانا، وأنا صنعت ذلك؟ فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله: "إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما" فقال وحشي: يا محمد، هذا شرط شديد، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا، فلعلي لا أقدر على هذا، فأنزل الله عز وجل: "إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" فقال وحشي: يا محمد، أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا؟ فهل غير هذا؟ فأنزل الله: "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم" قال وحشي: هذا نعم فأسلم، فقال الناس: يا رسول الله، إنا أصبنا ما أصاب وحشي، قال: «هي للمسلمين عامة». رواه الطبراني، وفيه: أبين بن سفيان، وهو ضعيف. مجمع الزوائد للهيثمي: كتاب التوبة/ باب في قوله تعالى "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" رقم (42671). وذكره الخازن في تفسيره ج1/ 367.

لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ذلك إلى المشيئة إن شاء أدخله الجنة بلا عذاب، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة بعد مدة، كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى. والمسلمون الذين ارتكبوا الكبائر حتى استوجبوا دخول النار إذا دخلوا النار ليسوا كالكفار في النار، الوجه الذي سجد لله لا يدخل النار أبدا، منهم من يكون قدماه في النار وشخصه بارز عن النار، ومنهم من إلى ركبته ومنهم من إلى صلبه[1]، ومنهم من إلى رقبته، أما الوجه الذي سجد لله فلا تمسه النار، وهؤلاء هم الذين إذا عذبوا بعد يوم أو بعد أيام أو بعد عام أو بعد أعوام سيخرجون من النار ويدخلون الجنة. آخر أهل النار خروجا من النار يخرج ويقف بين يدي الله تبارك وتعالى فيقول: يا رب اذهب بي إلى باب الجنة، ولا أطلب منك شيئا غير هذا، فيتعاهد مع الله أنه إذا وصل إلى باب الجنة يكفيه ذلك، وأعطَى ما أعطى من العهود والمواثيق، فيقول الرب تبارك وتعالى قربوه من الجنة، فلما كان بباب الجنة ونظر إلى ما في الجنة من النعيم والحور العين مكث مليا وقال يا رب أدخلني الجنة وليس لي منها شيء، فيدخله الجنة، ويمكث زمنا فيقول: يا رب أعطني من نعيم الجنة؛ فيقال له: ألم تعطِ العهود والمواثيق أنك لا تطلب غير ما أعطيت؟ فيقول: يا رب لا أكون أقل عبادك منك حظا. يقول الله تبارك وتعالى: تمنّ[2]، يرضيك إذا أعطيتك قدر

1- سبق تخريجه ضمن حديث في هامش الصفحة 17 من هذا الدرس من سنن ابن ماجه وسنن النسائي.

2- أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فاصرف وجهي عن النار فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره

الدنيا عشر مرات في الجنة؟ قال يا رب أتستهزئ بي؟ فعند ذلك ضحك الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: لا، أنا قادر على كل شيء، أعطيتك قدر الدنيا عشر مرات، هذا أقل أهل الجنة دولة[1] ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا﴾ ذنبا ﴿عَظِيمًا أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ وهم اليهود، هذه الآية نزلت في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف يمدحان نفسيهما بقولهما نحن أبناء الله وأحباؤه ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ يطهر من يشاء بالإيمان ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون من أعمالهم ﴿فَتِيلاً﴾ قدر فتلة النواة ﴿انظُرْ﴾ متعجبا ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بذلك ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ بينا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ نزلت في كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، هم رؤساء اليهود، لما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم أنّهم لا يحاربونه ولا يحاربُهم، وإذا وجدوا قضية تحتاج للمساعدة يساعدهم المسلمون وهم يساعدون المسلمين، كالدية ونحوها، فلما جاء

فيصرف وجهه عن النار ثم يقول بعد ذلك: يا رب قربني إلى باب الجنة فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويلك ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره فيقول لا وعزتك لا أسألك غيره، فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره فيقربه إلى باب الجنة فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: رب أدخلني الجنة ثم يقول أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فلا يزال يدعو حتى يضحك فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها فإذا دخل فيها قيل له: تمن من كذا فيتمنى ثم يقال له تمن من كذا فيتمنى حتى تنقطع به الأماني فيقول له: هذا لك ومثله معه قال أبو هريرة وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب الصراط جسر جهنم (6574). صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب معرفة طريق الرؤية (267).

1- متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود. صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (6571)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب آخر أهل النار خروجا (272).

يوم بدر وانتصر المسلمون قالوا: هذا هو النبي الذي ذكر في التوراة وأكدوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما جاء يوم أحد في القابل شكوا قالوا: هذا الذي وقع في المسلمين لم ندر هل هذا هو النبي الذي يأتي في آخر الزمان أم لا؟ فركب جماعة منهم إلى مكة وقالوا لأبي سفيان: نتعاهد معك على قتال محمد صلى الله عليه وسلم، قال لهم: لا آمنكم لأنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب، هو أقرب إليكم منا، قالوا: لا، هو أعدى أعدائنا ونحاربه معكم، قال لهم أبو سفيان: لا أقبل منكم إلا أن تسجدوا للصنم: الجبت والطاغوت. فسجدوا للجبت والطاغوت وهم علماء حسدا للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال لهم أبو سفيان: أعرض عليكم ديني وأعرض عليكم دين محمد وأنتم أهل كتاب علماء تحكمون بيننا وبين محمد هل نحن أفضل منه دينا أو هو أفضل منا دينا؟ نحن نسقي الحاج، ونقري الضيف، ونفك العاني، ومحمد قطع الرحم، وفارق الحرم، وأتى بدين مخالف لدين آبائنا، قالوا: أنتم أهدى سبيلا من محمد صلى الله عليه وسلم، دينكم أهدى من دين محمد[1]، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ صنمين لقريش، علماء صاروا يسجدون للصنم حسدا وحبا للدنيا فقط ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أبي سفيان وأصحابه ﴿هَؤُلاَءِ﴾ أنتم ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً﴾ أنتم دينكم أهدى من دين المسلمين ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَّلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ مانعا من عذابه ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ بل ليس لهم شيء من الملك، اليهود لا يجدون الملك لحسدهم ﴿فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ شيئا تافها قدر النقرة في ظهر النواة لفرط بخلهم،

1- راجع تفسير ابن كثير ج514/1.

جمعوا بين الحسد والبخل ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ حسدوا المصطفى صلى الله عليه وسلم والمسلمين من فضل الله الذي هو النبوءة وكثرة النساء ويقولون: لو كان نبيا لاشتغل عن النساء ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ جده كموسى وداود وسليمان ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوءة ﴿وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ الله تبارك وتعالى منّ على آل إبراهيم كموسى وداود وسليمان، موسى كان ملك مصر والشام بعد هلاك فرعون وكان نبيا، وداود كان ملكا نبيا وسليمان كان ملكا ملك الدنيا كلا ونبيا، الذي أعطى هذا ما كان له أن يعطي محمدا صلى الله عليه وسلم النبوءة وما عنده من النساء؟ «وآتيناهم ملكا عظيما» فكان لداود تسع وتسعون امرأة ولسليمان ألف ما بين حرة وسرية، في شريعة موسى التزويج بلا عدد، فلهذا تزوج داود تسعا وتسعين امرأة أكملها مائة، وسليمان قال: والله لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل واحدة منهن تحمل وتأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ونسي أن يقول إن شاء الله، فطاف بهن كلا ولم تحمل إلا واحدة جاءت بشق إنسان[1]، وسليمان كان عنده ألف امرأة ثلاثمائة حرائر وسبعمائة جوار، والرسول ما كان عنده إلا إحدى عشرة، يحسدونه على هذا والأنبياء قبله عندهم هذا العدد ولم يمنع من نبوتهم؟ هذا حسد اليهود، جمعوا بين البخل والحسد، والبخل أن تمنع مالك عن غيرك، والحسد أن تمنعه من فضل الله تبارك وتعالى، البخيل يمنع فضله عن غيره وأما الحاسد فهو يحب أن يمنع

1- أخرجه الشيخان باتفاق من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور/ باب كيف كانت يمين النبي (6639) وفي صحيح مسلم: كتاب الأيمان/ باب الاستثناء (3126). وقد اختلفت روايات هذا الحديث في عدد من يطوف بهن من النساء وجاء ذكر المائة عند أحمد في مسنده عن أبي هريرة: مسند المكثرين/ مسند أبي هريرة (7390).

فضل الله تبارك وتعالى عن عبده، فمنعهم الله من الملك، ليس لهم نصيب من الملك لحسدهم، فلهذا قالوا: الحسود لا يسود. الحسود لا يسود، لِم؟ لأنه جبل الإنسان على كراهية التبعية، الإنسان لا يطيع إنسانا إلا لموجب يرجح أن يكون تابعا له، إما رزق يأتيه من عنده أو فضل، فإذا كان الله تبارك وتعالى الذي هو بارئ البرية أجرى فضله على خلقه واستحق منهم العبادة فالحاسد الذي يريد قطع هذا الفضل يريد عزل الله تبارك وتعالى لأن البشر إذا تيقنوا أن ليس لهم شيء يأتيهم من قبل الله لا يرون أنّهم يطيعونه، والله تبارك وتعالى أعطى ملكا ظاهرا لأناس وملكا باطنا لأناس وجمع الملكين لأناس، الملك الظاهر من كان ملكا على الدنيا، والملك الباطن ملك الأولياء والعلماء باطن، ومن جمع بين الأمرين مِلكا ظاهرا ووليا باطنا أو نبيا فهو جمع بين الملكين، من الأنبياء من هو نبي ملِك، ومن الأولياء من هو ولي ملِك، ومنهم من هو ولي فقط "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم" ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرض عنه فلم يؤمن ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا﴾ يحترقون فيها ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ احترقت ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن تعاد إلى حالها الأول غير محترقة ﴿لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ ليقاسوا شدته ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه. يزاد في خلق الكافر حتى يكون ما بين منكبيه مسافة سبعين سنة، ويكون ضرسه أعظم من جبل أحد[1] لتتمكن النار من حرقه. إذا احترقت حتى صارت فحما أعادها الله كما

1- عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها/ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (5090).

كانت، "غيرها" ليس على معناها "غيرها" بأن تعاد إلى حالها لا تبدل جلودا غيرها لأن الله لا يعذب جلدا لم يعصه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وكل قذر ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ دائما، ظل لا تنسخه شمس هو ظل الجنة. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله أعطى لعبده في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط، اقرأوا إن شئتم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء"[1] وظل الشجرة الواحدة يجري الراكب فيه أكثر من مائة سنة لا يبلغ غايته[2]، اقرأوا إن شئتم "وظل ممدود وماء مسكوب" ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ نزلت هذه الآية في فتح مكة لما أخذ علي رضي الله عنه مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة الحجبي سادنها قسرا؛ لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح منعه وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم برده إليه، وقال: هاك خالدة تالدة، فعجب من ذلك وقرأ عليه الآية فأسلم، ثم أعطاه عند موته لأخيه شيبة فبقي في ولده إلى يومنا

1- أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين"). متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (3244). صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ (5050).

2- أخرج الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (6552)، صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب إن في الجنة شجرة الخ... (5055).

هذا[1]، والآية وإن وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ الله يأمر عباده بتأدية الأمانات إلى أهلها ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ أمر بالعدالة ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ تأدية الأمانة والحكم بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لما يقال ﴿بَصِيرًا﴾ بما يُفعل. الأمانة أقسام: قسم بين العبد وبين ربه، وقسم بين العبد وبين نفسه وقسم بين العبد وبين الخلق. الأمانة بينك وبين الله تبارك وتعالى أن تعبده ولا تشرك به شيئا وتمتثل أمره وتجتنب نَهيه، والأمانة بينك وبين نفسك أن لا تستعملها فيما يضرها في آخرتك إذا كانت النفس تتعلق بشيء فيه مضرتُها فالعدل أن تستعملها في ما يكون فيه سلامتها في الدنيا والآخرة؛ والأمانة بينك وبين الخلق: أقرب الخلق إليك النساء والأولاد، لا بد أن تؤدي الأمانة فيهم، الولد لابد أن تضع له اسما صالحا وتعلمه كتاب الله إذا بلغ سن التمييز، وتعلمه الدين ثم تأمره بعبادة الله تبارك وتعالى، وإذا بلغ تنكحه، وكل من ائتمنك على شيء أن لا تخونه في أمانته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ الولاة منكم، قيل الأمراء وقيل العلماء[2] ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم ﴿فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتابه ﴿وَالرَّسُولِ﴾ مدة حياته وبعده إلى سنته ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ﴾ الرد إليهما ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من التنازع والقول بالرأي ﴿وَأَحْسَنُ

1- ابن كثير ج1/516 - 517.

2- قال القرطبي: أمر بطاعته جل وعز أولا وبامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثا على قول الجمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم. ثم نقل أيضا قول جابر بن عبد الله ومجاهد: أولوا الأمر أهل القرآن والعلم، وهو اختيار مالك رحمه الله وقال الضحاك: يعني الفقهاء والعلماء. القرطبي ج5/ 259.

تَأْوِيلاً﴾ مآلا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ سبب نزول هذه الآية اختصم يهودي ومنافق فدعا المنافق إلى كعب بن الأشرف ليحكم بينهما، ودعا اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأتياه، فقضى لليهودي فلم يرض المنافق، وأتيا عمر فذكر له اليهودي ذلك، فقال للمنافق: أكذلك؟ فقال: نعم، فقتله عمر[1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَّتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الكثير الطغيان وهو كعب بن الأشرف ﴿وَقَدْ أُمِرُواْ أَنْ يَّكْفُرُواْ بِهِ﴾ ولا يوالوه ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُّضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ عن الحق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القرآن من الحكم ﴿وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ ليحكم بينكم ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي أيقدرون على الإعراض والفرار منها؟ لا، ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ معطوف على يصدون ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ بالمحاكمة إلى غيرك ﴿إِلاَّ إِحْسَانًا﴾ صلحا ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ تأليفا بين الخصمين بالتقريب

1- روى أبو صالح عن ابن عباس قال كان بين رجل من المنافقين يقال له بشر وبين يهودي خصومة فقال اليهودي انطلق بنا إلى محمد وقال المنافق بل إلى كعب بن الأشرف وهو الذي سماه الله الطاغوت أي ذو الطغيان فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى ذلك المنافق أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودي فلما خرجا قال المنافق لا أرضى انطلق بنا إلى أبي بكر فحكم لليهودي فلم يرض - ذكره الزجاج - قال انطلق بنا إلى عمر فأقبلا على عمر فقال اليهودي إنا صرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إلى أبي بكر فلم يرض، فقال عمر للمنافق أكذاك هو؟ قال نعم. قال رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل وأخذ السيف ثم ضرب به المنافق حتى برد وقال هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله وهرب اليهودي ونزلت الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الفاروق ونزل جبريل وقال إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق. القرطبي ج5/ 263 ـ264، ومثله في ابن كثير ج1/ 522.

في الحكم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق وكذبهم في عذرهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بالصفح ﴿وَعِظْهُمْ﴾ خوفهم الله ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ في شأن أنفسهم ﴿قَوْلاً بَلِيغًا﴾ مؤثرا فيهم، أي ازجرهم ليرجعوا عن كفرهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ﴾ فيما يأمر به ويحكم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتحاكمهم إلى الطاغوت ﴿جَاؤُوكَ﴾ تائبين ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فيه التفات ﴿لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا﴾ عليهم ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ قسم ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ لا يكون المسلم مسلما إلا إذا حكّم الشرع فيما جرى بينه وبين الناس ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ هذا علامة الإسلام (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[1] الإنسان يمتثل أوامر القرآن، ويمتثل سنة النبي صلى الله عليه وسلم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: يأتي على الناس زمان لا يصلح المُلْك إلا بالقتل والتجبر، ولا توجد المحبة إلا باتباع هوى الناس، ولا يوجد المال عند الأغنياء إلا إذا تذلل العبد إليهم، الملوك متكبرون، والأغنياء يبخلون ويتجبرون، والناس لا يحبون إلا من اتبع هواهم، فمن أدرك ذلك الزمان وصبر على الفقر وهو يقدر على المال، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة، لأنه لو ساعدهم في هواهم فقط لأحبوه، أسكنه الله حظيرة القدس يوم القيامة[2]؛ من أحيى سنتي يكن له أجر مائة شهيد، قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: من كان على الدين في ذلك الزمان كيف حاله؟ قال: حاله

1- (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) الجامع الكبير ج918/1. وقد أورده النووي في الأربعين النووية (الحديث41).
2- روح البيان ج2/ 232.

كالقابض على الجمر[1]، إذا وضع الجمر انطفأ وإذا أمسكه أحرقه، وهذا كلا تأويل هذه الآية «لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما». الكتاب الذي أنزل الله إلينا هو هذا القرآن قال "اتبعوه" "اتبعوا ما أنزل إليكم" ليس اتباعه إلا امتثال أمره فقط واجتناب نَهيه، والرسول صلى الله عليه وسلم "اتبعوه لعلكم تَهتدون" الرسول هو المبين للقرآن وهذا كلامه أنترك هذا القرآن الذي نزل عليه ونأخذ بمذهب غيره؟ ما فهمنا هذا الإتباع ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنُ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوُاخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُمْ﴾ كما كتبنا على بني إسرائيل ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ المكتوب عليهم ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ لو أوجب الله على هذه الأمة أن يقتلوا أنفسهم لامتنعوا، قال عمر: مرني يا رسول الله أقتل نفسي الآن، قال الله «إلا قليل» كمثل عمر[2] ﴿مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من طاعة الرسول ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ تحقيقا لإيمانهم ﴿وَإِذًا﴾ لو ثبتوا ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ قال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم: كيف نراك في الجنة وأنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك[3] فنزل ﴿وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما أمر به ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ

1- عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمان الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر) سنن الترمذي: كتاب الفتن / باب ما جاء في سب الرياح (2186).

2- نقله القرطبي عن النقاش ج5/ 270.

3- جاء في تفسير ابن كثير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا فلان ما لي أراك محزونا؟ فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغدا ترفع مع النبيئين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل بهذه الآية "ومن يطع الله والرسول

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب، قال أنس: ما وجدت فرحا في الإسلام كمثل فرحي بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المرء مع من أحب)[1] ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ رفقاء في الجنة ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ من عدوكم ﴿فَانفِرُواْ﴾ انهضوا ﴿ثُبَاتٍ﴾ متفرقين ﴿أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليتأخرن عن القتال ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضرا ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ نادما ﴿كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ معرفة وصداقة يقول ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ آخذ حظا وافرا من الغنيمة، قال تعالى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ يستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يظفر بعدوه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين الآية" فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فبشره. ابن كثير ج523/1.

1 – أخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت للساعة؟ قال: حب الله ورسوله، قال: فإنك مع من أحببت. قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي صلى الله عليه وسلم فإنك مع من أحببت قال: أنس فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم. صحيح مسلم واللفظ له: كتاب البر والصلة والآداب/ باب المرء مع من أحب (4777). وفي صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب ما جاء في قول الرجل ويلك (6167).

(المرء مع من أحب) عن عبد الله بن مسعود متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب علامة حب الله عز وجل (6168) وفي صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب المرء مع من أحب (4779).

جزيلا ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ توبيخ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ﴾ في تخليص ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين حبسهم الكفار عن الهجرة وآذوهم، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي منهم[1] ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين ﴿رَبَّنَا﴾ يا ربنا ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ مكة ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى أمورنا ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ يمنعنا منهم، وقد استجاب الله دعاءهم فيسر لبعضهم الخروج وبقي بعضهم إلى أن فتحت مكة وولى صلى الله عليه وسلم عَتاب بن أسيد فأنصف مظلومهم من ظالمهم ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الشيطان ﴿فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أنصار دينه تغلبوهم لقوتكم بالله ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ بالمؤمنين ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ واهيا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن قتال الكفار لما طلبوه بمكة ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ الكفار ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ من خشيتهم له ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا﴾ هلا أخرتنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ عقاب الله ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قدر قشرة النواة ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ مرتفعة ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ اليهود ﴿حَسَنَةٌ﴾ خصب وسعة ﴿يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء ﴿يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ يا محمد بشؤمك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كُلٌّ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ

1- أخرج البخاري في صحيحه وانفرد به: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان قال قال عبيد الله بن أبي يزيد سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء. صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (1357).

فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ لا يقاربون أن يفهموا ﴿حَدِيثًا مَّا أَصَابَكَ﴾ أيها الإنسان ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ خير ﴿فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ بلية ﴿فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك ﴿مَنْ يُّطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ حافظا لأعمالهم بل نذيرا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ المنافقون إذا جاءوك أمْرنا ﴿طَاعَةٌ﴾ لك ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي أضمرت ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لك في حضورك من الطاعات أي عصيانك ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾ يأمر بكتب ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ في صحائفهم ليجازوا عليه ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بالصفح ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق به فإنه كافيك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ مفوضا إليه ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ﴾ يتأملون ﴿الْقُرْءَانَ﴾ وما فيه من المعاني ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ تناقضا في معانيه وتباينا في نظمه ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ عن السرايا ﴿مِنَ الْأَمْنِ﴾ بالنصر ﴿أَوِ الْخَوْفِ﴾ بالهزيمة ﴿أَذَاعُواْ بِهِ﴾ أفشوه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي الخبر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ ذوي الرأي كأكابر الصحابة ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ يتبعونه ﴿مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالقرآن ﴿لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فيما يأمركم به من الفواحش ﴿إِلاَّ قَلِيلاً فَقَاتِلْ﴾ يا محمد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ فلا تهتم بتخلفهم ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حثهم على القتال ورغبهم فيه ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَّكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي حرب الذين كفروا ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ منهم ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ تعذيبا منهم ﴿مَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ موافقة للشرع ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ﴾ من الأجر ﴿مِنْهَا﴾ بسببها ﴿وَمَنْ يَّشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ مخالفة له ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ﴾ نصيب من الوزر ﴿مِنْهَا﴾ بسببها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدرا ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم

بِتَحِيَّةٍ﴾ كأن قيل لكم سلام عليكم ﴿فَحَيُّواْ﴾ المحيي ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ بأن تقولوا له عليك السلام ورحمة الله وبركاته ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بأن تقولوا له كما قال، وعليك ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ محاسبا فيجازي عليه ومنه رد السلام، وخصت السنة الكافر والمبتدع والفاسق والمسلّم على قاضي الحاجة ومن في الحمام فلا يجب الرد عليهم بل يكره في غير الأخير ويقال للكافر وعليك. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس الثاني عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري — لنـا بهذا المحضـر
ولتعطفـي بنظـرة — تأتي لنـا بالظفـر

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ الله: علم على الجلالة، لا إله إلا هو، والله ليجمعنكم من قبوركم إلى يوم القيامة لا ريب فيه: لاشك فيه. أقسم تبارك وتعالى أنه لا بد أن يجمعنا يوم القيامة ثم يفرقنا فريق في الجنة وفريق في السعير "ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون" وفريق في مقعد صدق عند مليك مقتدر، الله تبارك وتعالى أكثر من ذِكره ليدعو العبدَ إلى كثرة ذكر الله تبارك وتعالى، فلا بد من ذكر الله باللسان أولا، ثم الذكر بالقلب، ثم الذكر بالروح، فعند ذلك يستغرق وجوده وجود ما سواه فيفنى العبد ويفنى الوجود ويحصل التوحيد الحقيقي والحياة الأبدية «ليجمعنكم إلى يوم القيامة» القيامة على ثلاث مراتب: صغرى ووسطى وكبرى، فالصغرى موت الإنسان، من مات فقد قامت قيامته، والوسطى موت جميع الخلائق بالنفخة الأولى، والكبرى بعث الخلائق وحشرها إلى يوم القيامة بالنفخة الثانية. أقسم أنه لا بد أن يجمع الخلائق وهو إذا جمعهم لا بد أن يفرقهم فريق في الجنة وفريق في السعير وفريق في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ قولا، هذا خبر جاءنا من الله تبارك وتعالى ولا أحد

أصدق منه حديثا. كل محدِّث يتطرق الشك إلى حديثه هل حق أم كذب إلا هو تبارك وتعالى فحديثه لا يتطرق إليه شك، بل هو حق، فلذلك ذكر أنه أصدق القائلين، ولذا ورد في الحديث (يقول الله تبارك وتعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني، وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني بعد الموت، وأنا ابتدعته والإعادة أهون من الابتداع، وأما شتمه لي فقوله اتخذ الله ولدا، وأنا الواحد الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤا أحد)[1] ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ لما رجع الناس من أحد وهموا باللحوق بالكفار، اختلف الناس فيهم، فقال فريق نقتلهم وقال فريق: لا، فمنهم من قال: كفار، ومنهم من قال: ليسوا بكفار «فما لكم» ما شأنكم صرتم «في المنافقين فئتين» فرقتين ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ ردهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الكفر والمعاصي. إن الله تبارك وتعالى قدر عليهم أن يرجعوا من الجهاد ويلحقوا بالكافرين بسبب كسبهم الكفر والعصيان ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ﴾ـه ﴿اللَّهُ﴾ أي تعدوهم من جملة المهتدين ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الهدى ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ هم كفروا وتمنوا كفركم ﴿فَتَكُونُونَ﴾ أنتم وهم ﴿سَوَاءً﴾ في الكفر ﴿فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وإن أظهروا الإيمان ﴿حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هجرة صحيحة تحقق إيمانهم، كانت الهجرة شرطا في الإيمان في بداية الإسلام، فمن ادعى الإيمان ولم يهاجر بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كاذب، حتى نسخ

1 – عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤا أحد) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب يقال لا ينون أحد أي واحد (4974).

بفتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح)[1]، المنافقون اختلف المسلمون فيهم فبعضهم قالوا إنّهم كفار وبعضهم يقولون إنّهم مسلمون، والله أركسهم بما كسبوا، إن الله تبارك وتعالى هو الذي ردهم إلى الكفر، فكان العمل حقيقة من الله تبارك وتعالى إذ هو الخالق للعبد ولأفعاله ومجازا من العبد، من هنا افترقت الفرقتان: الجبرية والقدرية، الجبرية يقولون ‹لا فعل للعبد أصلا، فكل الأفعال أفعال الله تبارك وتعالى، فإذاً ليس على العبد ذنب ولا شيء لأنه لا عمل له› وضلوا لأنّهم أسقطوا التكاليف. والقدرية قالوا ‹إن العبد خالق أفعاله، العبد قادر على أن يخلق أفعاله فلا مدخل لله تبارك وتعالى في أفعال العبد› فكفروا بنسبة الفعل إلى غير الله تبارك وتعالى، وأهل السنة أخذوا بجبر صغير، يقولون إن الله تبارك وتعالى أقدرَنا على الكسب فلنا الكسب والله يخلق العمل عند الكسب. والعارفون جمعوا بين عقيدتي الفرقتين الضالتين فاهتدوا إلى سواء الصراط. فهم حقيقة لا يرون الفعل لغير الله تبارك وتعالى، وهذا ليس بجبرية عندهم بل بالمشاهدة والعيان لا فاعل في الوجود إلا الله تبارك وتعالى، ومع ذلك ظاهرا يتكلفون الأعمال الصالحة ويجتنبون الأعمال السيئة كأنّهم خالقون أعمالهم فأخرجوا نتيجة بين الخصلتين من بين فرث ودم أخرجوا لبنا خالصا وهو الصراط المستقيم. الله تبارك وتعالى نسب الفعل تارة إلى نفسه وتارة إلى غيره "قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم"، "الله يتوفى الأنفس حين موتِها" الإماتة حقيقة من الله تبارك

1- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) رواه الشيخان واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب فضل الجهاد والسير (2783)، صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد (3468).

وتعالى، وحيث أمر الملَك بتنفيذ هذا الأمر فباشره الملك، فكان الملَك هو المتوفّي، والمتوفّي حقيقة هو الله تبارك وتعالى. والعبد أيضا لما خلقه الله وتجلى فيه جعل فيه قوة وعقلا وعلما وتمييزا يقدر على أن يكتسب عملا صالحا ويجتنب به عملا سيئا، والله تبارك وتعالى هو المتولي للخلق. هذا هو الصراط المستقيم، من قال إن الفعل لله تبارك وتعالى فقد صدق، ومن أسند الفعل إلى فاعله مجازا فإن القرآن نطق بمثل هذا «أتريدون أن تَهدوا من أضل الله» الله تبارك وتعالى هو الذي أضل من ضل. الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله بعث الشيطان مزينا وليس إليه من الإضلال شيء، وبعثني داعيا إلى الهدى وليس إلي من الهداية شيء)[1] «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا» من تمنى أن يكون أحد كافرا فكأنه كافر لأنه أحب الكفر ولو لأي شخص «فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ» توالونهم «حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأقاموا على ما هم عليه ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ تنتصرون به على عدوكم ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ يلجأون ﴿إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد بالأمان لهم كما عاهد النبي صلى الله عليه وسلم هلال بن عويمر الأسلمي[2] ﴿أَوْ﴾ الذين ﴿جَاءُوكُمْ﴾ وقد ﴿حَصِرَتْ﴾ ضاقت ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عن ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مع قومهم ﴿أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ معكم أي مُمسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرضوا إليهم بأخذ ولا قتل، وهذا وما بعده

1 – (بُعثت داعيا ومبلغا وليس إلي من الهدى شيء، وخلق إبليس مزينا وليس إليه من الضلالة شيء) الجامع الصغير 3153.

2– ذكره القرطبي نقلا عن عكرمة، والسيوطي في الجلالين كلاهما عند تفسير الآية "إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق".

منسوخ بآية السيف[1] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تسليطهم عليكم ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن يقوي قلوبهم ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ ولكنه لم يشأ، فألقى في قلوبهم الرعب ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ الصلح انقادوا ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ طريقا بالأخذ والقتل ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَّأْمَنُوكُمْ﴾ بإظهار الإيمان عندكم ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ بالكفر إذا رجعوا إليهم وهم أسد وغطفان ﴿كُلَّمَا رُدُّواْ إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ كلما دعوا إلى الشرك ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ وقعوا أشد وقوع ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بترك قتالكم ﴿وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ولم يلقوا إليكم السلم ﴿وَيَكُفُّواْ﴾ ولم يكفوا ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ عنكم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم ﴿وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ برهانا بينا ظاهرا على قتلهم وسبيهم لغدرهم. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَّقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ سبب نزول هذه الآية أن عياش بن ربيعة أخا أبي جهل من أمه أسلم فلما أسلم قالت أمه إنّها لا تستظل بظل ولا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن الإسلام، فسافر أبو جهل مع الحارث صاحب له وأتيا إلى عياش وقالا له: نحن وافقناك على إسلامك ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بصلة الرحم، فحيث كان الرسول يأمر بصلة الرحم فتعال معنا تصل رحم أمك ونتركك على دينك، فقبل ذلك، فلما ذهبا به أخذاه وكتفاه وضربه أبو جهل مائة سوط وضربه صاحبه مائة سوط كذلك، فقال للحارث: هذا أخي ابن أمي ضربني وأنت لماذا تضربني مائة سوط؟، والله لا ألقاك خاليا إلا وقتلتك، بعد ذلك ذهب الحارث إلى

1 – آية السيف هي قوله تعالى "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" نص على ذلك الصاوي في حاشيته ج236/1 وابن كثير ج337/2.

المدينة ودخل الإسلام ورجع عياش ولقيه في الطريق خاليا و لم يعلم بإسلامه فعلاه بالسيف فقتله[1]. فجاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له قتلته قبل أن أعلم بإسلامه وبعد ذلك تبين لي أنه أسلم قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَّقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ ما ينبغي أن يصدر منه قتل له ﴿إِلاَّ خَطَأً﴾ مخطئا في قتله ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ كما وقع لعياش ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة ﴿مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ مؤداة ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ والدية ما يدفع لورثة المقتول ﴿إِلاَّ أَنْ يَّصَّدَّقُواْ﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بها بأن يعفوا عنها، وبينت السنة بأن الدية مائة من الإبل: عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون بنو لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة[2]، وأنّها على عاقلة القاتل في ثلاث سنين ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهْوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على قاتله كفارة ولا دية ﴿وَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد كأهل الذمة ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وهي ثلث دية المؤمن إن كان يهوديا أو نصرانيا وثلثا عشرها إن كان مجوسيا ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على قاتله ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة بأن فقدها وما يحصلها به ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عليه كفارة ولم يذكر الله تبارك وتعالى الانتقال إلى الطعام كالظهار وبه أخذ الشافعي في أصح قوليه[3] ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره. فكان من قتل خطأ فعليه تحرير رقبة فإن لم يجد فصيام

1- ذكره ابن كثير في تفسيره لهذه الآية.

2- عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قتيل الخطإ شبه العمد بالسوط أو العصا مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها) سنن أبي داود: كتاب الديات/ باب في دية الخطإ شبه العمد (3941)، وفي سنن النسائي: كتاب القسامة/ باب كم دية شبه العمد (4709).

3- قاله جلال الدين السيوطي في تفسير الجلالين ج2/ 86 دار الفكر.

شهرين متتابعين، وكذلك الكفارة الحقيقية وهي أن يحرر العبد نفسه مما سوى الله تبارك وتعالى، وإلا فيلازم ترك الطعام والشراب ويزهد في الدنيا وشهواتِها حتى يجد طهارة من الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ يَّقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ هذه الآية نزلت في مقيس بن صبابة، مقيس أسلم وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أخوه، فقتل أخوه في بني النجار فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحب له يقال له عياض فذهب إلى بني النجار وقال لهم: يقول لكم الرسول صلى الله عليه وسلم إن علمتم قاتل أخي هذا الرجل فمكنوه منه وإن لم تعلموا قاتله فاجمعوا له دية أخيه. فقالوا سمعا وطاعة ما علمنا قاتله ولكن هذه الدية فجمعوا مائة من الإبل وسلموها لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمها لمقيس فركب ناقة وساق الإبل فلما قرب من المدينة وسوس له الشيطان قال له تأخذ هذا المال سبة عليك وعارا، قُتل أخوك هلا قتلت صاحبك هذا بدل أخيك وتكون الإبل المؤداة لك ربحا فضرب بسيفه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي معه وقتله وساق الإبل ورجع إلى مكة وارتد وأنشد شعرا يقول إنه قُتل أخوه وأنه قتل هذا الفهري الذي أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم معه وربح مائة من الإبل ورجع إلى عبادة الأصنام، هذا الرجل هو الذي استثناه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بأنه إذا وجد متعلقا بأستار الكعبة فليقتل هنالك، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة[1] «وَمَنْ يَّقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»

1- ذكر القرطبي بيتين لمقيس في هذا الصدد هما:

قتلت به فهـــــرا وحملت عقله		سراة بني النجار أرباب فارع

حللت به وتري وأدركت ثورتي		وكنت إلى الأوثان أول راجع

بأن يقصد قتله ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أبعده من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ في النار. من استحل قتل مسلم وقتله فهذا جزاؤه، حتى نفسه، إذا قتل نفسه فهو داخل في هذا الوعيد، قال الرسول صلى الله عليه وسلم (من قتل مسلما أو أعان قاتلا ولو بنصف كلمةٍ – أُقْـ – وجبت عليه النار)[1] وقال ما معناه: لو اجتمع أهل السماوات السبع وأهل الأرضين السبع على قتل مسلم واحد لأخلدهم النار جميعا[2] وهذا يعارض قوله في التوبة "إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا" فمذهب أهل السنة أن التوبة مقبولة قطعا، وأن التوبة تجب ما قبلها وهو الصحيح، ما معنى فجزاؤه جهنم؟ فجزاؤه إن جوزي، كل من قتل مسلما ولو كان المرء قاتل نفسه فجزاؤه عند الله إن جوزي هو جهنم، ولكن إن شاء لم يجازه "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" حتى القتل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث بسرية فيهم أسامة بن زيد إلى بني سليم، وفيهم رجل يقال له مرداس بن نهيك وقد دخل في الإسلام و لم يدخل في الإسلام من

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا أؤمنه في حل ولا حرم وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة. القرطبي ج333/5.

1– عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله) سنن ابن ماجه: كتاب الديات/ باب التغليظ في قتل المسلم ظلما (2610). وفي الجامع الصغير 8471.

2 – حدثنا أبو الحكم البجلي قال سمعت أبا سعيد الخدري وأبا هريرة يذكران عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار) سنن الترمذي: كتاب الديات/ باب الحكم في الدماء (1318).

قومه إلا هو. فلما جاء جيش الرسول صلى الله عليه وسلم فر الكفار جميعا وبقي هو معتمدا على إسلامه، فلما دنوا منه صار يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، ليعرفوا أنه مسلم، فعمد إليه أسامة بن زيد بسيفه فقتله وساق ما عنده من الغنم، فنزلت هذه الآية[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي كلمة الشهادة أو كان يقول السلام عليكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما قلت هذا تقية لنفسك فتقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تطلبون بذلك ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متاعها من الغنيمة ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل مثله ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ وأنتم ما كنتم إلا كفارا، ولما قلتم لا إله إلا الله محمد رسول الله عصمتم دماءكم وأموالكم بمجرد قولكم كلمة الشهادة ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أن تقتلوا مؤمنا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم به. فلما جاء أسامة قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: تقتل رجلا يقول لا إله إلا الله؟ قال: إنما قالها خوفا من سيوفنا فقط. قال: هلا شققت قلبه، هلا شققت قلبه فتعلم هل هو حق أم لا؟ قال: استغفر لي يا رسول الله صلى الله عليك وسلم. قال: ما نفعل بلا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ما نفعل بلا إله إلا الله محمد رسول الله؟ تقتله وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ قال أسامة: فما زال يكررها حتى وددت أني ما دخلت الإسلام قبل تلك

1- ذكر القرطبي هذا القول فقال من بين عدة أقوال: وقيل إن القاتل أسامة بن زيد والمقتول مرداس بن نهيك الغطفاني ثم الفزاري من بني مرة من أهل فدك، وقاله ابن القاسم عن مالك. تفسير القرطبي ج5/337.

الساعة[1] فقلت لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الصحابة مجتهدون كلهم، من اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر واحد[2]. وأسامة هذا اجتهاد منه ولكن أخطأ في اجتهاده، لولا أنه مجتهد أخطأ وله أجر لقتله الرسول صلى الله عليه وسلم قصاصا، ولكن عفا عنه لأنه مجتهد ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن الجهاد، ﴿غَيْرَ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ المجاهدون والقاعدون لا يستوون في الأجر، وكان عبد الله بن أم مكتوم رجلا أعمى قال للرسول صلى الله عليه وسلم: أنا رجل أعمى فلولا ذلك لكنت مع المجاهدين، فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل، فقال جبريل: أسأل العليم الخبير، فرجع جبريل وأتى بهذه الكلمة «غَيْرَ أُوْلِي الضَّرَرِ»[3] الذين منعهم الضرر من زمانة أو عمى أو نحو

---

1 – عن الأعمش عن أبي ظبيان حدثنا أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى الحرقات فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلا فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فضربناه حتى قتلناه، فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فقلت يا رسول الله إنما قالها مخافة السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟ فما زال يقولها حتى وددت أني لم أسلم إلا يومئذ. سنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب على ما يقاتل المشركون (2272)، وفي مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث أسامة بن زيد (20803).

2– عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر) متفق عليه. البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (7352)، وفي صحيح مسلم: كتاب الأقضية/ باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (3240).

3– عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: رأيت مروان بن الحكم جالسا في المسجد فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه "لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله" قال فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي فقال يا رسول الله

ذلك. هذا ينبهك على عظمة العلم. كلمتان فقط سافر جبريل بسببهما مسافة ألفي سنة، بيننا والسماء الدنيا مسافة خمسمائة عام، والسماء غلظها مسافة خمسمائة عام[1]، وكان القرآن في السماء الدنيا منذ أنزل ليلة القدر، فذهب مسافة ألف ورجع مسافة ألف لكلمتين فقط هما "غير أولي الضرر" فلهذا لما طلب الرشيد من الإمام مالك أن يعلمه يحدثه الحديث وهو ملك جالس على سريره قال له مالك: العلم يؤتى ولا يأتي، لابد أن تأتي بنفسك. فلما جاءه ونُصب له الكرسي قال له مالك لا بد أن تجلس على الأرض متواضعا قبل أن أعلمك ففعل فعلّمه[2]. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لضرر ﴿دَرَجَةً﴾ فضيلة لاستوائهما في النية وزيادة المجاهدين بالمباشرة ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ الجنة. لما قال «لا يستوي القاعدون والمجاهدون» ظن القاعدون أنهم ليس لهم أجر أصلا، فلهذا قال «وكلا» من الفريقين «وعد الله الحسنى» الجنة، ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ

لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله عز وجل "غير أولي الضرر". صحيح البخاري واللفظ له: كتاب الجهاد والسير/ باب لا يستوي القاعدون (2832)، صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين (3516).

1– ورد من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وبُصْرُ كل سماء مسيرة خمسمائة عام والبصْر: الجانب والحرف يريد غلظ السماء. غريب الحديث لابن قتيبة ج2/ 29 ط1/ دار الكتب العلمية.

وفي سنن الترمذي: عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله "وفرش مرفوعة" قال (ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمس مائة سنة) قال أبو عيسى: وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث إن معناه الفرش في الدرجات وبين الدرجات كما بين السماء والأرض. كتاب صفة الجنة/ باب ما جاء في صفة ثياب أهل الجنة (2463).

2– راجع نور الأبصار ص210، الناشر عبد الحميد حمد حنفي ــــ مصر

﴿الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لغير ضرر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ منازل بعضها فوق بعض من الكرامة. وسيذكر درجات المجاهد في سورة التوبة إن شاء الله ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمًا﴾ بهم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: قال يحيى لقومه: إن الله تبارك وتعالى أمره بالإيمان بالله وحده ولا يشرك به شيئا، وأمره بإقامة الصلاة، وأمره بالصيام، وأمره بالصدقة، وأمره بذكر الله تبارك وتعالى قال له: مثال المشرك بالله كرجل اشترى عبدا ودفع له مالا يتجر به ويعيش ويعطي الربح لسيده فصار العبد يعمل هذا العمل في المال ويعطي لعدو سيده ويترك سيده، هذا مثال الشرك، وإذا اشتغلت بالصلاة فلا تلتفت إلى غيرها، مثال من يلتفت في الصلاة كرجل أكرمه ملك جليل وأحضره بين يديه يناجيه فصار يلتفت إلى غيره. وأمره بالصيام وقال له: مثال الصيام رجل له عدو فأخذ درعا وأخذ سيفا وسلاحا يتحصن به من عدوه، فالصوم جُنة، ومثال الصدقة كرجل أسره أعداؤه فاشترى نفسه منهم بماله، ومثال ذاكر الله تبارك وتعالى كرجل فرّ من أعدائه ودخل في حصن منيع تحصن به من أعدائه، هذا مثال ذاكر الله تبارك وتعالى. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنا آمركم بخمس عليكم بالسمع والطاعة والهجرة والجهاد ولزوم الجماعة[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ بالمقام مع الكفار وترك الهجرة، كانت الهجرة شرطا في الإسلام في بداية الإسلام ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُواْ﴾ لهم الملائكة توبيخا ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ من أرض الكفر إلى

1- أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده كلاهما عن الحارث الأشعري. سنن الترمذي: كتاب الأمثال/ باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (2790)، مسند أحمد: من مسند الشاميين/ حديث الحارث الأشعري (17132).

بلد آخر كما فعل غيركم، قال تعالى ﴿فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ من ترك الهجرة واعده بجهنم ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ قال ابن عباس: كنت أنا وأمي منهم[1] ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لا قوة لهم على الهجرة ولا النفقة ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى أرض الهجرة ﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ما قطع لهم بالعفو، بل عسى يرجون أن يعفو الله عنهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا﴾ مهاجرا ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ في الرزق، الله تبارك وتعالى وعد كل من هاجر أن يعطيه محلا واسعا ويرزقه حيث كان. إن قلنا إن الهجرة انقطعت بفتح مكة فذلك لكونها شرطا في إسلام العبد وإيمانه والهجرة لا تنقطع أبدا[2]، دخل في الهجرة من محل الكفر إلى دار الإسلام: الهجرة من البدعة إلى السُّنة، والهجرة من الجهل إلى العلم والهجرة من محل ضعف فيه الإسلام إلى محل قوي فيه الإسلام، كل من انتقل من أرض إلى أرض لمصلحة دينه فهو مهاجر إلى يوم القيامة. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (هاجروا تورثوا أبناءكم مجدا)[3].

1– قال عبيد الله بن أبي يزيد سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول كنت أنا وأمي من المستضعفين أنا من الولدان وأمي من النساء. صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (1357). تقدم في الدرس 11.

2– عن ابن السعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل) فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص إن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الهجرة خصلتان إحداهما أن تهجر السيئات والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل) مسند أحمد: من مسند العشرة المبشرين بالجنة/ حديث عبد الرحمن بن عوف الزهري (1581).

3 – "هاجروا تورثوا أبناءكم مجدا" للخطيب في التاريخ عن عائشة. الجامع الصغير 9577.

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه الآية نزلت في جندب بن ضمرة الليثي[1] كان شيخا كبارا وعزم على الهجرة فكلّف عبيده أن يحملوه فحملوه من مكة إلى المدينة فمات في الطريق، فكان الكفار يشمتون به يقولون هو فرّ منا ولم يصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خسر مرتين، والصحابة يقولون ليته وصل حتى يجد ثواب الهجرة فنزلت ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ في الطريق ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ ثبت ﴿أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ففرح المسلمون بذلك، فلذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا مات ابن آدم انقطع عمله..) ليس على إطلاقه، (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وولد صالح يدعو له، وعلم بثه في قلوب الرجال)[2] أي من مات وترك أولادا: ولد المال هو الصدقة الجارية وولد الصلب هو الولد الصالح يدعو لآبائه، وولد الروح هو العلم الذي بثه في قلوب الرجال، وصح أن من مات وهو يقرأ القرآن ولم يحفظه يكلف الله ملكا يتمم له حفظ القرآن، فعلى هذا انقطاع العمل عند الموت لا يكون إلا لمن لا نية له، أما من كان في عمل ينوي الاستمرار عليه فقطعه الموت فإن الله تبارك وتعالى يكمله له. القرآن قرآن ظاهر وقرآن باطن، القرآن الظاهر هو هذا الذي نقرأ، إذا اشتغل الإنسان بتلاوة القرآن ومات قبل حفظ القرآن يأمر مولانا ملكا يكمل له حفظ القرآن فيبعث يوم القيامة حافظا حاملا لكتاب الله. إذاً كل عمل صالح داخل في القرآن، من عزم

---

1 – نقله القرطبي عن عكرمة، ج5/ 349.

2 – عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) صحيح مسلم: كتاب الوصية/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (3084).

على الجهاد ومات ولم يستكمله، ومن خرج للهجرة ولم يصل ومن خرج لطلب العلم كل هذا سيكمله الله تبارك وتعالى فيبعث يوم القيامة كاملا[1]. واسع الفضل. ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ﴾ بأن تردوها من أربع إلى اثنتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَّفْتِنَكُمْ﴾ ينالكم بمكروه ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا مفهوم له، بينت السنة أن المراد بالسفر الطويل هو أربعة برد وهي مرحلتان ولو بلا خوف، قصروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم آمن ما كانوا أي في أمن عظيم. إنما الآية نزلت في خوف، شُرع القصر مع الخوف في آن واحد ولكن إذا ارتفع الخوف لا يمنع من القصر[2]. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ بيِّنو العداوة ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا محمد حاضرا ﴿فِيهِمْ﴾ وأنتم تخافون ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ ولتتأخر طائفة ﴿وَلْيَأْخُذُواْ﴾ الطائفة التي قامت معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ صلوا ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ الطائفة الأخرى ﴿مِنْ وَّرَائِكُمْ﴾ يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة وتذهب هذه الطائفة تحرس ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معهم إلى أن تقضوا الصلاة، وقد فعل صلى الله عليه وسلم كذلك

---

1 – عن جابر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يبعث كل عبد على ما مات عليه) صحيح مسلم: كتاب صفة الجنة ونعيمها/ باب الأمر بحسن الظن بالله (5126).

2 – عن يعلى بن أمية قال قلت لعمر بن الخطاب "ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا" فقد أمن الناس، فقال عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب صلاة المسافرين وقصرها (1108).

بطن نخل، رواه الشيخان[1]. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ سبب هذا أن الكفار ودوا أي تمنوا لو تغفلون إذا قمتم إلى الصلاة ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ بأن يحملوا عليكم فيأخذوكم ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فلا تحملوها ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ذا إهانة. كان الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة بني أنمار فلما هزم الله أعداء الله تبارك وتعالى خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وحده وتجاوز الوادي، وكانت السماء ترش مطرا خفيفا حتى صار بعيدا من أصحابه، فجلس تحت شجرة يقضي حاجته، فنظر إليه غورث واحد من الكفار من بني أنمار وقال هذا الرسول وحده معتزلا عن أصحابه، قتلني الله إن لم أقتله اليوم فأخذ سيفه وأتى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فسل سيفه صلتا وقال: من يمنعك مني يا محمد؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: الله. فسل السيف وأخذته فرقة رعدة فسقط مع سيفه، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم السيف وقال له: من يمنعك أنت مني؟ قال لا أحد، قال: تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله فقال: لا أقول ولكن لا أحاربك أبدا ولا أكون مع من يحاربك فترك الرسول صلى الله عليه وسلم السيف للرجل وقال له: اذهب، فقال والله لأنت خير مني، فقال: أنا أولى بذلك، فذهب إلى قومه وقص عليهم[2]، فبعضهم قالوا: هذا نبي وأسلموا وبعضهم أبوا الإسلام، فنزلت فيهم هذه الآية.

1- صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع (4127)، صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب صلاة الخوف (1390).

2- أخرجه الشيخان، صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة ذات الرقاع (4137) ومثله في باب غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع (4139) وجاء في صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب توكله

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ﴾ فرغتم منها ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ بالتهليل ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ مضطجعين ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ أمنتم ﴿فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ أدوها بحقوقها ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾ مكتوبا مفروضا ﴿مَوْقُوتًا﴾ مقدرا وقتها فلا تؤخر عنه. الله تبارك وتعالى من فضله وكرمه على عبده أوجب عليه الطاعات، وهذه الطاعات ليس فيها إلا مصلحة العبد لا تنفع الحق تبارك وتعالى، لا تنفعه عبادة الخلق ولا تضره معاصيه، ولكن أمرنا بما فيه مصالحنا ونَهانا عن ما فيه مضرتنا، أوجب الصلوات وقلل أعدادها لو أوجب علينا كثيرا لما أطقنا، أوجب علينا خمس صلوات في اليوم والليلة بدل خمسين، كان أوجب علينا خمسين صلاة في بداية الأمر فلم يزل يخففها حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هي يا محمد خمس صلوات في اليوم والليلة، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها فتلك خمسون صلاة، ما يبدل القول لدي[1]، ولما كان أصل فريضة الصلاة خمسين

على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس (4231). وأخرجه أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال: قاتلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم محاربَ خَصَفَةَ بنخل فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله عز وجل فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن كخير آخذ قال: أتشهد أن لا إله إلا الله قال: لا ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله قال فذهب إلى أصحابه قال قد جئتكم من عند خير الناس ... الحديث) مسند أحمد: من مسند المكثرين/ مسند جابر بن عبد الله (14401).

1- أخرجه الشيخان من حديث الإسراء والمعراج، صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى "وكلم الله موسى تكليما" (7517) ومنه: (... فرفعه عند الخامسة فقال يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد قال لبيك وسعديك قال إنه لا يبدل القول لدي كما فرضته عليك في أم الكتاب قال فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم

صلاة والكفار امتنعوا من الصلاة جعل عليهم يوم القيامة خمسين ألف سنة كل صلاة بألف عام، فلهذا طالت القيامة عليهم فصار يوم مقداره خمسون ألف سنة لأنّهم تركوا الصلاة خمسين صلاة في كل يوم، فكل صلاة بألف عام. قللها فهي خمس ووقتها لأن الإنسان جبل على التسويف فلولا أنه وقت لنا الصلوات: صلّ صلاة الصبح، صلاة الظهر، صلاة العصر، صلاة المغرب، صلاة العشاء، لكان أهل التسويف إلى وقتنا هذا ما صلوا الصبح، يسوفون، ولكن وقّت بنفسه لئلا تسوفه، ووسّع الوقت أيضا لئلا يكون جبرا، تصلي باختيارك، الوقت واسع، يقدر المكلف أن يؤدي الصلاة باختياره لا يكون كرها، وأمر مناديا ينادي للصلاة، تسمع المؤذن دائما يؤذن بكل وقت إلى الصلاة، أمر بإقامة الصلاة "أقيموا الصلاة"، وبأدائها في الجماعة "فاركعوا مع الراكعين"، وبأدائها في الوقت "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا" وأمر بالخشوع فيها "الذين هم في صلاتِهم خاشعون". ومنهم من حافظ على هذا العدد حيث أوجب الله خمسين صلاة، يكلفون أنفسهم خمسين ركعة كل يوم وليلة، فالصلوات الخمس سبع عشرة ركعة وبالشفع والوتر هذا عشرون، من حافظ على ركعتي الفجر وركعتي الضحى، وأربعا قبل الظهر وأربعا بعد الظهر وأربعا قبل العصر وركعتين بعد المغرب وركعتين قبل العشاء وعشر ركعات قبل الشفع والوتر فهذه خمسون صلاة. ومن عباد الله تبارك وتعالى من قواه الله حتى كان في صلاة دائما، منهم من وجد ديمومة الصلاة هم في صلاة دائما "الذين هم على صلاتِهم دائمون" بعد "على صلاتِهم يحافظون" الحفاظ على هذه الخمس ليس هو المداومة على الصلاة، من عباد الله من له ديمومة الصلاة، في

الكتاب وهي خمس عليك... الحديث). وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (234).

صلاة دائما، وتلك بالنية، الإنسان ينوي أنه مصل دائما فيكون مصليا دائما (نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله)[1] الذين رزقوا ديمومة الصلاة هم الذين أدوا هذه الصلاة حتى وصلوا إلى القرب الحقيقي "فاسجد واقترب" حتى فنوا عن الوجود وفنوا عن أنفسهم عن الوجود ووجود الوجود فيبقى الله تبارك وتعالى فهم هنالك في صلاة دائما سجدة واحدة لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا» في الأوقات الخمسة أو كتابا موقوتا عليهم، هم في وقت الصلاة دائما. ﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة في طلب أبي سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد، فشكوا الجراحات، لما قال أبو سفيان إن موعدنا غدا بحمراء الأسد وجبن وقال إلى العام القابل عند بدر الصغرى، تعلل بعض الأصحاب فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (والله لأخرجن إليهم ولو كنت أنا وحدي ولا يخرج معي إلا من حضر وقعة أمس)[2] فخرجوا وهم يشكون الجراحات فنزلت فيهم ﴿وَلاَ تَهِنُواْ﴾ لا تضعفوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب القوم، الكفار لتقاتلوهم ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ تجدون ألم الجراح ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ يجدونها ﴿كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ مثلكم فلا تجبنوا عن قتالهم ﴿وَتَرْجُونَ﴾ أنتم ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من النصر والثواب عليه ﴿مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ أنتم تزيدون عليهم بالرجاء وهم ليس عندهم أي رجاء ومع ذلك صبروا فأنتم أولى بالصبر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا

---

1 – (نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر شر من عمله) عن النواس بن سمعان. الجامع الكبير للسيوطي ج858/1.

2 – الصاوي في حاشيته على الجلالين ج191/1، فقه السيرة للبوطي 256. وقد سبق تخريجه في الدرس التاسع.

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق[1] رجل من الأنصار كان يظهر الإيمان وهو حقيقة منافق، سرق درعا لجاره وخبأها عند يهودي وكان الدرع[2] مدخرا في محل فيه شيء من دقيق البر فلما سرق الدرع صار دقيق البر يتساقط في طريقه حتى أودعه عند يهودي، فلما طلب صاحب الدرع درعه رأى تساقط الدقيق حتى وصل إلى بيت اليهودي فسأله عن الدرع فقال له إنه أودعه له طعمة بن أبيرق، ودعا طعمة فجمع قوما من أهله منافقين مثله فحلفوا بالله أن اليهودي هو الذي سرق الدرع وأن طعمة ما سرقه، فأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فحلف وحلف شهداؤه، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يرى إلا مسلما ادعى براءته وأقسم له شهود مسلمون لا يرى فيهم أي تُهمة فيميل قلبه إلى أن الحق معه، فأراد أن يحكم له على اليهودي، فنزلت ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما أعلمك ﴿وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾ كطعمة ﴿خَصِيمًا﴾ مخاصما عنهم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممت به ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اختلف العلماء هل الرسول صلى الله عليه وسلم له الاجتهاد أم ليس له أن يجتهد فإنه ما ينطق عن الهوى "إن هو إلا وحي يوحى" فمنهم من قال إنه ليس له نصيب في الاجتهاد، ومنهم من أثبت أن له أن يجتهد صلى الله عليه وسلم ولكن إذا اجتهد – بعد الآية[3] – يكون اجتهاده وحيا «لتحكم بين الناس بما أراك الله» أعطاه الله أن ما أراه الله هو الذي أمر الله به. فاجتهاده وحي «ولا

---

1 – ذكره جلال الدين السيوطي في الجلالين عند تفسير الآية.

2 – جاء في اللسان (مادة درع): الدرع لبوس الحديد تذكر وتؤنث، حكى اللحياني: درع سابغة ودرع سابغ.

3 – يعني قوله تعالى "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى".

تكن للخائنين خصيما» كطعمة «واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما» ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يخونونها بالمعاصي لأن وبال خيانتهم عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ كثير الخيانة ﴿أَثِيمًا﴾ بل يعاقبه ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ أي طعمة وقومه حياء ﴿مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهْوَ مَعَهُمْ﴾ بعلمه ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يضمرون ﴿مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ من عزمهم على الحلف على نفي السرقة ورمي اليهودي بها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ﴾ قوم طعمة ﴿جَادَلْتُمْ﴾ خاصمتم ﴿عَنْهُمْ﴾ عن طعمة وذويه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُّجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إذا عذبهم ﴿أَم مَّنْ يَّكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ يتولى أمرهم، لا أحد يفعل ذلك، فلما نزلت الآية برأ الرسول صلى الله عليه وسلم اليهودي وقطع يد طعمة، وفر إلى مكة وارتد وصار سارقا فحفر ليلة تحت قصر أحد حتى وجد ثقبة يدخل بها البيت للسرقة فسقط القصر عليه فمات، أخيرا تبين أنه هو السارق ﴿وَمَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا﴾ ذنبا ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بعمل ذنب قاصر عليه ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ يتب ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ له ﴿رَحِيمًا وَمَنْ يَّكْسِبْ إِثْمًا﴾ ذنبا ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأن وباله عليها ولا يضر غيره ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ في صنعه ﴿وَمَنْ يَّكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ ذنبا صغيرا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ذنبا كبيرا ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ منه ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ﴾ تحمل ﴿بُهْتَانًا﴾ برميه ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بالعصمة ﴿لَهَمَّتْ﴾ أضمرت ﴿طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من قوم طعمة ﴿أَنْ يُّضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق بتلبيسهم عليك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ لأن وبال إضلالهم عليهم ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من الأحكام ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بذلك ﴿عَظِيمًا﴾ هذه الآية تضمنت

أشياء: أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح ولا يضره إلا عمله السيئ، والإنسان يجب عليه التوبة والجد على العمل الصالح في كل وقت من الأوقات، والحاكم يجب عليه العدل بين الناس، هذا يهودي كافر، وهذا يدعي الإسلام عربي، ولما كان الحق لليهودي حكم له الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر القرآن، وحكم على المسلم. فلهذا قالوا إن أميرا ليس له عدالة كنهر ليس له ماء، وعالم لا يعمل بعلمه ولا يعلّمه كمالٍ لا ينفق منه، وغني ليس له سخاوة كشجر ليس له ثمر، وفقير ليس له صبر كقنديل ليس له ضوء ، وامرأة ليس لها حياء كطعام ليس له ملح[1]. وقالوا صلاح أربعة في أربعة: الصبيان صلاحهم في المدارس، والشيوخ صلاحهم في المساجد والنساء صلاحهن في البيوت، والسراق صلاحهم في السجون. الله تبارك وتعالى وهب رسوله صلى الله عليه وسلم العلم، وقال إن ذلك فضل عظيم على الرسول صلى الله عليه وسلم. إن الله أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم من عظمة القدر ما لم يعط لعبد غيره صلى الله عليه وسلم فقدر الرسول صلى الله عليه وسلم عند الله على ثلاث مراتب: له قدر صغير وله قدر وسط وله قدر عظيم. فقدر الرسول صلى الله عليه وسلم الصغير أن كل من علّم خيرا أو علم علما يقسم الله له ثواب ذلك ويضاعف ثواب المعلِّم لمعلمه، ويضاعف ذلك لمعلم ذلك كلما كانت السلسلة أعلى تكون المضاعفة أكبر حتى ينتهي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فله في كل مسألة أكبر حظ من الثواب والفضل، وكلُّ ما يعلَّم من خير فصادر من الرسول صلى الله عليه وسلم. هذا قدره الصغير، وقدره الوسط لا يعرفه حقيقة إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، وقدره الكبير لا يعلمه إلا الله، كل يوم

1- انظره في روح البيان ج1/435.

يترقى في معرفة نفسه ويعلم من نفسه ما لم يكن يعلم. وهذا هو استغفاره صلى الله عليه وسلم (إنه ليغان علي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) وفي رواية مائة مرة[1] وهو صلى الله عليه وسلم معصوم من الذنب عاجز عن ارتكاب أي مخالفة عجزا ذاتيا كعجز الإنسان عن الطيران في الهواء، ومع ذلك خوطب بـــ "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر" لو فرضنا أن له ذنبا غفر الله له ما تقدم وما تأخر. إذا استغفاره من أي شيء وغينه من أي شيء؟ العارفون لا يرون غير الله تبارك وتعالى، وهو إمام العارفين، هذا الغين ليس غين أغيار، سأله عارف فأجابه: غين أنوار لا غين أغيار، يعني كلما ترقى في ذات الله تبارك وتعالى تجدد عنده من المعارف ووجد من الخدمة والآداب في نفسه ما تستحقه تلك المرتبة بالنسبة إلى هذا التجلي الأخير، فيكون يرى أنه مهما كان عليه من الجد والاجتهاد في الوقت الماضي فهو كان ناقصا بالنسبة إلى ما هو عليه الآن فيستغفر الله من ذلك ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ مما يتناجون فيه ويتحدثون، حديث الناس بعضهم لبعض كله لغو لا خير فيه ﴿إِلاَّ﴾ نجوى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ إلا من أمر الناس بإخراج الصدقات ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أو عمل بر أيّ عمل ﴿أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾

---

1 - (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) عن الأغر المزني، صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (4870). وفي صحيح البخاري: عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) كتاب الدعوات/ باب استغفار النبي في اليوم والليلة (6307). وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" فقال النبي صلى الله عليه وسلم (إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) قال هذا حديث حسن صحيح ويروى عن أبي هريرة أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة). سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة محمد (3182).

أو يسعى في إصلاح ذات البين ﴿وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لا غيره من أمور الدنيا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ كل عمل ابن آدم عليه لا له إلا من أمر بصدقة أو معروف أو سعي في إصلاح ذات البين[1]. قال جبريل إنه تمنى لو كان آدميا ليحضر في مجلس عالم، وتمنى أن يكون آدميا ليسعى في إصلاح ذات البين، وتمنى أن يكون آدميا ليحفر بئرا ويسقي من مائها، وتمنى أن يكون آدميا ليحضر جنازة مسلم أو يعود مريضا، هذه رأى جبريل فيها من الفضائل ما حمله على تمني أن يكون آدميا مع جلالة قدره. ﴿وَمَنْ يُّشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالف الرسول فيما جاء به ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ظهر له الحق بالمعجزات ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ طريقا غير طريقهم ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ نجعله واليا لما تولاه من الضلال أي نخلي بينه وبين ضلالته في الدنيا ﴿وَنُصْلِهِ﴾ ندخله في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ﴾ فيحترق فيها ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مرجعا. من خالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا جزاؤه عند الله تبارك وتعالى وكذلك من اتبع غير سبيل المؤمنين. فلهذا إجماع الأمة جاء دليلا في الشريعة وحجة. «وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (أمتي لا تجتمع على ضلالة)[2] إجماع الأمة معصوم، أصل الشريعة القرآن والحديث وإجماع الأمة. إجماع الأمة دليله

1- ورد في روح البيان (عمل ابن آدم كله عليه لا له إلا ما كان من أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله) ج284/2.

2- عن أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب السواد الأعظم (3940) وفي سنن الترمذي: عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار). كتاب الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة (2093).

«ويتبع غير سبيل المؤمنين». ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ﴾ سبب نزولها تقدم أمس «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُّشْرَكَ بِهِ» لا يقبل الشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَّشَاءُ وَمَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ عن الحق ﴿إِنْ يَّدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿إِلاَّ إِنَاثًا﴾ أصناما، سماها إناثا لأن أسماءها مؤنثة كلا كاللات والعزى ومناة ﴿وَإِنْ يَّدْعُونَ﴾ يعبدون بعبادتها ﴿إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ خارجا عن الطاعة ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أبعده عن رحمته ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعا أدعوهم إلى طاعتي. الشرك على ثلاثة أقسام: شرك جلي وشرك خفي وشرك أخفى، الشرك الجلي عبادة الأصنام، والشرك الخفي عمل الرياء، والشرك الأخفى رؤية ما سوى الله تبارك وتعالى. والله لا يغفر أن يشرك به، من لقي الله بقسم من الشرك فإن الله لا يغفر أن يشرك به ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بالوسوسة يضل العباد عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ ألقي في قلوبهم أمنية طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يقطعن ﴿ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وقد فعل ذلك بالبحائر سيأتي في سورة المائدة ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ دينه بالكفر وإحلال ما حرم وتحريم ما أحل ﴿وَمَنْ يَّتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ يتولاه ويطيعه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ بينا لمصيره إلى النار المؤبدة عليه ﴿يَعِدُهُمْ﴾ طول العمر ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ نيل الآمال في الدنيا وأن لا بعث ولا جزاء ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بذلك ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ باطلا ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلا ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ الفرائض والنوافل ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ وعدهم الله ذلك وحققه حقا ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾ لا أحد أصدق ﴿مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ قولا. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ نزلت هذه الآية لما تفاخر المسلمون وأهل الكتاب

قال المسلمون نحن مسلمون ديننا خير من دينكم فنحن خير منكم وقال اليهود نحن ديننا أفضل من دينكم ونحن خير منكم[1] وقال ﴿لَيْسَ﴾ الأمر منوطا ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بل بالعمل الصالح فقط ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إما في الآخرة أو في الدنيا بالبلاء والمحن كما ورد في الحديث[2] ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يحفظه ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يمنعه منه قال أبو بكر بأبي أنت يا رسول الله إن كان كل ما نعمل من سوء نجز به فقد هلكنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: كل بلاء ينزل بالمؤمن حتى حمى ليلة حتى مرض ولد، فقدُ مالٍ، حتى شوكة تصيبه يحط الله بذلك من ذنوب المسلم حتى يلقى الله وليس عليه كبيرة ولا صغيرة[3]. وهذه هي أخوف آية للسلطان. بينا عمر يمشي في نواحي المدينة مع جماعة من شيوخ الصحابة، نظروا إلى قافلة قال: من القافلة ومن أين وإلى أين؟ قالوا: من فج عميق إلى البيت العتيق. قال: هم دخلوا في هذا؟ أتوا بالألقاب، قل لهم يخبروني عن أعظم آية في القرآن وأخوف آية في القرآن وأعدل آية في القرآن وأحكم آية في القرآن وأرجى آية في القرآن. فأجابوا: أعظم آية في القرآن آية

1- انظر تفسير ابن كثير عند ذكر سبب نزول هذه الآية.

2- جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت "من يعمل سوءا يجز به" بلغت من المسلمين مبلغا شديدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها) كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه (4671).

3- أخرج الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حديثا بهذا المعنى وفيه يقول أبو بكر: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزون بما عملنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة النساء (2965).

الكرسي وأعدل آية في القرآن "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"، وأحكم آية في القرآن "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي"، وأرجى آية في القرآن "إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما" وأخوف آية في القرآن "من يعمل سوء يجز به". قال عمر: أفيكم ابن أم عبد، فيكم عبد الله بن مسعود؟ قالوا: نعم، قال: كنيف ملئ علما آثرنا به أهل القادسية[1]. الجواب آت من عند عبد الله بن مسعود.

عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: إنكم تقولون يا معشر العراق إن أرجى آية في القرآن "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا" ولكنا نحن معشر أهل البيت نقول إن أرجى آية في القرآن "ولسوف يعطيك ربك فترضى" لأن النبي لا يرضى أبدا وأحد من أمته يدخل النار[2] «من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله» غيره «وليا ولا نصيرا»

---

1 – جاء في تفسير الثعالبي ج4/434-435: قال الداودي بينما عمر بن الخطاب بطريق مكة ليلا إذا ركب مقبلين من جهة فقال لبعض من معه سلهم من أين أقبلوا؟ فقال له أحدهم: من الفج العميق يريد البلد العتيق فأخبر عمر بذلك، فقال أوقعوا في هذا قل لهم فما أعظم آية في كتاب الله، وأحكم آية في كتاب الله، وأعدل آية في كتاب الله، وأرجى آية في كتاب الله، وأخوف آية في كتاب الله؟ فقال قائلهم: أعظم آية في كتاب الله: آية الكرسي، وأحكم آية في كتاب الله: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان.." وأعدل آية في كتاب الله: "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"، وأرجى آية في كتاب الله: "إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما" وأخوف آية في كتاب الله: "من يعمل سوء يجز به"، فأخبر عمر بذلك فقال لهم عمر: أفيكم ابن أم عبد؟ فقالوا: نعم وهو الذي كلمك، قال عمر: كنيف ملئ علما آثرنا به أهل القادسية على أنفسنا.

2– جاء في كنز العمال عن حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: جعلت فداك أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها بالعراق أحق هي؟ قال: شفاعة ماذا؟ قلت: شفاعة محمد صلى

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ شيئا ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهْوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قدر نقرة النواة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ لا أحد أحسن دينا ﴿مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ انقاد وأخلص عمله ﴿لِلَّهِ وَهْوَ مُحْسِنٌ﴾ موحد ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لملة الإسلام ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ صفيا خالص المحبة له ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ علما وقدرة، لم يزل متصفا بذلك ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يطلبون منك الفتوى ﴿فِي﴾ شأن ﴿النِّسَاءِ﴾ ميراثهن ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن من آيات الميراث ويفتيكم أيضا ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ فرض ﴿لَهُنَّ﴾ من الميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ أيها الأولياء ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن وتعضلوهن أن يتزوجن طمعا في ميراثهن، رغب إذا تعدى بـــ "أنْ" فهي كراهة، وإذا تعدى بــ"في" فهي رغبة، ترغبون عن أن تنكحوهن لدمامتهن وتزوجتموهن لتستولوا على أموالهن، أو "ترغبون" لكم رغبة في نكاحهن لما عندهن من المال لتستولوا على المال ﴿وَ﴾ في ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أن تعطوهم حقوقهم ﴿وَ﴾ يأمركم ﴿أَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ

الله عليه وسلم، قال: حق والله إي والله لحدثني عمي محمد بن علي ابن الحنفية عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أشفع لأمتي حتى يناديني ربي فيقول: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم رضيت) ثم أقبل علي فقال: إنكم تقولون يا معشر العراق إن أرجى آية في كتاب الله: "يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم" قلت إنا لنقول ذلك، قال: ولكنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وهي الشفاعة. ابن مردويه. كنز العمال: حرف القاف، كتاب القيامة/ تتمة الشفاعة 39758 (مسند علي). وفي الدر المنثور ج543/8، وفي الإحياء ج418/4.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ كل ما فعل العبد من خير فإن الله تبارك وتعالى عليم بذلك ويجازي عليه. الولدان: الصغار، ذكرهم الله في الكتاب لأن فيهم خصالا حميدة من اتصف بها يلحق بالأولياء الصالحين[1]، الولد إذا حزن بكى دموعا ولا يُبيِّت حقدا لأحد، إذا تشاجر مع مثله لم يبيت له عداوة في قلبه، ويصدق في المقال، إذا تشاجر الصبيان وسئلوا يقولون الحق فقط ويبيتون على الأرض متواضعين، كل من تخلق بأخلاق الصبيان يكون كبيرا. "وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما" فعلى هذا العبد يجتهد دائما في العمل الصالح والله يجازيه عليه. كان أبو المنصور من الأولياء الكبار لما قربت وفاته صار يبكي وحزن حزنا شديدا، وكان له ولد صالح فتعجب الولد منه وقال ما لك يا أبت؟ قال: أسلك طريقا ما عرفتها لم آلفها، المحل الذي آتيه ليس مما نعرف، هذا هو الذي أخافني. فلما توفي تعلق الولد برؤيته حتى يعرف كيف حاله، فرآه بعد موته بأربعة أيام فسأله: يا أبت ما فعل الله بك؟ قال: الأمر أشد من كل ما كنا نظن، لقيت خصماء مناقشين ولكني لقيت ربا كريما أرحم الراحمين، وقفت بين يديه قال لي: أبقيتك سبعين سنة ماذا قدَّمتَ فيها؟ قلت له يا رب هذه ستون سنة صيامها وقيامها، قال: لم أقبل منها شيئا. قلت: ثلاثون حجة، قال: لم أقبل منها شيئا، قلت: خرجتُ أربعين مرة للجهاد، قال: ما قبلتُ منها شيئا، قلت: تصدقتُ بأربعين ألف درهم من يدي، قال: ما قبلتُ شيئا من ذلك، قلت يا رب: إذاً هلكتُ، قال: لا أنا لا أُهلِك مثلَك

1- قال البروسوي في تفسير روح البيان نقلا عن السيوطي في «حسن المحاضرة في أحوال مصر والقاهرة» إن شئت أن تصير من الأبدال فحول خلقك إلى بعض خلق الأطفال ففيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالا: لا يهتمون للرزق ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا ويأكلون الطعام مجتمعين وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع وإذا تخاصموا لم يتجاوزوا وتسارعوا إلى الصلح. روح البيان ج2/ 296.

أبدا، مشيتَ في اليوم الفلاني ووجدتَ شوكةً على طريق فنحيتها عن الطريق مخافة أن تؤذي مسلما غفرتُ لك بذلك[1]؛ «وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما».
﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ هذه الآية نزلت في سيد العالمين وزوجته سودة، لما كبرت سودة بنت زمعة همّ النبي صلى الله عليه وسلم بطلاقها بل طلقها بالماضي، فجلست في طريق المسجد حتى مر بِها النبي صلى الله عليه وسلم، قالت له: ليس لي رغبة في النكاح ولكن لا تطلقني اتركني مع نسائك حتى أكون من نسائك في الجنة، ونوبتي هدية مني إلى عائشة[2] فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يقسم لعائشة ليلتين وللضرات الباقيات ليلة واحدة، بقيت سودة بلا ليلة صلحا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فأبقاها الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك حتى مات عنها بقيت في عصمتها حتى صارت من نسائه في الجنة فنزلت ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾ توقعت ﴿مِن بَعْلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ ترفعا عنها بترك مضاجعتها والتقصير في نفقتها لبغضها وطموح عينه إلى أجمل منها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَّصَّالَحَا بَيْنَهُمَا﴾ لا باس على أي الزوجين في المصالحة فيما اتفقا عليه بينهما ﴿صُلْحًا﴾ في القسم والنفقة بأن تترك له شيئا طلبا لبقاء الصحبة، فللمرأة أن تسقط نوبتها وأن تسقط نفقتها وتبقى مع زوجها إن رضيت بذلك فعلى الزوج أن يقبل ذلك أو يفارقها ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ إن لم يقبل هذا كلا يطلقها فقط، والصلح خير من الفرقة والنشوز والإعراض ﴿وَأُحْضِرَتِ

1- روح البيان ج298/2.

2- عن عكرمة عن ابن عباس قال خشيت سودة أن يطلقها النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت "فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير" سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة النساء (2966).

الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ شدة البخل، جبلت عليه، فكأنّها حاضرته لا تغيب عنه أبدا. المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها والرجل لا يكاد يصبر عليها نفسه إذا أحب غيرها ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ﴾ عشرة النساء ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجور عليهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم به ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ تسووا بين النساء في المحبة، هذا لا يمكن ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ على ذلك ﴿فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ﴾ إلى التي تحبونَها في القسم والنفقة ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ تتركوا الممال عنها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي لا هي أيم ولا ذات بعل ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ بالعدل في القسم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الجور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما في قلوبكم ﴿رَحِيمًا﴾ بكم في ذلك، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجمع إحدى عشرة امرأة كان أحبهن إليه عائشة بنت الصديق ولكن كان يعدل في القسم، وإذا قسم شيئا بين نسائه يسوي الأنصباء ويقول (اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[1]. فكان صلى الله عليه وسلم لا يجور ويعدل في القسم، النبي ليس له بيت، إنما إذا كان نوبة إحداهن يأتي لبيتها فقط وإذا انقضت نوبتها انتقل إلى غيرها، كان يدور على نسائه هكذا وليس له بيت، رسول فقط، والرسول لا يبني بيتا، وكان الصحابة يفهمون أن هدية أتت النبي صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة يكون النبي أشد فرحا بها من كل هدية، وكان الأنصار يمسكون هداياهم ينتظرون نوبة عائشة، فإذا جاءت نوبة عائشة جاءت الهدايا متكاثرة، فإذا كان نوبة غيرها فقدن ذلك، وكل ما جاء في

1- عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل ويقول (اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك) قال أبو داود يعني القلب. سنن أبي داود: كتاب النكاح/ باب في القسم بين النساء (1822). وفي سنن الترمذي: كتاب النكاح/ باب ما جاء في التسوية بين الضرائر (1059) بلفظ (اللهم هذه قسمتي...)

نوبة إحداهن فلها، اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم فشكون من ذلك، بعثن فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم: اذهبي إلى أبيك قولي له يعدل بيننا في بنت أبي بكر. فأتت وقالت: النساءُ أرسلنني إليك يسألنك العدل في بنت أبي بكر، قال لها: أنت بنتي لا ينبغي لك إلا أن تحبي ما أحب فقط، قالت: نعم وذهبت، سألنها الجواب، فما ردت لهن جوابا. أرسلن زينب بنت جحش فتكلمت للرسول صلى الله عليه وسلم فما رد لها جوابا فتكلمت كثيرا فما رد لها جوابا، فتكلمت في عائشة، سبتها، قالت عائشة: فصرت أنظر إلى عين الرسول صلى الله عليه وسلم هل يقبل أن أرد عليها أم لا؟ حتى رددت عليها كلمة تبسم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: إنّها بنت الصديق[1]. قالت عائشة: فعلمت أن الرسول صلى

1- عن عائشة رضي الله عنها أن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كن حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرها حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة فكلم حزب أم سلمة فقلن لها كلمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس فيقول من أراد أن يهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فليهده إليه حيث كان من بيوت نسائه فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا فسألنها فقالت ما قال لي شيئا فقلن لها فكلميه قالت فكلمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا فسألنها فقالت ما قال لي شيئا فقلن لها كلميه حتى يكلمك فدار إليها فكلمته فقال لها لا تؤذيني في عائشة فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة قالت فقالت أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر فكلمته فقال: يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ قالت: بلى فرجعت إليهن فأخبرتهن فقلن ارجعي إليه فأبت أن ترجع فأرسلن زينب بنت جحش فأتته فأغلظت وقالت إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة فسبتها

الله عليه وسلم يرضيه أن أرد على زينب فرددت عليها حتى سكتت. وهذا قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[1] ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ إن أوقعا الطلاق بينهما حتى وقع افتراق ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ﴾ عن صاحبه ﴿مِن سَعَتِهِ﴾ من سعة فضل الله تبارك وتعالى بأن يرزقها زوجا غيره ويرزقه زوجة غيرها ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ لخلقه في الفضل ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يا أهل القرآن ﴿أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ خافوا عقابه بأن تطيعوه. الله تبارك وتعالى وصى أهل الكتاب ووصى أهل القرآن بتقوى الله وهو امتثال الأمر واجتناب النهي. لما ضرب عبد الرحمن بن ملجم ألجمه الله بلجام من نار عليا بن أبي طالب حتى غشي عليه حملوه إلى بيته وهو في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة جمع بنيه ووصاهم: أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة وأوصيكم بكلمة الحق في الرضى والغضب وأوصيكم بالعدل في العدو والصديق وأوصيكم بالقصد في الغنى والفقر وأوصيكم بالعمل في النشاط والكسل، يا بَنِيَّ فإنه لا شر بعده الجنة بشر ولا خير بعده النار بخير، يا بَنِيَّ من غشي مجالس العلماء وقر ومن أتى مجالس الأرذال احتقر، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها، إلى أن قال: فطوبى لمن أخلص

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لينظر إلى عائشة هل تكلم قال فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها قالت فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة وقال إنها بنت أبي بكر. متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب الهبة وفضلها/ باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض (2581) وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب في فضل عائشة (4472).

1 – سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

عمله لله وعلمه لله وكلمته وصمته وقوله وفعله وأخذه وتركه وحبه وبغضه لله تبارك وتعالى. ﴿وَ﴾ قلنا لهم ولكم ﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ بما وصيتم به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا وعبيدا فلا يضره كفرهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن خلقه وعبادتهم ﴿حَمِيدًا﴾ محمودا في صنعه بهم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كرره تأكيدا لتقرير موجب التقوى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ كرر في الآية «لله ما في السماوات وما في الأرض» ثلاث مرات في ثلاثة أسطر ليس تأكيدا فقط، لكل معنى، أولا: لله ما في السماوات وما في الأرض لما أمرهم به من التقوى أن اتقوا الله حيث أن له ما في السماوات وما في الأرض ينبغي أن تتقوه، وإن تكفروا فهو غني عنكم وعن تقواكم لأن لله ما في السماوات وما في الأرض، هذا تعليم أنه تبارك وتعالى غني عن العباد وعن أعمالهم، وكررها ثالثة لأن تثق فيه، يدعوك إلى أن تتخذه وكيلا وكفى بالله وكيلا، لِمَ لا يكفي وكيلا وله ما في السماوات وما في الأرض؟ ﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ بدلكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الإنسان يعمل بعمله للآخرة فالله يعطيه الدنيا والآخرة وإن كان يعمل للدنيا فقط ويترك الآخرة فليس له إلا ما قسم له في الدنيا وفقد الآخرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ﴾ قائمين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿شُهَدَاءَ﴾ بالحق ﴿لِلَّهِ وَلَوْ﴾ كانت الشهادة ﴿عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق ولا تكتموه ﴿أَوْ﴾ على ﴿الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَّكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ منكم وأعلم بمصالحهما ﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى﴾ في شهادتكم ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ فلا بد من العدالة ﴿وَإِن تَلْوُواْ﴾ تحرفوا الشهادة ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عن أدائها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم

به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ﴾ دوموا على الإيمان ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ على الرسل بمعنى الكتب ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ عن الحق ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بموسى وهم اليهود ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعبادة العجل ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ بعد ذلك بالتوبة ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى ﴿ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ما أقاموا عليه ﴿وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الحق ﴿بَشِّرْ﴾ أخبر يا محمد ﴿الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلما وهو عذاب النار ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لما يتوهمون فيهم من القوة ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ لا يجدونها ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ في الدنيا والآخرة ولا ينالها إلا أولياؤه ﴿وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن في سورة الأنعام، كيف يكون هذا في سورة الأنعام وهي نزلت في مكة وهذه نزلت بالمدينة؟ لأن علم الله سبق أن نظام القرآن لا بد أن تكون سورة النساء قبل سورة الأنعام. أو حضرة الله ليس فيها مستقبل ولا ماض ﴿أَنْ﴾ أنه ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ الكافرين والمستهزئين ﴿حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا﴾ إن قعدتم معهم ﴿مِثْلُهُمْ﴾ في الإثم ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر والاستهزاء ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ﴾ ينتظرون ﴿بِكُمْ﴾ الدوائر عادة المنافقين ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ ظفر وغنيمة ﴿مِنَ اللَّهِ قَالُواْ﴾ لكم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدين والجهاد فأعطونا من الغنيمة ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الظفر عليكم ﴿قَالُواْ﴾ لهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ نستول ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ونقدركم على أخذهم ﴿وَنَمْنَعْكُمْ﴾ لم نقدرهم

على أخذكم وقتلكم فأبقينا عليكم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يظفروا بكم بتخذيلهم ومراسلتكم بأخبارهم فلنا عليكم المنة. قال تعالى ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأن يدخلكم الجنة ويدخلهم النار ﴿وَلَنْ يَّجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ طريقا للاستئصال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ بإظهارهم خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَادِعُهُمْ﴾ مجازيهم على خداعهم فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه ويعاقبون في الآخرة ﴿وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُواْ كُسَالَى﴾ متثاقلين ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ بصلاتهم ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ لا يصلون ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إلا رياء. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: تلك صلاة المنافق، الرجل يصبر حتى تكاد الشمس أن تغرب فيقوم ويصلي ركعات لا يحضر قلبه فيها مع الله تبارك وتعالى، وينقر السجدات كنقر الديك تلك صلاة المنافق[1] ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ مترددين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الكفر والإيمان ﴿لاَ﴾ منسوبين ﴿إِلَى هَؤُلاَءِ﴾ الكفار ﴿وَلاَ﴾ منسوبين ﴿إِلَى هَؤُلاَءِ﴾ المؤمنين ﴿وَمَنْ يُّضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الهدى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بموالاتهم ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ برهانا بينا على نفاقكم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ﴾ المكان ﴿الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو قعرها. "لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم" النار سبع طبقات[2]: جهنم، لظى، السعير، سقر،

---

1 – عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب التبكير بالعصر (987).

2– حاشية الصاوي على الجلالين ج123/2. روح البيان ج139/2.

الجحيم، الحطمة، الهاوية. جهنم لعصاة المؤمنين، لظى لليهود والنصارى، سقر للمشركين، الجحيم للمجوس، الحطمة لعبدة الأوثان، والهاوية التي تكون تحت الدرك كلا هي للمنافقين «في الدرك الأسفل من النار» ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ مانعا من العذاب ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ﴾ من النفاق ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ عملهم ﴿وَاعْتَصَمُواْ﴾ وثقوا ﴿بِاللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ من الرياء ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيما يؤتونه ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة وهو الجنة ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ لا يعذبكم الله ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمه ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لأعمال المؤمنين بالإثابة ﴿عَلِيمًا﴾ بخلقه لا يفوته شيء.

اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس الثالث عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ سبب نزولها سب رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليه، فسبه ثانيا فلم يرد عليه، وسبه ثالثا فرد عليه، فقام المصطفى صلى الله عليه وسلم وانصرف عن المجلس فأدركه أبو بكر فقال له: الرجل تكلم لي مرارا ولم أتكلم ولما تكلمتُ ذهبتَ عنا، قال: لما سكتَّ كان يرد عنك المَلَك، ولما تكلمتَ انصرف المَلَك وجاء الشيطان وأنا لا أجالسه فانصرفتُ، فنزلت هذه الآية[1] ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ مثلَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

1- سبب نزول الآية ذكره الخازن في تفسيره عن مقاتل ج416/1، وفي حاشية الصاوي ج254/1 والحديث أخرجه أبو داود في سننه: عن سعيد بن المسيب أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فآذاه فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان فلم أكن لأجلس إذ وقع الشيطان. وفيه عن أبي هريرة بمثله. سنن أبي داود: كتاب الأدب/ باب في الانتصار (4251). وأخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في الألفاظ، مسند المكثرين من مسند أحمد (9251).

الإنسان ممنوع من الجهر بالسوء قولا وفعلا إلا في حق الظالم، إذا ظلمك إنسان فلك أن تتكلم في ظلمه بأن تقول فلان سرق مالي، فلان فعل لي ليس في هذا ذنب. أو إذا كان الإنسان يرتكب بدعة أو ضلالة أو فسقا وخلع جلباب الحياء، فمن خلع جلباب الحياء فلا غيبة له[1] لحديث (اذكروا الفاسق بما فيه لكي يحذروه)[2] ومن الجهر بالسوء من القول الذي يجوز: الضيف إذا لم يكرم يجوز أن يصف مضيفه بأنه غير مكرم للضيف «لاَ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ» لا يثيب على الجهر «بالسُّوءِ» بل يعاقب عليه «مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ» فلا يؤاخذه بالجهر به ﴿وَكَانَ اللّهُ سَمِيعًا﴾ لما يقال ﴿عَلِيمًا﴾ بما يُفعل. لا يحب الجهر بالسوء من القول في حق العوام ولا يحب التحدث به في النفس في حق الخواص، ولا يحب أن يخطر بالبال في حق خواص الخواص «لاَ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ» ففيه الإشارة أن الله تبارك وتعالى لا يحب الجهر بأسرار الربوبية عند المحجوبين، كشف أسرار الربوبية بين المحجوبين أشد عند الله من الحرام[3]، «إلا من ظلم» إلا من غلبه الحال «وكان الله سميعا عليما» بما يُفعل ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ تظهروا ﴿خَيْرًا﴾ من أعمال البر ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تعملوه سرا ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ﴾ ظلم ﴿فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ للمسلم أن يجهر بالسوء في حق من ظلمه، ولكن إن عفا فإن الله تبارك وتعالى يجازيه على ذلك ويرضى عنه، أكده بأنه تبارك وتعالى كان عفوا قديرا. فلذلك ورد أن من مكارم الأخلاق أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك،

1- حديث (من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له) للبيهقي في السنن عن أنس، الجامع الصغير 8525.

2- (اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء/ باب الهمزة مع الذال المعجمة (305) وأخرج السيوطي في الجامع الصغير (ليس للفاسق غيبة) (7650).

3- جاء في إحياء علوم الدين للغزالي ج131/1 ما نصه: قال بعض العارفين إفشاء أسرار الربوبية كفر .

وتعطي من حرمك[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا به دونهم ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ منهم، كما فعل اليهود والنصارى ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الكفر والإيمان ﴿سَبِيلاً﴾ طريقا يذهبون إليه ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ذا إهانة هو عذاب النار ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كلهم ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمًا﴾ بأهل طاعته ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يا محمد ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ اليهود ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قالوا إنّهم لا يؤمنون بالقرآن حتى يأتي جملة كما أتى التوراة جملة على موسى، وهذا قالوه تعنتا، فإن استكبرت ذلك، ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ﴾ آباؤهم ﴿مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ﴾ الأولاد وإن بلغوا ما بلغوا من العناد والتعنت فآباؤهم أشد منهم تعنتا وعنادا، فقد سألوا موسى هذا السؤال ﴿فَقَالُواْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ الموت عقابا لهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ حيث تعنتوا في السؤال، طلبوا رؤية الله تبارك وتعالى عيانا تعنتا لا شوقا، لو كان محبة وشوقا لما هلكوا ولكن استكبارا وتعنتا وتجبرا و لم يعتبروا بما وقع لنبيهم "أرني أنظر إليك قال لن تراني" لما كان موسى يجاب هذا الجواب مع جلالة قدره فمن باب أولى هم، ومع ذلك سألوا عنادا "أرنا الله جهرة" طلبوا شيئا ليس لهم، طلبوا رؤية الله عيانا في الدنيا

1- (مكارم الأخلاق عند الله ثلاثة تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك) الجامع الكبير للسيوطي ج744/1. وجاء في مسند الإمام أحمد عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من منعك وتصفح عمن شتمك) مسند أحمد: مسند المكيين/ حديث معاذ بن أنس الجهني (15065)

بأبصارهم وهذا ممنوع لوجوه: أن الدنيا دار أعدائه فلا تستحق أن تكون محل ظهوره لأحبائه. ثانيا أن الدنيا يقومون فيها بالأسباب ويعيشون فيها بالقيام بمعاشهم، ولو ظهر لهم لتركوا الدنيا جميعا، وهذا يوجب تعطل الأعمال وانقضاء الدنيا، وأيضا هي أكبر كرامة فلا تكون إلا في أكبر دار وهي الآخرة. والمستحيل هو رؤية الله اليوم بالبصر. أما الرؤية التي هي معرفة الله، معرفة الله أولا بالإيمان ثانيا بالإيقان، وثالثا بالعيان بعد موت الشخص كما يقول الرسول (موتوا قبل أن تموتوا)[1] ومن أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى الصديق أبي بكر رضي الله عنه[2]. فهذه لا بد لها من الولادة مرتين والموت مرتين. ورؤية الله بعد الموت غير ممنوعة من أحبابه جعلنا الله وإياكم منهم «فأخذتْهم الصاعقة» الموت عقابا لهم بظلمهم حيث تعنتوا في السؤال ﴿ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المعجزات على وحدانية الله ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ﴾ ولم نستأصلهم، ما أهلكناهم ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ تسلطا بينا ظاهرا عليهم حيث أمرهم بقتل أنفسهم توبة فأطاعوه ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ الجبل ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ لما نزل التوراة امتنعوا من العمل به، فقلع جبريل جبل الطور قدر معسكرهم فدعاهم إلى العمل بالتوراة وإلا طبقه عليهم ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ وهو مظل

---

1 – موتوا قبل أن تموتوا. كشف الخفاء/ حرف الميم حديث رقم 2669.

وقال فيه: قال الحافظ ابن حجر هو غير ثابت، وقال القاري هو من كلام الصوفية، والمعنى موتوا اختيارا بترك الشهوات قبل أن تموتوا اضطرارا بالموت الحقيقي. وذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي عند شرح الحديث (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور) كتاب الزهد/ باب ما جاء في قصر الأمل، قال في شرح قوله (وعد نفسك في أهل القبور) قال: ففيه إشارة إلى ما قيل «موتوا قبل أن تموتوا وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا». تحفة الأحوذي ج7/ص38.

2– ورد هذا الحديث في إحياء علوم الدين للغزالي ج260/5.

عليهم ﴿ادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ أي القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سجود انحناء ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ﴾ لا تعتدوا في السبت باصطياد الحيتان فيه ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك فنقضوه. هذه القصص كلا تقدمت في سورة البقرة فلهذا اقتضبها، يأخذ جملة ويقتصر حتى عدّد الأنواع كلا ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ لعنّاهم بسبب نقضهم ﴿مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظلما ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ لا تعي كلامك ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ﴾ ختم الله ﴿عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فلا تعي وعظا ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثانيا بعيسى بن مريم، اليهود فعلوا هذا في زمن موسى وازدادوا كفرا لما كفروا بعيسى عليه السلام ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حيث رموها بالزنا ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ في زعمهم. اليهود كذبوا بعيسى ورموا أمه أنّها زانية وأن عيسى ولد زنى وليس من الأنبياء، فدعا عيسى عليهم قال يا رب إن كنتُ روحك وكلمتك فأهلك من سبني وسب أمي وأمسخهم قردة وخنازير فمسخوا كلا قردة وخنازير[1]، فلما خاف اليهود من دعوة عيسى عليهم تآمروا على قتله، أرادوا أن يقتلوه فأرسلوا من يقتله في محله، فلما أرادوا قتله رفعه الله كما سيأتي إلى السماء وألقى شبهه على عدوه الذي دخل عليه ططيانوس، فلما رأوه ظنوا أنه عيسى فقتلوه وقالوا الوجه وجه عيسى والجسم جسم ططيانوس، إن كان هذا عيسى فأين ططيانوس؟ وإن كان هذا ططيانوس فأين عيسى؟[2] ومع ذلك تجرأوا على الكذب وقالوا إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، بمجموع ذلك كذبَهم

1- ذكره في روح البيان ج317/2.

2- حاشية الصاوي على الجلالين ج329/1.

الله تبارك وتعالى وقال تكذيبا لهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ألقى الله شبهه على عدوه المقتول فقتل وصُلب ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ في عيسى ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من قتله، لما رأوا المقتول الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده دخلهم شك عظيم ﴿مَا لَهُم بِهِ ﴾ بقتله ﴿مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ لكن اتبعوا الظن فقط الذي تخيلوه أنّهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ الحق أنّهم ما قتلوا عيسى ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إلى محل رضاه، أو إلى سمائه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في ملكه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أحد ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بما فعلوه. هذا عيسى روح الله، ضل الفريقان في حق عيسى اليهود والنصارى؛ اليهود فرطوا في حقه حتى جعلوه ولد زنى وأمه زانية، والنصارى رفعوه فوق قدره حتى جعلوه ابنا لله أو هو الله. وهذا عادة الله في كل خليفة لابد من إفراط وتفريط. من فرط في حقه شقي به ومن أفرط حتى جعله فوق العبودية جعله إلها فهو أيضا شقي به. عيسى عليه الصلاة والسلام خلقه الله من روحه كما خلق آدم "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم" ولكن كل إنسان خلقه الله ينفخ فيه روحا من روحه فبهذا الروح يكون إنسانا، ولكن الغالب من بني البشر يكونون في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتِهم فينزل هذا الروح، إذا نزل هذا الروح تميز الإنسان من جميع المخلوقات بِهذا الروح، وهذا الروح دخل في مريم بغير واسطة الرجال فحملت بعيسى ووضعته في الحين[1] فجاء عيسى روحا محضا فلهذا أثر روحه أكثر من تأثير بني

1- قال جلال الدين المحلي: الحمل والتصوير والولادة في ساعة قال الصاوي وهو الصحيح ترجيحا له على أقوال أخرى. ج3/ 34 – 35. ونقل عن ابن عباس أنه قال: ما هو إلا أن حملت ووضعت و لم

البشر لأنه لم يمر في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء، إنما نزل الروح ونفخ في مريم فحملت ووضعت في الحين. إن الله تبارك وتعالى كان ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان[1]، لما أراد إظهار وجود غير وجوده تجلى في الحقيقة المحمدية فهي أول تجل برز من الذات العلية، فلهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (أنا من الله والمؤمنون مني)[2] (ولولاك ما خلقت شيئا) (أنا من نور الله والمؤمنون من

يكن بين الحمل والوضع والانتباذ إلا ساعة واحدة لأن الله تعالى لم يذكر بينها فصلا قال الله عز وجل "فحملته فانتبذت به مكانا قصيا"، قال القرطبي: وهذا أصح وأظهر، ج93/11.

1 – أخرج البخاري في صحيحه: عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئناك نسألك عن هذا الأمر، قال: كان الله و لم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض، فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها. صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قوله تعالى: "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده" (3192). وجاء في تفسير القرطبي ج216/18 لقوله تعالى: "أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض"...الآية قوله : وكان في أزله قبل أن خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان. وقال الثعالبي في تفسيره لقوله تعالى: "وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم": قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله في الأماكن مستحيل تعالى أن يحويه مكان كما تقدس أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق المكان والزمان وهو الآن على ما عليه كان. ج505/1 وقال : كان سبحانه قبل أن يخلق المكان والزمان وهو الآن على ما عليه كان، انظر كلامه عن الاستواء في تفسيره لقوله تعالى:" ثم استوى على العرش" ج263/2

2 – أخرجه السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة / حرف الهمزة وقال: أورده الديلمي عن عبد الله بن جراد بلا إسناد. وللإمام العجلوني في كشف الخفاء: باب حرف الهمزة مع النون (619) وقال: وعند الديلمي بلا إسناد عن عبد الله بن جراد: أنا من الله عز وجل والمؤمنون مني فمن آذى مؤمنا فقد آذاني– الحديث.. وأورده كذلك السخاوي في المقاصد الحسنة :كتاب الفضائل/ الباب الثاني.

نوري) (أنا من الله والمؤمنون من روحي)[1] هذا الروح هو الحقيقة المحمدية. سمي في الحديث بأسماء منها: النور، منها الدرة البيضاء، منها الروح، منها ملك كروبي، ملك محيط بالملائكة كما أن الملائكة محيطة ببني البشر وهذا كلا عبارة عن محمد صلى الله عليه وسلم[2]. وذكر الله أنه لما أوجد آدم نفخ فيه من روحه، ذلك الروح هو روح محمد صلى الله عليه وسلم، ولما خلق ابن آدم من سلالة من ماء مهين نفخ فيه من روحه، وعيسى عليه الصلاة والسلام نفخ فيه من روحه أيضا، ولما كان الأرواح في الأزل صفوفا كان روح عيسى عليه الصلاة والسلام هو الذي يلي روح محمد صلى الله عليه وسلم مباشرة، فلهذا لم يكن بينه وبينه نبي، ولهذا لم يأت بواسطة الآباء إنما أبوه محمد صلى الله عليه وسلم، فكان عيسى قويا بِهذه

وهو الحديث السادس والثلاثون من كتاب التذكرة في الأحاديث المشتهرة لمؤلفه محمد بن عبد الله الزركشي.

1- روح البيان ج2/319.

2 - جاء في تفسير روح البيان ما نصه: وأما قوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله جوهرة وأول ما خلق الله روحي وأول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله القلم وقول بعض الكبراء من الأئمة إن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروبي يسمى العقل وهو صاحب القلم وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفا كما قيل لخالد بن الوليد رضي الله عنه سيف الله وهو أول لقب في الإسلام وقول الله تعالى "يوم يقوم الروح والملائكة صفا" وقد جاء في الخبر أن الروح ملك يقوم صفا فلا يبعد أن يكون هذا الملك العظيم هو أول المخلوقات هو الروح النبوي فإن المخلوق الأول مسمى واحد وله أسماء مختلفة فبحسب كل صفة فيه سمي باسم آخر ولا ريب أن أصل الكون كان النبي عليه السلام لقوله (لولاك ما خلقت الكون) ... إلى أن قال بعد كلام: فيلزم من ذلك أن يكون روحه صلى الله عليه وسلم أول شيء تعلقت به القدرة وأن يكون المسمى بالأسماء المختلفة فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سمي درة وجوهرة كما جاء في الخبر أول ما خلق الله جوهرة وفي رواية درة فنظر إليها فذابت فخلق منها كذا وكذا، وباعتبار نورانيته سمي نورا وباعتبار وفور عقله سمي عقلا وباعتبار غلبات الصفات الملكية عليه سمي ملكا وباعتبار أنه صاحب القلم سمي قلما... من تفسير روح البيان ج5/ 199.

القوة أكثر من روح غيره، على أن كل روح تجرد من الأغيار واشتغل بالله تبارك وتعالى وفني عن وجوده واستغرق في وجود الحق تصرف في الكائنات قل أو كثر، وعيسى لما كان أقواهم وأقربهم إلى روح محمد وأقلهم ملابسة مع الأشياء كان تأثير روحه أعظم من تأثير روح غيره، وليس إلا جزء من روح محمد فقط، كذلك جبريل سمي روحا وهو من روح محمد صلى الله عليه وسلم. «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ» بقتله «مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ» لكن يتبعون الظن الذي تخيلوه «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» إلى محل رضاه «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» ولما كان الولد سر أبيه[1]، كان من حق عيسى عليه الصلاة والسلام أن يكون روحانيا لا يظهر له جسم لكن بحيث أنه نفخ الروح في مريم ومريم التذت بذلك النفخ فنزل منها مني كسائر النساء، من مني مريم بني جسد عيسى، لولا ذلك لكان روحانيا ليس له جسد[2]. ولما كان الولد غالبا يشبه ما تشاهده المرأة حال الوقاع شابه عيسى جبريل. وقع هذا في الناس مرارا، فلهذا لا يمكن نفي الولد عن أبيه بعدم شبه أو بشبه. جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنا رجل أبيض وامرأتي بيضاء وخرج لنا ولد أسود ليس مني، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: هل عندكم من إبل؟ قال: نعم، هل فيها أسود؟ قال: نعم، قال: نزعه عرق من ذلك الجمل الأسود[3]، فعلى هذا

1- (الولد سر أبيه) كشف الخفاء : حرف الواو (2911)

2- ذكره البروسوي في روح البيان قال: قيل خلق عيسى عليه السلام من ماء مريم ومن النفخ لا أحدهما فقط وهو الأصح عند المحققين. ج329/2.

3- أخرجه الشيخان ولفظ البخاري: عن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولد لي غلام أسود، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل

يأتي الشبه بمجرد رؤية المرأة لشيء. كانت امرأة يواقعها زوجها وهي تنظر إلى دبَّين اختلطا بين يديها فجاء الولد بأربع قوائم وأربع أعين شبه ما كانت تنظر حال المواقعة[1]، فلهذا جاء عيسى عليه الصلاة والسلام أشبه بالروحانيين منه من الجسمانيين «وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» أحد «إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ» بعيسى «قَبْلَ مَوْتِهِ» الكتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى. وفد نجران قسمان فيهم يهود وفيهم نصارى، قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: أسلموا، ويلكم أسلموا، أنتم تعلمون أني أنا النبي الذي ذكر في التوراة والإنجيل فقال اليهود: معاذ الله أن نؤمن بك وأنت تعد عيسى من الأنبياء وهو ما هو إلا ولد حرام، وقالت فرقة النصارى معاذ الله أن نؤمن بك وأنت تسب عيسى عليه الصلاة والسلام. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كيف أسبه؟ قالوا: تقول عبدٌ لله، قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله" قالوا: ليس عبدا لله إنما هو ولد له أو هو الله أو الآلهة ثلاثة[2]. كفر الفريقان، فلهذا كل أحد منهم إذا أتاه الموت وعاين ملك الموت يأتيه الملك بعيسى يقول له حتى تؤمن بعيسى فيؤمن به قبل موته أو أن الله سيؤخر نزول عيسى، الله تبارك وتعالى لما رفع عيسى إلى السماء كان يمكن أن يرده حينا حتى يعلموا أنه ليس هو المقتول، ولكن أخر الله نزوله إلى آخر الزمان، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (سينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يقتل الخنزير

فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعله نزعه عرق، قال: فلعل ابنك هذا نزعه) صحيح البخاري: كتاب الطلاق/ باب إذا عرض بنفي الولد (5305)، صحيح مسلم: كتاب اللعان/ (2756).

1- روح البيان ج2/330.

2- حاشية الصاوي على الجلالين ج2/138.

ويكسر الصليب ويرفع الجزية ويعدل يقيم العدالة في الأرض حتى يفيض المال حتى لا يقبله أحد)[1] إذاً «قبل موته» الضمير عائد إلى عيسى، ليس من أهل الكتاب أحد إلا وسيؤمن بعيسى قبل موت عيسى[2] حين ينزله الله في آخر الزمان خاتما للولاية المحمدية تشريفا لهذه الأمة، فلا ولاية بعد نزول عيسى، هو الختم الأكبر ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بما فعلوه ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بسبب ظلم ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُواْ﴾ وهم اليهود ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هي التي في قوله "حرمنا كل ذي ظفر" الآية، اليهود ارتكبوا المحرمات فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم، لهذا نعلم أن ارتكاب المحظورات يوجب حرمان الطيبات وتعاطي الطيبات من الحلال يمنع مناجاة الله تبارك وتعالى، إذا لابد من الزهد في الحرام مخافة أن يمنعك الله من الحلال الطيب، ولا بد من الزهد في الحلال لئلا تحرم مناجاة الله تبارك وتعالى. ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه صدا ﴿كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ في التوراة ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ كل هذه ارتكبوها، فلهذا حرم الله عليهم الطيبات من الرزق ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلما هو النار.

---

1 – عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب نزول عيسى (3448) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد (220).

2– ذكره ابن كثير في تفسيره ج577/1.

جملة الكبائر تنشأ من ثلاثة أشياء: اتباع الهوى "ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" الضلالة والبدعة والتفسخ والتكبر كل هذه الكبائر تنشأ من اتباع الهوى؛ فاتباع الهوى أولا وحب الدنيا ثانية، (حب الدنيا رأس كل خطيئة) كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم[1]، بحب الدنيا يقتل الإنسان النفس ويأكل الربا، يأكل أموال الناس بالباطل ويأكل أموال اليتامى ويقسم بالله اليمين الغموس ويعادي المسلمين ويبغضهم ويحسدهم ويتكبر عليهم ويغتابُهم ويسعى بالنميمة بينهم، كل هذا – ولا نهاية للكبائر – منشؤه حب الدنيا؛ والثالث رؤية ما سوى الله تبارك وتعالى، رؤية غير الله تحمل الإنسان على حب الرياسة وحب الرياسة هو الكعبة التي يطوف بها جميع الشرور. اتباع الهوى وحب الدنيا ورؤية غير الله، هذه الثلاثة منشأ جملة الكبائر.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم إذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع القامة أحمر شعره جعد كأنما يقطر منه ماء كأنه خرج من حمام)[2] عيسى عليه الصلاة والسلام سينزل في آخر الزمان وليس في هذا تفضيله على الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما الولاية المحمدية بدئت بنبي وهو آدم وستختم بنبي وهو عيسى عليه الصلاة والسلام. نعم يوجد ختم عام وخاص بين

1– (حب الدنيا رأس كل خطيئة) للبيهقي في شعب الإيمان الجامع الصغير للسيوطي 3662.

2– عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس بيني وبينه نبي يعني عيسى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون) سنن أبي داود: كتاب الملاحم/ باب خروج الدجال (3766).

هذين الختمين، إذا توفي عيسى سوف يدفن عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وراء عمر[1] فيخرج أبو بكر وعمر يوم القيامة بين محمد رسول الله وعيسى رسول الله، بيد أن عيسى إذا نزل آخرا لا يأتي بصفته نبيا يأتي وليا واحدا من الأمة فقط يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم[2]، لا يأتي بصفته نبيا بل يأتي وليا ليس له استقلال. النبي مستقل والولي تابع، وهو إذا جاء آخر الزمان يكون وليا تابعا لا نبيا مستقلا، فيحشر أبو بكر وعمر بين نبيين، هذا من مزاياهما. «فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ» في التوراة «وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» بالرشا في الحكم «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» مؤلما ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ﴾ الثابتون ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المهاجرون والأنصار ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب، الرسوخ في العلم هو الذي ينفع ومن قرأ العلم و لم يجد فهما ولا نورا يقوده إلى الحق يكون كمثل حمار يحمل أسفارا، فعلماء التوراة كلهم قرأوا التوراة وما فيها، وعبد الله بن سلام قرأ

1- انظر ابن كثير ج585/1، وحاشية الصاوي على الجلالين ج332/1، وفي قصص الأنبياء لابن كثير ص580.

2- جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولَتُتركن القلاصُ فلا يُسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد) كتاب الإيمان/ باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد (221). وقال الخازن في تفسيره بعد ذكر الحديث: وفي هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل في آخر الزمان في هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل حاكما من حكام هذه الأمة وإماما من أئمتهم. الخازن ج420/1.

التوراة وفهم ورسخ فيه العلم، عندما قابل النبي صلى الله عليه وسلم نطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، قال ما هذا بوجه كذاب[1]، وقال: لما رأيته والله وجدتني أعرفه أشد من معرفتي لابني كما قال القرآن[2]، وهذا لِرسوخ علم عبد الله بن سلام، واليهود الذين قرأوا ولم يفهموا وجمدوا مع النصوص احتجبوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوه ما عرفوه بل كفروا به ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أمدح الذين يقيمون الصلاة، الصلاة أفضل مشروع، أفضل ما فرض الله على هذه الأمة وعلى الأمم قبلها، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من حافظ على الصلوات الخمس حيث كان وأينما كان تجاوز على الصراط كاللمح البارق ودخل الجنة مع السابقين[3] وله كل يوم ما دام محافظا عليها حارس من الله وله كل يوم أجر شهيد[4]، فلهذا مدح المقيمين الصلاة ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إذا ذكرت الصلاة وهي أكبر عبادات البدن قرنها

1- أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه وقيل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت في الناس لأنظر إليه فلما استثبت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) قال أبو عيسى هذا حديث صحيح، سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع/ (2409).

2- انظر تفسير الخازن ج2/9.

3 - أخرج أحمد في مسنده عن حنظلة الكاتب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من حافظ على الصلوات الخمس ركوعهن وسجودهن ووضوئهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة أو قال وجبت له الجنة) مسند أحمد: مسند الكوفيين/ حديث حنظلة الكاتب الأسيدي (17622).

4- روح البيان ج2/321.

غالبا بالزكاة لأنّها أكبر عبادات المال ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنة ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيئِينَ مِن بَعْدِهِ وَ﴾ كما ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ابنيه ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ أولاده ﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا﴾ أباه ﴿دَاوُدَ زَبُورًا﴾ اسم الكتاب المؤتى بمعنى مزبورا أي مكتوبا، نزل على داود مائة وخمسون سورة، وكان داود إذا قرأ الزبور اجتمعت الطيور وأظلته بأجنحتها وحشرت الوحوش حوله كلهم ينصتون لحسن صوته[1] حتى وقع منه ما وقع وهو تزويجه بزوجة أوريا و لم ينتظر الأمر من جبريل، تزوج قبل أن يأتيه الإذن من الحضرة فقط، هذا هو الصحيح في ذنب داود. قرأ و لم يحضر معه الطيور ولا الوحوش فشكا إلى الله فقال له تلك أنس العبادة وهذه وحشة المخالفة، فبكى وتاب إلى الله حتى غفر الله له ذلك كما سيأتي في سورة ص. وكان أبو موسى الأشعري حسن الصوت في قراءة القرآن فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم يوما: لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك يا أبا موسى[2]، قال: لو علمت أنك تسمع يا رسول الله لحبرته لك تحبيرا[3]. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ما سمعت بربطا[1]

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج133/2.

2- عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي موسى (لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (1322)

3- عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة مرا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته فقاما يستمعان لقراءته ثم إنهما مضيا فلما أصبح لقي أبا موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا موسى مررت بك البارحة ومعي عائشة وأنت تقرأ في بيتك فقمنا فاستمعنا فقال له أبو موسى أما إني يا رسول الله لو

ولا عودا ولا مزمارا أحسن من تلاوة أبي موسى الأشعري كأنما أعطي مزمارا من مزامير آل داود[2]. قال الصحابة كان أبو موسى يصلي بنا إماما في الصلاة ونتمنى أنه يقرأ سورة البقرة لحسن صوته في التلاوة وكان عمر إذا رآه يقول آت ذكرنا ربنا[3] فيتلو القرآن بتلاوة حسنة حتى ترق قلوبهم ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ ذكر في هذه الآية أن الله بعث رسلا قص قصصهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث رسلا لم يقصصهم عليه، قال جلال: روي أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس، قاله في سورة غافر، وقد تبرأ السيوطي من هذا القول لضعفه ووهنه، هذه رواية ضعيفة جدا فلهذا تبرأ المفسر من نسبتها إليه ونسبها لقائلها الذي هو جلال المحلي[4]. والمشهور أن الله بعث من الأنبياء "ألف كقد" مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا نصفهم من بني إسرائيل ونصفهم من سائر الناس، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر على اختلاف الروايات[5]، وقيل مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفا، كل هذا أقوال العلماء، وحيث

علمت لمكانك لحبرت لك القرآن تحبيرا. ابن أبي يعلى وابن عساكر في تاريخه. مسند أبي موسى من الجامع الكبير للسيوطي ج674/2.

1 – جاء في اللسان: البربط العود، أعجمي ليس من ملاهي العرب.. وفي حديث علي بن الحسين: لا قُدِّست إنه فيها البربط.

2 – روح البيان ج323/2.

3 – أخرج الدارمي في سننه: عن أبي سلمة أن أبا موسى كان يأتي عمر فيقول له عمر ذكرنا ربنا فيقرأ عنده. سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن/ باب التغني بالقرآن (3360).

4 – ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج134/2

5 – أخرج الحاكم في مستدركه: حدثني أبو أمامة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: «نعم معلم مكلم»، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشر قرون» قال: كم كان بين نوح

أن الله يقول «وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» لم نعرف أين يهتدي أحد لمعرفة عددهم، فيهم من قص الله وفيهم من لم يقص. والحق أن الله تبارك وتعالى تجلى بسائر أسمائه على الأنبياء كل اسم تجلى في نبي كما أن كل نبي تجلى في ولي، فعلى هذا عدد الأولياء وعدد الأنبياء لا يعرفهم إلا الله لأنّهم عدد الأسماء، وكثرة الأسماء تعريفه بأن كل ذرة في الوجود تجلى فيها اسم غير الذي تجلى في الأخرى، كما أن حضرة الذات لا نِهاية لها ولا يحيط بِها أحد وحضرة الصفات كذلك، فحضرة الأسماء كذلك، وإذا تجلت الأسماء في الأنبياء أو تجلت حضرة النبوءة في الأولياء بقي الأمر على ما هو عليه ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بلا واسطة. إن الله تبارك وتعالى كلم موسى عند جبل الطور في المناجاة بعدما ضرب حجابا من الظلمة وراء ستمائة فرسخ فتجلى بنوره فتنحى الشياطين والجن والوحوش وحتى الحشرات، فسمع موسى كلام الله تبارك وتعالى

وإبراهيم؟ قال: «عشر قرون»، قالوا: يا رسول الله كم كانت الرسل؟ قال: «ثلاثمائة وخمس عشرة جما غفيرا». هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. المستدرك: كتاب التفسير/ باب كانت الرسل ثلاثمائة وخمس عشرة (3089) ولأحمد من حديث أبي ذر: قال قلت يا رسول الله كم وفى عدة الأنبياء قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جما غفيرا) مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث أبي أمامة الباهلي (21257)

وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فاغتنمت خلوته، فقال لي: «يا أبا ذر إن للمسجد تحية» قلت: وما تحيته يا رسول الله؟ قال: «ركعتان»، فركعتهما ثم التفت إلي فقلت: يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال: «خير موضوع فمن شاء أقل ومن شاء أكثر» قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله»، ثم ذكر الحديث إلى أن قال: فقلت يا رسول الله كم النبيون؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي» قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر»، وذكر باقي الحديث. كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين/ ذكر حرف الأنبياء عليهم السلام (4216).

بلا حرف ولا صوت ولا كلمة، وهذا الكلام قال موسى إنه أشد عليه من الرعود تتوارد عليه وألذ من لذة الجماع بعشرة آلاف ضعف[1]، وهو يسمع بكليته، كل ذاته صارت سمعا، ويسمع الكلام من كل جهة ليس له جهة ولا حرف ولا لغة ولا صوت هذا كلام الله، قيل له: أين موسى؟ قال: لست موسى ولا أعرف موسى، وهذا عند الطور. إذا كانت هذه المناجاة مقاما رفيعا، فالمناجاة التي صاحبها تجاوز السماوات السبع والعرش والكرسي وتجاوز مقام "دنا فتدلى فكان قاب قوسين" إلى مقامِ "أدنى"، فذلك المقام أرفع من هذا المقام. ﴿رُسُلاً﴾ أرسلنا رسلا ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب من آمن ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب من كفر وأرسلناهم ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ تُقال ﴿بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أرسل الله الرسل قطعا للمعذرة، سماه الله حجة تكرما وليس لعبد أن يجد حجة يحتج بِها على الله، ولكن لما قطع عذرهم حيث أنّهم لو لم يأتِهم الرسل "لقالوا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين" بعث الله هذه الرسل لقطع ذلك العذر وهو الذي سماه لئلا يكون للناس على الله حجة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ في ملكه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه، الله تبارك وتعالى خلق الإنسان وجعله على هذه الصورة، إن الله خلق آدم على صورته[2] ميزه عن سائر الأشياء بأن له عقلا وله بصرا نافذا ليس بصره كبصر

1– جاء في جواهر المعاني ج149/2: قيل للكليم عليه السلام في أي حالة كنت في وقت المكالمة فقال أما في الهيبة فتصور مواقعة الصواعق تنصب حولك متصلة فلا يوصف خوف صاحبه في هذا الحال، وأما في اللذة فلا يوصف، وقد قيل لذة الجماع في ذلك الحال ليست بشيء في ذلك الأمر، فاللذة غايتها والهيبة غايتها.

2– عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على

الحيوانات، أنت تبصر والحيوان يبصر ولكن أنت تبصر وتميز ما تبصر: هذا إنسان، هذا حجر، هذا شيء أخافه، هذا شيء أحبه، هذا شيء أعرفه، هذا شيء لا أعرفه، هذا أبيض هذا أسود، وله سمع كذلك نافذ يسمع: هذه اللغة لغة أعرفها، ولغة لا أعرفها، هذا كلام يتوجه إلي، هذا كلام تحبه، كلام لا تحبه، كلام يحتاج لجواب، لا يحتاج لجواب؛ وقلب يميز كل شيء، وعقل يدرك كل شيء؛ فلما كان الإنسان بهذه الصورة كان من حقه أن يعرف الله تبارك وتعالى بدون واسطة الرسل، لأن الإنسان يعلم بعقله أن كل صنعة لا بد لها من صانع، الصنعة لا تقوم إلا بصانع، إذا رأى بناء يعلم أن هناك بانيا، حتى الحمار الذي لا عقل عنده إذا أتته ضربة فر من جهة الضربة يعلم أن هناك ضاربا. الله لما عرَّفنا بنفسه أول ما قال كما في سورة النحل "خلق السماوات والأرض"، "خلق الإنسان من نطفة"، من نظر في السماء والأرض ونظر في الإنسان يعلم أن هذه الصنعة لابد لها من صانع، إذاً كان عقلنا يوصلنا إلى معرفة أن هناك إلها، ولكن معرفة ذلك الإله بصفاته وأسمائه وأفعاله، ومعرفة أمره ونَهيه وعذابه ونعيمه ورضاه من غضبه، هذا لو لم يأت الأنبياء لا يهتدي إليه أحد، لا يمكن أن العقل يدرك شريعة بلا نبي، فلهذا لو لم يأت الأنبياء والرسل ما يمكننا أن نعبد الله تبارك وتعالى، وإن كان يمكننا أن نعرف وجود الله تبارك وتعالى فأرسل الرسل قطعا لحجة أي محتج بالجهل، الآن إذا وقع إنسان في كفر أو ضلالة ووقف بين يدي الله تبارك وتعالى إن ادعى جهلا قال

صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن) صحيح البخاري: كتاب الاستئذان/ باب بدء السلام (6227)، وفي صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (5075).

الله أرسلت الرسل، وبعد الرسل بقي العلماء والعلماء ورثة الأنبياء[1]، فقطع بذلك عذرهم.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ نزل لما سئل اليهود عن نبوته صلى الله عليه وسلم فأنكروه، جاء الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم قالوا: من يشهد لك على نبوتك وعلماء الكتابين كلهم أنكروا نبوتك أين الشاهد؟ قال الله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ إن أبوا أن يؤدوا الشهادة فالله يبين نبوتك ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ عالما به، الله تبارك وتعالى كل نبي بعثه يقرن بعثته بإعطاء معجزة، تلك المعجزة تقوم مقام أن الله قام وشهد لهذا النبي بالصدق، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطي من المعجزات ما لم يعط نبي قبله، تلك المعجزات هي شهادة الله للرسول صلى الله عليه وسلم، فلهذا لا يتأتى من عاقل أن يكفر بمحمد ويؤمن بنبي لأن الأنبياء كلهم حجتهم إنما هي المعجزات وهو أتى بالمعجزات، فكيف يكفر بمحمد من أراد أن يصدق بنبي غيره؟ وإذا اعتقد إنسان أن محمدا ليس بنبي علم كل من شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتأثيره في العالم أنه أفضل من الأنبياء، ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لك، كل الملائكة يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا

1- عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) سنن الترمذي: كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (2606)، وفي سنن أبي داود: كتاب العلم/ باب الحث على طلب العلم (3157).

رسول الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[1] أنت غني عن شهادة الملائكة لأن الله كافيك وحسبك "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم" "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون" أول من شهد بوحدانية الله هو الله تبارك وتعالى، وأول من آمن بالرسول هو الرسول صلى الله عليه وسلم وأولوا العلم بعده. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال، قال: العلم، قالوا: نسأل عن العمل وتجيب عن العلم؟ قال: إن العلم ينفع معه قليل العمل، والجهل لا ينفع معه كثير العمل[2].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَصَدُّواْ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الإسلام بكتمهم نعت محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ عن الحق ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَظَلَمُواْ﴾ نبيه بكتمان نعته ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ من الطرق ﴿إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ الطريق المؤدي إليها ﴿خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا﴾ إذا دخلوها ﴿أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هينا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ﴾ به واقصدوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ آمنوا بالرسول واقصدوا خيرا، أو آمنوا بالرسول يكن خيرا لكم مما أنتم فيه ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ به ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا فلا يضره كفركم

1- جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فقال لهم: إني لأعلم والله أنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل "لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه" الآية. ج590/1.

2 - (أفضل الأعمال العلم بالله، إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره، وإن الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره). الجامع الصغير ج1/ رقم الحديث 1240.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أهل الإنجيل ﴿لاَ تَغْلُواْ﴾ لا تتجاوزوا الحد ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ لا ترتكبوا غلوا في دينكم ﴿وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ إلا القول الحق من تنزيهه عن الشريك والولد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا﴾ أوصلها ﴿إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ﴾ ذو روح ﴿مِنْهُ﴾ من الله تبارك وتعالى. عيسى عليه الصلاة والسلام ابنٌ لمريم حملته ووضعته كسائر النساء وأرضعته، رسول الله أرسله الله رسولا كسائر الأنبياء والرسل، وكلمة الله لأنه صدر من كلمة فقط بلا أب، وروح ذو روح منه، هذه إضافة تشريف ليس كما زعموا أنه ‹‹*لما كان روحا من الله اقتضى ذلك أن يكون جزء من الله فهو ابنه*››. كان عند الرشيد غلام نصراني كان طبيبا له وبارعا في العلم والصناعة فأحبه الرشيد كثيرا ودعاه إلى الإسلام وامتنع، وكلما دعاه إلى الإسلام امتنع، ويوما من الأيام قال له الرشيد: ألا إني أود أنك تكون مسلما فلو كنت مسلما لفعلت لك كذا وكذا وكذا، قال له: تمنعني من الإسلام آية في كتابكم تؤيد ما ذهبت إليه، قال له الرشيد وما هي؟ قال: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ» ‹ *القرآن يقول إن عيسى روح من الله، وهذا يقتضي أنه جزء من الله ولا يصح ذلك إلا إذا كان ولدا له*›، فتحير الرشيد وجمع العلماء فسألهم، قالوا له: قدم هنا حُجّاج من خراسان وفيهم عالم بتفسير القرآن لا بد أن يكون عنده جواب سؤالك، فأرسلوا إلى الحسين بن علي المروزي فأتى، قال لهم: ما هذه الشبهة التي ألقى علي عدو الله؟ تفكر، قال: سبق في الأزل أن هذا السؤال يقع لي في مجلسك وليس عندي جوابه الآن، ولكن علي أن لا آكل ولا أشرب حتى أؤدي الحق الذي هو الجواب عن هذه الشبهة، افتحوا لي بيتا، ففتحوا له بيتا فأغلق البيت عليه وقرأ القرآن من أوله،

صار يتلو القرآن بتدبر حتى وصل إلى سورة الجاثية "هو الذي سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه" فقال: افتحوا عني افتحوا عني فقد وجدت جوابا ففتحوا فأخبر الغلام وقال له: إن كان "وروح منه" يقتضي أن عيسى جزء من الله فكل ما في السماوات وما في الأرض جميعا جزء من الله لأنه قال "وروح منه" وقال "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه" فأسلم النصراني وفرح الرشيد فرحا عظيما وأجازه بمال كثير[1]. هذا الروح هو الذي به ضل النصارى فسماهم الله الضالين، ضلوا عن معرفة الحق، أما اليهود فقد عرفوا الحق ولم يعملوا به فغضب الله عليهم، والنصارى ضلوا عن الصراط المستقيم. روح الله حقيقة هو محمد صلى الله عليه وسلم من روحه نفخ في آدم، ومن روحه نفخ في عيسى، ومن روحه نفخ في ماء مهين فصار إنسانا، ومن روحه نفخ في جبريل، ومن روحه القرآن هذا الذي نتلوه ويهدينا إلى صراط مستقيم ﴿فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ﴾ الآلهة ﴿ثَلاَثَةٌ﴾ لا تقولوا إن الآلهة ثلاثة، هم ضلوا بعد عيسى وافترقوا على أربع فرق: فرقة قالوا إن عيسى عبد الله ورسوله هم الذين بقوا على دين عيسى، وفرقة ادعوا أن عيسى ولد لله، وفرقة ادعوا أن عيسى هو الله، وفرقة ادعوا أن الآلهة ثلاثة: عيسى وأمه والله. وثالث ثلاثة نهى الله عنه كما سيأتي "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة" ومن تشبه بقوم فهو منهم، حيث أن ثالث ثلاثة كفر. الله تبارك وتعالى ذكر في القرآن "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم" ولكن لم يقل هو ثالثهم، ابتدأ الكلام "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم" حذرا من أن

1- انظر تفسير روح البيان ج328/2، والقرطبي ج23/6، وحاشية النسفي على الخازن ج426/1.

يقول هو ثالثهم، واثنين كل اثنين الله ثالثهم ولكن لما كان ثالث ثلاثة عقيدة كفر تجنب القرآن هذه العبارة فقال: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم" لهذا الإنسان يفر من التشبه بِهم، (من تشبه بقوم فهو منهم)[1] ﴿انتَهُواْ﴾ عن ذلك وآتوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ منه وهو التوحيد، اتركوا هذه العقيدة واتوا بالتوحيد، في التوراة عبارات هي التي أضلت النصارى وعقولهم قاصرة. القرآن فيه آيات محكمات ومتشابِهات ولكن هذه الأمة عقولهم وافرة، إدراكهم تام، شرف الله محمدا تشريفا أعظم من تشريف عيسى كلهم نشأ ضعيفا عاداه قومه وحاربوه وبقي عيسى ضعيفا حتى تغلب عليه أعداؤه وادعوا أنّهم قتلوه وصلبوه، ومحمد نشأ ضعيفا فنصره الله حتى غلب الجماهير وانتصر عليهم فصاروا كلهم عيالا له، لو كان عقول هذه الأمة كعقول النصارى لضللنا بمحمد وجعلناه غير عبد، فوق العباد، ولكن كلنا يعلم أنه مع كرامته وشرفه ورفعة قدره فهو عبد لله فقط، وهؤلاء ضلوا فجعلوا نبيهم إلها أو ابنا لله والأب في عبارة الإنجيل السيد، كلما جاءت كلمة الأب في الإنجيل فتعني السيد، جعلوه على ظاهره فقط. وفي التوراة جاء الله إلى الزيتون وسار إلى طور سيناء وسكن فاران بعد ذلك، الزيتون الجبل الذي كان يعيش عليه عيسى في زمانه، فهو خليفة الله فقال إن الله جاء الزيتون وهو يعني خليفة الله الذي هو عيسى، ثم سار إلى طور، جاء من طور سيناء، طور سيناء كان فيه موسى خليفة لله فانتقلت الخلافة إلى الزيتون الذي هو عيسى ثم انتقل إلى فاران وسكنها، فاران

1- عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تشبه بقوم فهو منهم) سنن أبي داود: كتاب اللباس/ باب في لبس الشهرة (3512).

اسم مكة[1]، هذا يشير إلى ثلاثة خلفاء عن الله تبارك وتعالى: موسى وعيسى ومحمد. وإليه يشير "والزيتون وطور سينين وهذا البلد" كلهم محل واحدٍ من هؤلاء الخلفاء ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لا يليق به الولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا والملكية تنافي البنوة ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ شهيدا على ذلك. فقدان الولد نقص بالنسبة إلى الإنسان والولد نقص بالنسبة إلى الحق تبارك وتعالى لأن الإنسان يحب أن يكون له ولد يكون عونا له فيما يقوم به من أعمال، ووارثا له بعد موته والله غني بذاته لا يحب عونا، وباق إلى الأبد لا يموت فيورث، ما حاجته في الولد؟ فلهذا احتج عليهم بقوله "سبحانه هو الغني" هو الغني ما له وللولد؟ نحن نحب الأولاد لفقرنا واحتياجنا، وهو غني ما له وللولد؟ فلهذا فقْدُ الولد نقصٌ في حقنا والولد نقص في حقه وشتْم. (كذبني ابن آدم وشتمني، أما شتمه فقوله اتخذ الله ولدا)[2] ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ﴾ يتكبر ويأنف ﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ لما قال نصارى نجران إن النبي صلى الله عليه وسلم سب عيسى لأنه قال إنه عبد فقط وعيسى فوق ذلك،

---

1 – جاء في معجم البلدان: فاران: بعد الألف راء، وآخره نون، كلمة عبرانية معربة: وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة، قيل: هو اسم لجبال مكة، وفي التوراة: جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من فاران؛ بمجيئه من سيناء تكليمه لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير وهي جبال فلسطين هو إنزاله الإنجيل على عيسى عليه السلام، واستعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: وفاران جبال مكة. معجم البلدان/ مادة فاران.

2– عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤا أحد) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب يقال لا ينون أحد أي واحد (4974)

قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: عيسى لن يستنكف أن يكون عبدا لله[1] ﴿وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ حتى الملائكة عند الله لم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله. صحيح أن عيسى روح تلابس بالجسم وغلبت روحانيته على جسمانيته، ولكن لما كان الملائكة الذين هم روحانيون صرفا ما لابسوا جسما لم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا فمن باب أولى عيسى الذي له على كل حال جسم كأجسام البشر ﴿وَمَنْ يَّسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ من تكبر أن يكون عبدا لله سيأتي يوم القيامة عبدا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، اقرأوا إن شئتم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء"[2] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن عبادته ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلما هو عذاب النار ﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يدفعه عنهم ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يمنعهم منه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أمة محمد ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾ حجة ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، كل رسول يأتي معه برهان، ونحن جاءنا رسول هو نفسه برهان من ربنا تبارك وتعالى، حيث كان موسى برهانه في عصاه "فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين" وعيسى نزلت مائدة من السماء، وصالح أخرج ناقة من الجبل، كلهم له برهان في غير ذاته، فالرسول صلى

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج1/261.

2- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرءوا إن شئتم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين". متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (3244)، صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ (5050).

الله عليه وسلم هو نفسه برهان من الله تبارك وتعالى، وكل جزء من أجزائه برهان من الله تبارك وتعالى، فبرهان عينيه كان يقول: (أقيموا الصفوف فإني أراكم من ورائي كما أنظركم أمامي)[1]، وبرهان بصره: "ما زاغ البصر وما طغى" وبرهان أنفه قال: (إني أجد نفَس الرحمن قِبل اليمن)[2] أي شم رائحة الله تبارك وتعالى قبل اليمن، فبعد وفاته في خلافة عمر خرج أويس القرني[3] خليفة الله في اليمن هو الذي كان يشم الرسول صلى الله عليه وسلم رائحته في حياته، هذا برهان أنفه. وبرهان يديه: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" وبرهان قلبه: "ما كذب الفؤاد ما رأى" وبرهان صدره: (كان

1- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (أتموا الركوع والسجود فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الأيمان والنذور/ باب كيف كانت يمين النبي (6644)، وفي صحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (645).

2- عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (ألا إن الإيمان يمان والحكمة يمانية وأجد نفس ربكم من قبل اليمن) مسند أحمد: من مسند المكثرين/ (10555).

3- جاء في صحيح مسلم: عن أسير بن جابر قال كان عمر بن الخطاب إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال نعم، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل) فاستغفر لي فاستغفر له...الحديث. صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ من فضائل أويس القرني (4613).

يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تبارك وتعالى)[1] وبرهان لسانه: "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"، فلما تجمعت هذه الأعضاء كلا صارت نفسه كلا برهانا خرج من الأرض وتجاوز السماوات السبع والعرش والكرسي حتى وصل إلى مقام "دنا فتدلى" فتجاوزه إلى مقام "قاب قوسين" فتجاوزه إلى مقام "أدنى"[2] فلهذا قال الله تبارك وتعالى "قد جاءكم برهان من ربكم" محمد نفسه برهان وكل جزء من أجزائه برهان حيث أن الأنبياء قبله كلهم له برهان في غيره. "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم سماه نورا، أو القرآن سماه نورا لأنه يبين الحق من الباطل ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ طريقا مستقيما هو دين الإسلام ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ في الكلالة ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ﴾ سألوه ﴿إِنِ امْرُؤٌا﴾ إن ﴿هَلَكَ﴾ امرؤ، مات ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولا والد وهو الكلالة ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ من أبويه أو أب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ترث من أخيها النصف ﴿وَهُوَ﴾ الأخ ﴿يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فإن كان لها ولد ذكر فلا شيء له أو أنثى فله ما فضل عن نصيبها، ولو كانت الأخت أو الأخ من أمٍّ وفرضه السدس كما تقدم أول السورة ﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الأختان ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ فصاعدا لأنّها نزلت في جابر وقد

1– عن مطرف عن أبيه قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعني يبكي. سنن النسائي: كتاب السهو/ باب البكاء في الصلاة (1199) وفي رواية أحمد عن مطرف بن عبد الله عن أبيه (... وفي صدره أزيز) مسند أحمد: مسند المدنيين/ باب حديث مطرف بن عبد الله (15722)

2– روح البيان ج121/5.

مات عن أخوات[1] ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ﴾ الورثة ﴿إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ﴾ شرائع دينكم ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أن لا تضلوا ﴿وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه الميراث، نزلت في جابر[2] مات ليس له ولد

1– قاله جلال الدين السيوطي في تفسير الآية. حاشية الصاوي على الجلالين ج263/1.

2 – جاء في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال عادني النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في بني سلمة ماشيين فوجدني النبي صلى الله عليه وسلم لا أعقل شيئا فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش علي فأفقت فقلت ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله فنزلت "يوصيكم الله في أولادكم" كتاب تفسير القرآن/ باب قوله يوصيكم الله في أولادكم (4577). وأخرجه مسلم من رواية حجاج بن محمد عن ابن جريج، كتاب الفرائض/ باب ميراث الكلالة (3032). قال في العجاب في بيان الأسباب ج842/2 وقد اختلف الرواة عن ابن المنكدر فالأكثر أبهموا الآية وكشفها ابن جريج وابن عيينة فممن أبهمها سفيان الثوري ولفظه نزلت آية الميراث وكذا قال شعبة وقال مرة آية الفرض، فأما ابن عيينة فقال حتى نزلت يستفتونك الآية.

وقد روى أبو داود وأحمد من طريق أبي الزبير عن جابر قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفخ في وجهي فأفقت فقلت يا رسول الله: ألا أوصي لأخواتي بالثلث، قال: أحسنْ، قلت: الشطر؟ قال: أحسن، ثم خرج وتركني فقال يا جابر لا أراك ميتا من وجعك هذا وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك فجعل لهن الثلثين، قال فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فِيَّ "يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة" سنن أبي داود: كتاب الفرائض/ باب من كان ليس له ولد وله أخوات (2501)، وفي مسند أحمد: من مسند جابر بن عبد الله (14468).

وذكر لقوله "يوصيكم الله في أولادكم" سبب نزول آخر غير الذي تقدم في جابر: روى الترمذي واللفظ له وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا تنكحان إلا ولهما مال قال يقضي الله في ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال أعط ابنتي سعد الثلثين وأعط أمهما الثمن وما بقي فهو لك. وعند أبي داود فنزلت سورة النساء "يوصيكم الله في أولادكم". سنن الترمذي: كتاب

ولا والد. قال سعد بن أبي وقاص يا رسول الله أنا أترك أموالا كثيرة وليس عندي ولد أفأتصدق بها؟ قال:لا، قال: أأتصدق بالنصف؟ قال: لا النصف كثير، قال: بالثلث؟ قال: نعم والثلث كثير، لأن تدع ورثتك أغنياء أفضل لك من أن تتركهم عالة يتكففون الناس[1]. فنزلت هذه الآية في حق جابر. والله بين أحكام الميراث وتولى قسم التركات بنفسه، فإن الله لم يوكل رسولا ولا نبيا مقربا في قسم التركات. أوجب علينا الصلاة والصيام والزكاة والحج ووكل الرسول صلى الله عليه وسلم بتبيين هذه الأشياء لنا، هو الذي بين لنا كيفية الصلاة أنّها خمس صلوات، هذه أربع ركعات، هذه ثلاث ركعات، هذه ركعتان، وبين لنا الزكاة، وبين لنا الصيام، وبين لنا الحج، بل وكله صلى الله عليه وسلم بتبيين القرآن كله، "لتبين للناس ما نزل إليهم" هو الذي فصل لنا القرآن كلا. أما التركات فتولى الله تبارك وتعالى تقسيمها، لأن الناس جبلوا على حب الدنيا والحرص على المال، والميراث حيث أنه يعطي أناسا ويحرم أناسا آخرين، فلو تولى الرسول بنفسه هذا لكان في قلوب بعضهم شيء من جانبه صلى الله عليه وسلم وهو من أبغضه شقي

الفرائض/ باب ما جاء في ميراث البنات (2018) وقال السيوطي في لباب النقول في أسباب النزول إن الآية نزلت في الأمرين معا.

1- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها قال: يرحم الله ابن عفراء، قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: لا قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون ولم يكن له يومئذ إلا ابنة. صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (2742) صحيح مسلم: كتاب الوصية/ باب الوصية بالثلث (3076).

شقاوة لا سعادة بعدها أبدا. فتولى الله قسم التركات ولم يوكل أحدا، وعِلْم الفرائض وصف بأنه نصف العلم[1] وهي نبذة قليلة الإنسان يستكملها في مدة قصيرة. كيف يكون نصف العلم والعلم متكاثر لا نِهاية له؟ ذلك أن الإنسان له حالتان فقط حياة أو موت، ما دام حيا فجميع الأحكام تجري عليه، وإذا مات لم يبق له إلا الفرائض، إلا علم الميراث فقط، فلهذا جاء نصف العلم.

1- عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم وهو ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتي) سنن ابن ماجه: كتاب الفرائض/ باب الحث على تعليم الفرائض (2710)

سورة المائدة

مدنية مائة واثنتان وعشرون آية آخر سورة نزلت.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ العهود المؤكدة التي بينكم وبين الله، والتي بينكم وبين الناس ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ البهائم كلا حلال، الإبل والبقر والغنم أكلا بعد الذبح ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه في "حرمت عليكم الميتة.." الآية. الاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ لا تحللوا الصيد ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ما دمتم حرما محرمين بالحج أو العمرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من التحليل وغيره لا اعتراض عليه. كان النقّاش رجلا بليغا فصيحا في العربية فدعي يوما فقيل له: تقدر أن تصنع لنا سطرين فقط مثل القرآن؟ قال: سطرين فقط نعم، لأن الله تحدى بثلاث آيات، أما سطران فأقدر فأغلقوا عليه بيتا ومكث ثلاثة أيام وخرج، قال: لا أقدر ولا أحد يقدر. فتحتُ المصحف عندما دخلت البيت فخرج علي أول سورة المائدة «يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بَهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد» سطران أحل فيهما جميع ما أحل إحلالا مطلقا وحرم جميع ما حرم تحريما مطلقا واستثنى مرتين، وأمر ونَهى ومدح نفسه في سطر واحد[1] «إن الله يحكم ما يريد» ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ جاء رجل يطير منه الشرر جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فلما أراد أن يدخل قال الرسول صلى الله عليه وسلم: يدخل عليكم رجل لسانه لسان منافق وقلبه

1- ذكره القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج31/6.

قلب شيطان فدخل وادعى أنه يريد الإسلام فلقنه الشهادتين وخرج فوجد إبل الصحابة خارج المدينة فسرقها كلا وساقها وفر إلى أهله، ففتشوا فما وجدوا له خبرا، وفي العام القابل خرج الصحابة إلى الحج، فلما دخلوا الحرم رأوه يسوق القلائد، قالوا هذا فلان سائق إبلنا لابد أن نقتله وهم في الحرم، فنزلت[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي معالم دينه بالصيد أو التعرض للظالم في الحرم ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه ﴿وَلاَ الْهَدْيَ﴾ أحد ساق هديه ﴿وَلاَ الْقَلاَئِدَ﴾ وقلدهم فلا تتعرضوا له ﴿وَلاَ﴾ تحلوا ﴿ءامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ القاصدين البيت الحرام للحج لا تقاتلوهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً﴾ رزقا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ بالتجارة ﴿وَرِضْوَانًا﴾ منه بقصده بزعمهم الفاسد ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَاصْطَادُواْ﴾ أمر إباحة ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يكسبنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي بغض قوم ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ حتى كفار قريش الذين منعوكم عن البيت الحرام لا تعتدوا عليهم بالقتل فيه ولاسيما غيرهم ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ﴾ فعل ما أمرتم به ﴿وَالتَّقْوَى﴾ بترك ما نُهيتم عنه ﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ﴾ فيه ﴿عَلَى الْإِثْمِ﴾ المعاصي ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ التعدي في حدود الله ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ خافوا عقابه بأن تطيعوه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ المحرمات من الطعام هذه: أكل الميتة حرام، ما مات بنفسه ﴿وَالدَّمُ﴾ المسفوح، الدم الذي يخرج حالة الذبح ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ حرام، ذبح أو لم يذبح ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ بأن ذبح على اسم غيره. الذبح باسم الله فقط، لا يجزئ باسم غير الله حتى ذِكر الرسول محمد عند الذبح حرام ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ الميتة خنقا، فإذا اختنقت بقرة أو شاة

1- تفسير القاسمي ج6/ 1796، القرطبي ج6/43.

فماتت فهي ميتة ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المقتولة ضربا إذا ضربت بعصا فسقطت ميتة فلا تؤكل ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الساقطة من علو إلى سفل فماتت ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ المقتولة بنطح أخرى لها ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ منه ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتم، هذه الأشياء إذا ماتت أو وصلت إلى حالة لابد أن تموت ذبحت أو لم تذبح فهي ميْتة، وما أدركتم فيه الروح فذبحتموه وتحرك بعد الذبح وسال منه الدم فحلال ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ على اسم الصنم ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ﴾ تطلبوا القسمة والحكم ﴿بِالْأَزْلاَمِ﴾ الأقداح التي كان الكفار يأخذون منها علم الغيب. كان لهم سبعة أقداح عند سادن الكعبة واحد: أمرني ربي، وواحد: نَهاني ربي، واحد: منكم، واحد: من غيركم، واحد: عقل أو دية، واحد: مهمل[1]. إذا أراد إنسان أن يفعل أي أمر يأتي إلى الصنم ويأتي سادن الكعبة بشيء من الماء فيحرك الأقداح ويضع، إذا ظهر له القدح الذي مكتوب عليه "أمرني ربي" خرج إلى ما يريد وقال إن الصنم أمره بذلك، وجد الإذن من ربه، وإذا خرج "نَهاني ربي" ترك وقال نَهاه ربه، وإذا اختلفوا في نسب ولد ولد وتنازعوا في أبيه جاءوا إلى القدح، إن خرج "منكم" ألحقوه بالنسب، وإن خرج "من غيركم" نفوه، وإذا قتل قتيل إن خرج "عقل" أوجبوا فيه الدية، وإن خرج "مهمل" أهملوه أن لا دية فيه، هذه هي الأزلام التي كانوا يستقسمون بِها قبل الإسلام. ودخل فيه كل تطلع للغيب على طريق غير شرعي، دخل فيه من يأتي العراف والكهنة والاستخارات النومية والجداول كل هذا داخل في هذا القسم. أما الاستخارة النبوية أن تصلي ركعتين لله

1- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج2/149.

وتدعو أن يختار الله لك ما هو خير لك فما وقع بعد ذلك فهو خير[1]، ذلك هو الموافق للشرع. أما التطلع إلى الغيب فذلك مخالف للشرع ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ خروج عن الطاعة. ونزل بعرفة عام حجة الوداع ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وجاء العام التاسع أمَّر أبا بكر على الحجاج وهو ما حج بنفسه صلى الله عليه وسلم، فلما خرج أبو بكر أردفه بعلي يركب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاء قال له أبو بكر: أنا مبعوث وأنت أمير أم لا؟ قال: لا، أنت أمير وأنا مبعوث معك بآيات براءة ثلاثين آية من أول سورة التوبة[2]، نقض فيها القرآن العهود التي كانت بين المسلمين والكافرين في بداية الإسلام، وحرم أن يطوف مشرك بالبيت بعد ذلك العام، منعوا من الحج، كان العرب مع كفرهم يحجون كل عام وفي ذلك العام منعوا أن يحج البيت مشرك بعد العام، وفي العام العاشر خرج صلى الله عليه وسلم بنفسه وحج حجة الوداع، لما أحرم من ذي الحليفة أحرم معه سبعون ألف نفر[3]. لما قال لبيك اللهم لبيك وقاله الجماعة، وصلت أصوات الحجيج إلى السماء، ولما دخلوا مكة

1- عن جابر رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن إذا هم بالأمر فليركع ركعتين ثم يقول اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاقدره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته. صحيح البخاري: كتاب الدعوات/ باب الدعاء عند الاستخارة (6382).

2- راجع تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ج67/8.

3- ذكره في نور الأبصار ص45 ضمن أقوال.

ورأى المسلمون جمع الحجاج نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ الكفار ما يئسوا من ردة المسلمين إلا يوم حجة الوداع لما رأوا من قوته صلى الله عليه وسلم ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ لا تخشوا الكفار، لا تخافوا إلا الله تبارك وتعالى، فلما وقف بعرفات نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أحكامه وفرائضه لم ينزل بعد هذه الآية فريضة لا حلال ولا حرام[1] ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بإكماله وقيل بدخول مكة ﴿وَرَضِيتُ﴾ اخترت ﴿لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِينًا﴾ قال يهودي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: آية في كتابكم لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا يوم نزولها عيدا، قال عمر: وأية آية؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» قال عمر: عرفنا يوم نزولها والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات يوم الجمعة[2]، أجابه عمر بأن المسلمين اتخذوا يوم نزولها عيدين: يوم الجمعة يوم عيد وعرفة يوم عيد. وفي ذلك اليوم اجتمعت أعياد الملل كلا، يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم عيد النصارى ويوم عيد اليهود ويوم عيد المجوس كلهم وافقوا ذلك اليوم، وما توافقت أعياد الملل في يوم واحد قبله ولا بعده. لما نزلت هذه الآية بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولِمَ؟ قال لأننا كنا في زيادة دائما واليوم لما

1- نقله ابن كثير في تفسيره عن السدي. ج13/2.

2- عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: أي آية؟ قال: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا" قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة. متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب زيادة الإيمان ونقصانه (45)، وفي صحيح مسلم: كتاب التفسير/ (5334).

أكمل لنا ديننا علمنا أن الزيادة انتهت، وشيء لا يزداد لابد أن ينتقص[1]، فكان عمر أفهم الصحابة، فكانت هذه الآية تنبئ بقرب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد اثنين أو ثلاثة وثمانين يوما توفي صلى الله عليه وسلم. «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفات إن عبدا خيره الله فيما عنده وفي البقاء في الدنيا أي مدة شاء فاختار ما عند الله[2]. فبكى أبو بكر فقال الناس انظروا هذا الشيخ يذكر الرسول صلى الله عليه وسلم عبدا خيره الله فاختار شيئا عنده، ما لأبي بكر وللبكاء في هذا؟ وأبو بكر كان يفهم أن العبد المخير هو الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم أنه إن خيره الله بين ما عنده وبين الدنيا لا يختار الدنيا أبدا، فكان هذا نعيا للرسول صلى الله عليه وسلم. في وقفته صلى الله عليه وسلم تلك قال: خذوا

1- ابن كثير ج14/2. القرطبي ج61/6.

2- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال (إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده) فبكى أبو بكر وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير وكان أبو بكر هو أعلمنا به وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أمنِّ الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الإسلام لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر. صحيح البخاري: كتاب المناقب/ باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة (3904)، صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي بكر الصديق (4390)

عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد هذا العام[1]، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم. وفي ذلك الموقف قال: ألا لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، أي يوم هذا، أي بلد هذا، أي شهر هذا؟ سأل حتى ظننا أنه سيغير الاسم، قال: أي بلد هذا أي بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أليس البلدة؟ قالوا: نعم. قال: أي يوم هذا أي يوم هذا أي يوم هذا؟ أليس يوم العيد؟ قالوا: بلى. قال: أي شهر هذا؟ أليس ذا الحجة؟ قالوا: بلى. قال: إن الله حرم عليكم دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت. قال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ويشير بسبابته إلى السماء ألا هل بلغت؟ يقولون: قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة. يقول: اللهم اشهد[2].

في تلك الوقفة أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة حتى آخر مولود يولد فتقوم الساعة ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم. كان الصحابة يقولون: كنا إذا تجدد شيء نعرفه من مقالة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تنسى شخصا غاب عنك فإذا حضر عندك تتذكره، كلما جاء شيء

1- عن جابر: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يرمي على راحلته يوم النحر ويقول (لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه). صحيح مسلم: كتاب الحج/ باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا (2286).

2- الحديث متفق عليه في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه، صحيح البخاري: كتاب الحج/ باب الخطبة أيام منى (1741)، صحيح مسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات/ باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (3180)

نتذكره فقط مما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم[1] ﴿فَمَنُ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة إلى أكل شيء مما حرم عليه فأكله ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ مائل ﴿لِإِثْمٍ﴾ معصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ له ما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ به في إباحته ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الطعام ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المستلذات كلا حلال ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ وصيد ما علمتم ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ الكواسب من الكلاب والسباع والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي مرسلين على الصيد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ أي تؤدبونهن ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من آداب الصيد ﴿فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وإن قتلنه، يحل أكل الصيد إذا كان الكلب معلما ومرسلا باسم الله وقتل و لم يأكل ﴿وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند إرساله ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المستلذات من الأطعمة ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ أي ذبائح اليهود والنصارى ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ حلال. الطعام هنا المقصود منه الذبح فقط لأن ما سوى الذبح في الأطعمة لا إشكال فيه، إذا ذبح يهودي أو نصراني حيوانا فأكلُ لحمه حلال على كل مسلم ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ طعام المسلمين أيضا حل لأهل الكتاب ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الحرائر من المؤمنات تزويجهن حلال ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائر ﴿مِنَ الذينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ حرائر اليهود وحرائر النصارى جائز تزويجهن، حل لكم أن تنكحوهن ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

1- أخرجاه في الصحيحين عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه. صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب إخبار النبي بما يكون إلى قيام الساعة (5147)، وفي صحيح البخاري: كتاب القدر/ باب وكان أمر الله قدرا مقدورا (6604).

أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ معلنين بالزنا بِهن. الزنا سمي بالسفاح. السفاح الصب، لأن الناكح له مقصد محمود هو طلب الولد وامتثال أمر الله تبارك وتعالى، والزاني ليس له مقصد إلا صب المني فقط فلهذا سمي سفاحا ومسافحا. أحل الله تبارك وتعالى في هذه الآية تزويج المؤمنين على بعضهم لأنّهم على دين صحيح وتزويج اليهود والنصارى لأنّهم أهل كتاب، وإن حرفوا وبدلوا وحادوا عن الصراط فدينهم سماوي. أما المشركات اللاتي لم يتدينّ بدين سماوي فلا حق لهن في النكاح من المسلمين. تزويج المشركات والمجوس حرام، والفرق بينهم وبين هؤلاء أن أولائك وإن كانوا كفارا فهم على تربية سماوية، وهؤلاء لم يسبق لهم تربية سماوية ولا ينبغي لمسلم أن يتزوج منهم ﴿وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ منهن تسرون بالزنا بِهن. كان التزويج في الجاهلية على أربعة أوجه: النكاح المتعارف اليوم، أن يأتي الرجل إلى ولي المرأة ويسوق مهرا ويعقد له عليها، وكانت المرأة يأتيها رجل وينكحها ويأتي آخر وينكحها، فإذا ولدت ولدا جمعوا القافة ينظرون إذا قالوا الولد فيه دم فلان ألحقوه بفلان فيكون هو الوالد. وكان العرب يحبون نجابة الأولاد، إذا رأوا أهل بيت أخلاقهم حميدة وهم أبطال وعندهم مكارم الأخلاق يحب أحد أن يجد ولدا كمثلهم يقول لزوجته إذا طهرت تذهبين إلى فلان تكونين معه زوجة له حتى تحملي، إذا حملت ترجعين إلي. فتأتي الزوجة إلى رجل ترضى بأن تبقى معه زوجة له حتى إذا حملت منه رجعت إلى زوجها ليخرج الولد نجيبا وينسبونه إلى الأب. والنساء ذوات الرايات البغايا اللواتي لهن رايات وهن كالدكاكين فقط كالحوانيت، كل رجل يأتيهن[1]. أثبتت الشريعة المحمدية النكاح

1- عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها

الأول وهو العقد بواسطة ولي ومهر وشهود، وأبطلت جميع أنواع الأنكحة الأخرى ولكن إذا أسلم رجل ثبت على نكاحه والأولاد الذين نشئوا من الكفر أولاد يلحقون إذا دخلوا في الإسلام فلهذا الشريعة اعتبرت أنكحتهم بعد دخولهم في الإسلام تأنيسا لهم. الكفار ليس فيهم ولد زنى لأنّهم عقودهم وغيرها متساوية إذا دخلوا في الإسلام فكلهم نسبه صحيح. ﴿وَمَنْ يَّكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ﴾ يرتد ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح قبل ذلك فلا يعتد به ولا يثاب عليه ﴿وَهْوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ﴾ أردتم القيام ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وأنتم محدثون ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الوضوء ﴿وَامْسَحُواْ بِرُءوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أغسلوا أرجلكم ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ فاغتسلوا ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ مرضا يضره الماء ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ مسافرين ﴿أَوْ جَا أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ سبق مثله في آية النساء ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً﴾ بعد طلبه ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقصدوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ترابا طاهرا

ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم. صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب من قال لا نكاح إلا بولي (5127).

﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مع المرفقين ﴿مِنْهُ﴾ بضربتين ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ضيق. إن الله تبارك وتعالى رخص في التيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله لأن دين الله يسر ما فيه حرج ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأحداث والذنوب ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام تبيان شرائع الدين ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ عاهدكم ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب وبغيره أولى. الله تبارك وتعالى فرض على الجنب أن يغتسل، يغسل سائر جسده، وعلى المحدث أن يتوضأ، فالمحدث سواء بال أو تغوط يتوضأ فقط. لِمَ يجب الغسل بخروج المني ولا يجب الغسل بخروج الغائط وهو أنجس بكثير من المني وأقذر؟ لأن شهوة الجماع تستغرق بدن الإنسان فيستعمل جميع قوة بدنه ظاهرا وباطنا، فلهذا يجب عليه غسل سائر جسده، بخلاف الطعام أو الشراب تتناولهما بطرف واحد، الأكل بالفم والشرب كذلك، فلهذا ما وجب بهما إلا غسل الأطراف. أو لأن الجماع قليل فأوجب فيه الغسل، والبول والغائط يتكرر كثيرا فاكتفى بغسل الأطراف التي تظهر من الناس كالوجه واليدين والرجلين إلى الكعبين رفعا للحرج، لأنه لو وجب في كل حدث غسل لكان حرجا على المسلمين. [...][1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ﴾ قائمين ﴿لِلَّهِ﴾ بحقوقه ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يحملنّكم ﴿شَنَآنُ﴾ بغض ﴿قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ﴾

1- جواب للشيخ رضي الله عنه حول التيمم قال "فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه" لأنه ما بين مبلغ المسح، بينت السنة استيعاب العضوين بالمسح فاكتفى الشافعي بمسح الكوعين وقال مالك إنه إلى المرفقين، أما الوضوء فنص بالمرفقين فلهذا وجب إلى المرفقين

في العدو والولي ﴿هُوَ﴾ العدل ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ لا توجد شريعة تأمر بالعدل مع العدو إلا شريعتنا، شريعتنا أمرتنا بالعدل مع الصديق والعدل مع العدو ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منكم ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ وعدا حسنا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أتى الحديبية همّ قوم من قريش أن يبسطوا إليهم أيديهم ليفتكوا بهم فردهم الله، أو لما أتى لخيبر يطلب أن يعينه المسلمون في دية قتيل فقالوا له: يا أبا القاسم اجلس حتى نأتيك بطعام فذهبوا وصعد يهودي وأخذ رحى من حديد عندهم وأراد أن يسقطها على المصطفى صلى الله عليه وسلم ليموت، فأتاه جبريل فأخبره فخرج ورجع إلى المدينة، أو في القضية التي ذكرنا بالأمس في غورث لما نظره بعيدا من أصحابه قال هذا محمد بعيدا من أصحابه قتلني الله إن لم أقتله فأتاه وأراد أن يقتله بالسيف فرده الله، أو زينب بنت الحرث سمت شاة فأطعمته[1] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَّبْسُطُواْ﴾ يمدوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ ليفتكوا بكم ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ وعصمكم مما أرادوا ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بما سيذكر بعد ﴿وَبَعَثْنَا﴾ أقمنا ﴿مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ من كل سبط، أسباط بني إسرائيل كانوا اثني عشر، فاختار موسى

1- قال جلال الدين السيوطي في تفسير الجلالين عند قوله تعالى "إذ هم قوم" قال هم قريش، وجاء ذكر باقي الأقوال في التفاسير انظر الطبري عند تفسير الآية وكذلك حاشية الصاوي على الجلالين ج272/1، وفي ابن كثير ج32/2، وفي التسهيل لعلوم التنزيل ج171/1 وفيه قال: "والرابع أنها على الإطلاق في دفع الله الكفار عن المسلمين" ومثله عند الصاوي وقد رجحه.

نقيبا من كل سبط فكانوا اثني عشر هم نقباء موسى ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ فنقضوا الميثاق. قال تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أبعدناهم عن رحمتنا «فبما نقضهم» بنقضهم ميثاقهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ لا تلين لقبول الحق ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التي وضعه الله عليها أي يبدلونه ﴿وَنَسُواْ﴾ تركوا ﴿حَظًّا﴾ نصيبا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾ أمروا ﴿بِهِ﴾ في التوراة من إتباع محمد ﴿وَلاَ تَزَالُ﴾ يا محمد ﴿تَطَّلِعُ﴾ تظهر ﴿عَلَى خَائِنَةٍ﴾ خيانة ﴿مِّنْهُمْ﴾ بنقض العهد ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ ممن أسلم ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أيضا كما أخذنا ميثاق بني إسرائيل ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ﴾ في الإنجيل ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ أوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بتفرقهم واختلاف أهوائهم فكل فرقة تكفر الأخرى ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ تكتمون ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ من ذلك ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَكِتَابٌ﴾ قرآن ﴿مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ﴾ بالكتاب ﴿اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ بأن آمن ﴿سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ حيث جعلوه إلها وهم

اليعقوبية فرقة من النصارى ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ أن يدفع ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا أحد يملك ذلك ولو كان المسيح إلها لقدر عليه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ كل منهما قالوا نحنُ أبناء الله أي كأبنائه في القرب والمنزلة، أبناء الله لأنّهم قالوا ‹*إنهم أبناء عزير وعزير ابن الله*› ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ قالوا إنّهم أحباء الله اعتمادا على أنّهم من ذرية إبراهيم وإبراهيم خليل الله، ادعوا هذا ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ إن صدقتم في ذلك؟ الأب لا يعذب ولده، والحبيب لا يعذب حبيبه وقد عذبكم الله فأنتم كاذبون ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ جنس من بني آدم فقط لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَّشَاءُ﴾ تعذيبه لا اعتراض عليه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شرائع الدين ﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾ انقطاع ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ إذ لم يكن بينه وبين عيسى رسول ومدة ذلك خمسمائة وتسع وستون سنة[1] ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ﴾ لو لم يأت محمد لقلتم ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الآن محمد أتى وهو بشير ونذير. بين آدم ونوح ألف سنة، وبين نوح وإبراهيم ألف سنة، وبين إبراهيم وموسى ألفا سنة، وبين موسى وعيسى ألف سنة،

1- ذكره القرطبي عن ابن عباس قال: وكان بين ميلاد عيسى والنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. ج122/6.

وبين عيسى ومحمد خمسمائة وتسع وستون عاما أو ستمائة عام[1]. وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم والآن بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانون سنة[2]. والدنيا سبعة أيام وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون، الدنيا سبعة أيام[3]، سبعة آلاف سنة مضت لا تبلغ ألفا أبدا ولا علم إلا عند الله تبارك وتعالى ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ منكم ﴿أَنبِيَاءَ﴾ جعل الله بعض النبيئين من بني إسرائيل ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أصحاب خدم وحشم، الملك كل من عنده زوجة وخادم وخادمة كأنه ملك[4]، أو جعل منكم ملوكا ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ من المن والسلوى وفلق البحر وغير ذلك ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ﴾ أمركم بدخولها وهي الشام ﴿وَلاَ تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ تنهزموا خوف العدو ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ﴾ في سعيكم ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ بقايا عاد طوالا ذوي قوة ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنْ

1- هذه التواريخ أقوال مختلفة وردت في كتب التفسير دون ترجيح لبعضها على بعض في الغالب انظرها في تفسير ابن كثير ج36/2 وفي القرطبي ج122/6، وفي حاشية الصاوي على الجلالين ج275/1 – 276.

2 – وهي السنة التي فسر فيها الشيخ القرآن هذا التفسير الذي بين أيدينا

3- (الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة) للديلمي في مسند الفردوس، الجامع الصغير 4277.

4- عن أبي عبد الرحمن الحبلي سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادما، قال: فأنت من الملوك. صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق/ (5290)

يَّخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ لها، جبنوا وخافوا ورفضوا أمر الله تبارك وتعالى وأمر الرسول. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

الدرس الرابع عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿قَالَ رَجُلاَنِ﴾ قال لهم رجلان ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مخالفة أمر الله وهما يوشع بن نون وكالب بن يوقنا من النقباء الذين بعثهم موسى في كشف أحوال الجبابرة. موسى اتخذ اثني عشر نقيبا لكل سبط نقيب يرسله إلى السبط الذي ينتسب إليه، ويبلغون أيضا إلى موسى من السبط. فلما أمر الله بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وكان فيها جبابرة بعث موسى اثني عشر نقيبا ليطلعوا على أحوال الجبابرة فرأوا من عظمة الخلق وطول القامات ما حيرهم، فلما رجعوا قال لهم يوشع وكالب اكتموا ما رأيتم إلا عن موسى وهارون فقط، فلم يكتموا. أخبروا الناس بحال الجبابرة فجبنوا منهم إلا كالب ويوشع فقط هما اللذان خافا الله تبارك وتعالى وكتما أحوال الجبابرة إلا عن موسى عليه الصلاة والسلام وهارون ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالعصمة فكتما ما اطلعا عليه من حالهم إلا عن موسى بخلاف بقية النقباء فأفشوه وجبنوا ﴿ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ باب القرية ولا تخشوهم فإنهم أجساد بلا قلوب، حالة الكفار ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ وَعَدُوهم أنهم إذا دخلوا سيغلبون الجبابرة، وهم من أين لهم علم بذلك؟ بوعد الله تبارك وتعالى: "ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" لما وعدهم الله أن الأرض لهم وهم واثقون

بوعد الله علموا أنهم سينصرون عليهم ولهذا خففوا عليهم الأمر "ادخلوا عليهم الباب" بمجرد وصولكم لباب القرية ستغلبونهم بدليل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن الله وعدكم النصر. الأرض المقدسة هي الأرض التي كان يسكنها الأنبياء والظرف يشرف بشرف مظروفه تقدست بسبب سكنى الأنبياء والمرسلين فإذا طاب المظروف طاب الظرف. نعم يسكنها الجبابرة أيضا ولكن الخير يغلب الشر، فلهذا غلب الخير على الشر حتى أن سكنى الجبابرة ما منع الأرض من أن تكون مقدسة حيث سكنها الأنبياء.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ هم ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ إنا قاعدون عن القتال ههنا رفضوا أمر الله وأمر رسوله أشدَّ رفض «لن ندخلها أبدا» وكانوا مجسِّمة، فلهذا اعتقدوا أن الله جسم يمشي مع موسى عليه الصلاة والسلام «فاذهب أنت وربك» أو وربك يعينك «فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ﴿قَالَ﴾ موسى حينئذ ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَ﴾ إلا ﴿أَخِي﴾ ولا أملك غيرهما فأجبرهم على الطاعة ﴿فَافْرُقْ﴾ فافصل ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ دعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام بأن يفرق الله بينه وبين الذين امتنعوا عن امتثال أمر الله ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له ﴿فَإِنَّهَا﴾ الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أن يدخلوها ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ نصبت بمحرمة، أو ﴿يَتِيهُونَ﴾ أربعين سنة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وهي تسعة فراسخ[1] ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ لا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ دعا عليهم موسى فدخلوا التيه فتحيروا مدة أربعين سنة في تسعة فراسخ، كانوا يسيرون الليل جادين فإذا أصبحوا إذا هم في الموضع الذي

1- نقله في الجلالين عن ابن عباس قال هي تسعة فراسخ. حاشية الصاوي ج1/277.

ابتدأوا منه ويسيرون النهار كذلك حتى انقرضوا كلهم إلا من لم يبلغ العشرين[1]، قيل وكانوا ستمائة ألف ومات هارون وموسى في التيه[2] وكان رحمة لهما وعذابا لأولئك، وسأل موسى ربه عند موته أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر فأدناه كما في الحديث[3]. ونُبّئ يوشع بعد الأربعين وأمر بقتال الجبارين، فسار بمن بقي معه وقاتلهم وكان يوم الجمعة[4] ووقفت له الشمس ساعة حتى فرغ من قتالهم، وروى أحمد في مسنده حديث (إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس)[5]. هذه قصة موسى مع الجبابرة مع بني إسرائيل امتنعوا من أمر الله تبارك وتعالى فدعا موسى عليهم بقوله «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين» فاستجاب الله دعاءه أن أخبره أنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة فحزن موسى لهذا

1- السيوطي في الجلالين، حاشية الصاوي ج277/1

2- انظر تفسير ابن كثير ج41/2.

3- أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: أرسِل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت قال فرد الله إليه عينه وقال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم مهْ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة أو نحوها (1339)، صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب من فضل موسى (4374).

4- راجع كلام القرطبي في ذلك، ج130/6. وقد أورد ابن كثير به حديثا أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه. ج41/2.

5- حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس) مسند أحمد: من مسند المكثرين/ (7964)

فقيل له «فلا تأس على القوم الفاسقين» لا تحزن عليهم، إنما يستحقون ما وقع فيهم من المصيبة. تاهوا مدة أربعين سنة في تسعة فراسخ بقدرة الله تبارك وتعالى، لو تفكروا في الشمس أو في النجوم أو نظروا إلى البحر لوجدوا طريقا يتخلصون من هذه البقعة، ولكن الله تبارك وتعالى أعجزهم فبقوا في تلك المدة في مسافة تسعة فراسخ وقيل ستة فراسخ[1] أربعين سنة، عذابا لهم، لأنهم خالفوا أمر الله تبارك وتعالى. وأما موسى وهارون فقد بقيا معهم في التيه وهما ما خالفا أمر الله تبارك وتعالى فكيف يكونان في العذاب وهما بريئان؟ قيل إنهما لم يكونا معهم في التيه، والصحيح أنهما كانا معهم في التيه، ولكن لم يضرهما، كان عليهما بردا وسلاما كما كانت النار على إبراهيم بردا وسلاما، وهذه القضية تنبئك نتيجة الصحبة، فإن بني إسرائيل خالفوا أمر الله فبقوا في التيه أربعين سنة، وموسى وهارون اللذان لم يخالفا أمر الله لما صحبا هؤلاء الفسقة بقيا في التيه معهم أربعين سنة، وهؤلاء الفسقة لما كان فيهم موسى وهارون بقوا في التيه في أعظم نعمة: لما طلبوا الطعام أنزل الله عليهم المن والسلوى أطيب طعام وجد في الدنيا، ولما طلبوا اللباس بقي لباسهم لا يتسخ ولا يبلى أبدا وطلبوا الضوء في الظلمات فأرسل الله أعمدة من نور، وطلبوا السقيا فضرب موسى حجره ففاضت لهم اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم، هذا ببركة صحبة موسى وهارون. وبقاء موسى وهارون في العذاب معهم بشؤم صحبة أولئك المخالفين لأمر الله، فلما بقوا في التيه أربعين سنة توفي هارون وكان محبوبا في بني إسرائيل أكثر من موسى، فلما أخبرهم موسى بأن هارون توفي اتهموه بأنه قتله لكونه محبوبا عندهم أكثر منه فدعا موسى ربه فأنزل

1- القرطبي ج6/ 129.

الله الملك فأتى بهارون فكشف لهم عن حاله فعلموا أنه مات غير مقتول[1]. فلما قرب موت موسى طلب من الله ألا يتوفاه إلا في الأرض المقدسة فقربه إلى القدس رمية بحجر فتوفي هنالك. قال الرسول صلى الله عليه وسلم لو كنت هنالك لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر[2]. أمر النبوة. ﴿وَاتْلُ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ﴾ قُص عليهم قصة ابني آدم هابيل وقابيل ﴿بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إلى الله وهو كبش لهابيل وزرع لقابيل ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل بأن نزلت نار من السماء فأكلت قربانه ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل فغضب وأضمر الحسد في نفسه إلى أن حج آدم ﴿قَالَ﴾ له ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال: لمَ؟ قال: لتقبل قربانك دوني، ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ كان آدم عليه الصلاة والسلام تزوج بحواء فحملت منه عشرين بطنا في كل بطن غلام وجارية[3]، أخذ آدم الجارية من هذا البطن وزوجها لغلام من ذلك البطن، فاختلاف البطون قام مقام اختلاف الأنساب في شريعة آدم، فلما حان تزويج هابيل وقابيل أراد آدم أن يزوج أخت قابيل من هابيل وأخت هابيل لقابيل فامتنع قابيل وقال إن توأمته أجمل من توأمة هابيل وهو لا يرضى بهذا، لابد أن يتزوج بأخته فكلمه آدم فقال له إنما جرت علينا فقط هذا ليس بحكم لله تبارك وتعالى، فنزل جبريل فقال إن الله يأمركم أن تتقربوا قربانا، إذا تقبل الله قربان هابيل فهو أولى بالبنت المنازع فيها، وإذا تقبل قربان قابيل فكذلك، فأما هابيل فكان يربي حيوانا فاختار كبشا جميلا وتضرع إلى

1- القرطبي ج6/131، حاشية الصاوي ج1/277.

2- سبق تخريجه في هذا الدرس.

3- قال القرطبي: وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنا أولهم قابيل وتوأمته إقليماء وآخرهم عبد المغيث. تفسير القرطبي: ج6/ 135.

الله تبارك وتعالى بأن يتقبل منه ووضعه، وقابيل كان حراثا فذهب إلى زرعه وأخذ سنبلة أخذ ما فيها من الحبوب وألقاها حول الكبش وقال إن شاء الله تقبل مني أو لم يتقبل مني فأنا لا بد لي من مرادي، فلم يتقبل الله منه لأنه كما قال «إنما يتقبل الله من المتقين» فنزلت نار من السماء بيضاء وحملت كبش هابيل إلى السماء وبقيت سنبلة قابيل فحسده وقال له: تقبل الله منك ولم يتقبل مني، قال له: «إنما يتقبل الله من المتقين» فأراد أن يقتله وخاف من آدم. وكان آدم كل عام يذهب إلى الحج، فلما ذهب آدم إلى الحج أوعده أنه سيقتله، قال هابيل ﴿لَئِن بَسَطْتَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ في قتلك ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ﴾ ترجع ﴿بِإِثْمِي﴾ بإثم قتلي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي ارتكبته من قبل ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ولا أريد أن أبوء بإثمك إذا قتلتك فأكون منهم. هذا هابيل من المتقين وقابيل بعكس ذلك لما توعده بالقتل قال إنه لا يقتله هو لأنه هو يخاف الله، ومن قتل أخاه المؤمن يتحمل إثمه وإثم أخيه المقتول وهو يريد له ذلك ولا يريده لنفسه. كيف هذا والمسلم يحب للمؤمن ما يحب لنفسه؟ إنما قال هذا موعظة منه وعظه بأن من قتل أخاه يرجع بإثمه وإثم المقتول لينزجر عن قتله لا أنه تمنى له أن يقع في ذلك ﴿وَذَلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ﴾ هذا موعظة ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ زينت ﴿لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ﴾ فصار ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بقتله ولم يدر ما يصنع به لأنه أول ميت على وجه الأرض من بني آدم فحمله على ظهره بعد موته مدة ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينبش التراب بمنقاره وبرجليه ويثيره على غراب ميت معه حتى واراه ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي﴾ يستر ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ جيفة أخيه ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ﴾ عن ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على حمله، وحفر له وواراه. هذه

قصة قابيل وهابيل. أول معصية وقعت على وجه الأرض، قابيل حسد أخاه هابيل وقتله، وكان آدم غائبا، كان في الحج فرأى أن الأرض تغيرت واغبرت وكانت المياه كلا عذبة فملحت مياه البحار كلا، وكان الشجر كله ثمراته طيبة فتغيرت الأرض والثمار والمياه، فعلم آدم أنه قد حدث على الأرض حدث[1]، فلما رجع نظر ولم ير هابيل قال لقابيل: أين هابيل؟ قال: لست راعيا له، قال له: إنما قتلتَه، فأنكر أنه قتله. فذهبوا للمحل الذي ذبحه فيه فإذا الأرض قد شربت دم هابيل ولم يبق له أثر، فتوعد الله تبارك وتعالى الأرض حيث تبتلع دم المقتول، فخرج الدم من الأرض بعد ذلك، فلما وقع العتاب على الأرض بذلك بقيت الأرض لا تشرب دم مذبوح ولو دجاجة يبقى على وجه الأرض. فلما كان ذلك علم آدم أن قابيل قد قتل هابيل فطرده فسكن في اليمن وصار يتجر ويلعب وولد أولادا من الفسقة لا خير فيهم. تلك القصة أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يقصها على بني إسرائيل لأنهم خالفوا أمر الله تبارك وتعالى وامتنعوا من دخول الأرض المقدسة، وقص عليهم قصة ابني آدم، وكانت من أسرار كتبهم، والنبي صلى الله عليه وسلم أمي ولد في أرض الحجاز لم يقرأ ولم يصاحب من قرأ شيئا فأتاهم بالمكنون من علومهم، هذا أدل دليل على رسالته صلى الله عليه وسلم، فكثير من اليهود أسلموا بسبب هاتين القصتين ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الذي فعله قابيل ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ﴾ الشأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قتلها ﴿أَوْ﴾ بغير ﴿فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أتاه في الأرض من كفر أو زنى أو قطع طريق أو نحوه ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بأن امتنع من قتلها ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس من

1- راجع حاشية الصاوي على الجلالين ج280/1

حيث انتهاك حرمتها وصونها[1]. قتل نفس واحدة لا يساوي في الجريمة قتل جميع الناس، ولكن ينبهنا أن قتل واحد منا كقتل الجميع، كما أننا لو عرفنا أن فلانا هذا يريد أن يقتلنا جميعا نقف جميعا لمدافعته، إذا علمنا أنه يريد أن يقتل فلانا يجب علينا أن نقف جميعا للدفاع عنه. وينبغي استعظام قتل نفس واحدة كما ينبغي استعظام قتل جميع الناس لأن القرآن يقول "ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما" حيث أن البشر كلهم أولاد آدم، وآدم يسوءه قتل واحد من أبنائه ، وما ساء آدم يسوء جميع أبناء آدم لأن من أغضب والدا أغضب الأولاد كلا، فمن قتل واحدا من أولاد آدم فقد أغضب آدم وأغضب جميع أبناء آدم. وكذلك من أحيى واحدا منهم فقد أرضى آدم ومن أرضى آدم فكأنما أرضى جميع أولاد آدم، فلهذا قال: «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» لأنه كأنما قتل آدم «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا» ويدخل في قتل النفس من أضل إنسانا عن الصراط المستقيم إذا دعاه إلى كفر أو ضلالة أو بدعة فكأنما قتله وكأنما قتل الناس جميعا، كذلك من هدى إنسانا واحدا إلى الصراط المستقيم وإلى الدين القيم فكأنما هدى الناس جميعا، فكأنما أحياه وكأنما أحيى الناس جميعا. القتل المعنوي والقتل الحسي والإحياء المعنوي والإحياء الحسي سواء بسواء، فلهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم لما أرسل عليا (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها أو خير لك من حمر النعم[2]، أو خير لك مما طلعت عليه الشمس).

1- انظره في الجلالين ج280/1 من حاشية الصاوي

2- عن سهل بن سعد رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه، فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: أين علي؟

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ مجاوزون الحد بالكفر والقتل وغير ذلك، ونزل في العُرَنِيِّين لما قدموا المدينة وهم مرضى فأذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى الإبل، إبل الزكاة ويشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحوا قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا الإبل[1]. كانوا مرضى وادعوا الإسلام فأرسلهم النبي إلى إبل الزكاة وقال إنهم يشربون أبوالها هذا دواء لهم، وألبانها هذا معاش لهم، فصحوا فلما صحوا وقووا قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم وساقوا إبل الزكاة ورجعوا إلى كفرهم فنزلت فيهم[2] ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمحاربة المسلمين ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بقطع الطريق ﴿أَنْ يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ

فقيل: يشتكي عينيه، فأمر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال: (على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب دعاء النبي الناس إلى الإسلام والنبوة (2942). وفي رواية للطبراني في الكبير: (لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) الطبراني الجامع الصغير 7219.

1- عن أنس بن مالك قال قدم أناس من عكل أو عرينة فاجتووا المدينة فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بلقاح وأن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا النعم فجاء الخبر في أول النهار فبعث في آثارهم فلما ارتفع النهار جيء بهم فأمر فقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. صحيح البخاري: كتاب الوضوء/ باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها (233).

2- نزول الآية فيهم ذكره أبو داود في سننه من حديث أبي قلابة عن أنس: كتاب الحدود/ باب ما جاء في المحاربة (3798) وأحمد في مسنده: مسند المكثرين/ مسند أنس (12207) من حديث قتادة عن أنس.

تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أنزل الله هذه في حق قطاع الطريق. تكلم المفسرون على هذه الآية «أَنْ يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ» قال بعض المفسرين إن "أو" للتخيير وهذا معنى لا يصح أبدا، إنما القضية على وجوه "إنما جزاء الذين يحاربون الله" محاربة الله لا تمكن إنما محاربة أوليائه، محاربة أوليائه هي محاربته تعالى (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب)[1]، (من أهان لي وليا فقد بارزني)[2] إذاً محاربة الله هي محاربة أوليائه ورسوله. محاربة أولياء الله ومحاربة رسول الله أو محاربة أولياء الله وأولياء رسول الله المعنى واحد، جزاء من فعل ذلك «أَنْ يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الْأَرْضِ» أن يقتّلوا إذا ثبت من أحد منهم أنه قتل نفسا فحكمه القتل، «أو يصلّبوا» إذا جمع بين القتل وأخذ المال يصلب ويقتل، «أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف» إذا ثبت أنه لم يقتل نفسا ولكن أخذ مالا فهو سارق، والمحاربة شددت جريمته فكان السارق تقطع اليد منه وهذا

1 - عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب التواضع (6502).

وفي مسند أحمد عن عائشة بلفظ (من أذل لي وليا فقد استحل محاربتي وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه إن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن وفاته لأنه يكره الموت وأكره مساءته) وفي رواية من آذى لي. مسند أحمد: مسند الأنصار/ (24997).

2- (يقول الله تعالى من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة...) الجامع الكبير ج1010/1.

تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى تعظيما للجريمة، هذا في حق من لم يقتل نفسا منهم بل أخذ مالا فقط، «أو ينفوا من الأرض» كيف يُنفى أحد من الأرض؟ لا يصح أن ننفي أحدا من الأرض، أرض الله واسعة، ولا يجوز أن نعني أنه ينفى من بلد إلى بلد لأنه مضرة على الجميع، إذا نفي من بلد وترك في بلد آخر كان مضرة على أهل تلك البلدة، ما معنى «أو ينفوا من الأرض»؟ أن يحبس في السجن هو النفي من الأرض. هم أربعة: من أخذ مالا وقتل نفسا يصلب ويقتل[1]، ومن قتل ولم يأخذ مالا يُقتل، ومن أخذ مالا ولم يَقتل تقطع رجله ويده، ومن لم يرتكب شيئا من هذه ولكن دخل في جملة المحاربين يجعل في السجن. هذا معنى «أن يقتلوا» يُقتلوا إن قَتلوا، «أو يصلبوا» إن أخذوا مالا وقَتلوا، «أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف» إن أخذوا مالا ولم يقتلوا، «أو ينفوا من الأرض» يوضعوا في السجن إن لم يثبت عليهم شيء. ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء المذكور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ ذل ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو عذاب النار ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ﴾ من المحاربين والقطاع ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما أتوه ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. إذا رجع أحد المحاربين وتاب قبل أن يؤخذ فإنه تقبل توبته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ خافوا عقابه بأن تطيعوه ﴿وَابْتَغُواْ﴾ اطلبوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ما يقربكم إليه من طاعته، جعل تفسير الكلمتين شيئا واحدا «اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة»: اتقوا الله بترك نواهيه، وابتغوا إليه الوسيلة بعمل ما يقربكم إلى الله تبارك وتعالى. بدأ بالتقوى والمراد بها هنا ترك ما نهى الله عنه تبارك وتعالى. دفع المفاسد

1- أورد القرطبي حديثا أخرجه الطبري عن أنس أنه قال سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن الحكم في المحارب فقال من أخاف السبيل فاقطع يده للأخذ ورجله للإخافة ومن قتل فاقتله ومن جمع ذلك فاصلبه. القرطبي ج152/6.

مقدم على جلب المصالح[1] «وابتغوا إليه الوسيلة»: اعملوا طاعات تقربكم إلى الله تبارك وتعالى زلفى. الوسائل إلى الله تبارك وتعالى اختلفوا فيها فقالوا كل عمل يعمله الإنسان من نوافلَ الخير يكون وسيلة بينه وبين الله تبارك وتعالى، وقرأنا في القرآن ثلاث آيات كل آية تضمنت وسيلة إلى الله تبارك وتعالى "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" علمنا أن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في جميع الأقوال والأفعال وسيلة يتقرب بها الإنسان إلى الله تبارك وتعالى. وقال "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" مصاحبة الصالحين. "واتبع سبيل من أناب إلي" مصاحبة أهل الذكر والعارفين بالله. قال أحد الصالحين عند موته: أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية وبقلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، وهجران المعاصي والآثام، وترك الشهوات مدى الأيام، ومجانبة صحبة السفهاء من الأنام، وبصحبة الصالحين الكرام، وخير الناس من ينفع الناس وخير الكلام ما قل ودل[2]، واعلم أن النافع هو التقوى والمنجي هو العمل الصالح والإيمان الصحيح، لا حسب ولا نسب، ولا يغرنكم الشيطان بكثرة مفاخر آبائكم وأجدادكم فإن البول أصله الماء الطيب الصافي، والله يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. ﴿وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ

1- هي التاسعة والعشرون من القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقاء الحنفي ص 151.

2- جاءت هذه الوصية في تفسير روح البيان: أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية وبقلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام وهجر المعاصي والآثام وترك الشهوات على الدوام واحتمال الجفاء من جميع الأنام وترك مجالسة السفهاء والعوام ودوام مصاحبة الصالحين الكرام لأن خير الناس من ينفع الناس وخير الكلام ما قل ودل. روح البيان 448/2.

مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُرِيدُونَ﴾ يتمنون ﴿أَنْ يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ إذا دخل أهل النار النار – أعاذنا الله من ذلك – يندمون ندامة لا ندامة مثلها، ويتمنون أن يفتدوا من عذاب الله بكل ما يملكون، ويتمنون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها. ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾ يمين كل منهما من الكوع، وبينت السنة أن الذي يقطع فيه ربع دينار فصاعدا، وأنه إذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم ثم اليد اليسرى ثم الرجل اليمنى وبعد ذلك يعزر بالضرب. ذكر أن السارق والسارقة حكمهما أن تقطع أيديهما. أورد يهودي شبهة على الإسلام قال: إن هذا الإسلام مضطرب حيث أوجب خمسمائة دينار في دية اليد، من قطع يد إنسان يعطيه خمسمائة دينار، وإنسان سرق ربع دينار فقط تقطع يده ما باله؟ أجابه ابن حجر بأن الأمانة هي التي أغلت اليد حتى صارت خمسمائة دينار، والخيانة هي التي أرخصتها حتى صارت ربع دينار فقط، هذا حكمة الله تبارك وتعالى[1]. وبدأ بالرجُل عند ذكر السرقة لأن الرجل أقوى على السرقة من المرأة،

1– ذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري هذه الشبهة ونسبها لأبي العلاء المعري وأورد له بيتا من الشعر يضمنها فيه:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

ثم ذكر رد القاضي عبد الوهاب المالكي عليه فيها بقوله:

صيانة العضو أغلاها وأرخصها صيانة المال فافهم حكمة الباري

قال في الفتح: "وشرح ذلك أن الدية لو كانت ربع دينار لكثرت الجنايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمة في الجانبين وكان في ذلك صيانة من الطرفين" فتح الباري ج98/12. وورد هذا البيت في حاشية الصاوي برواية أخرى:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

كما بدأ بالمرأة في الزنا في قوله تبارك وتعالى "الزانية والزاني" لأن المرأة أقوى على الزنا من الرجل، إن لم تقبل المرأة لا تقع الفاحشة أبدا ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً﴾ عقوبة لهما ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في خلقه ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ رجع عن السرقة ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في التعبير بهذا ما تقدم فلا يسقط عنه بتوبته حق الآدمي من القطع ورد المال. نعم بينت السنة أنه إن عفا عنه قبل الرفع إلى الإمام سقط وعليه الشافعي[1]. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَّشَاءُ﴾ تعذيبه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ المغفرة له ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه التعذيب والمغفرة. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يُحْزِنكَ﴾ صنع ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه بسرعة أي يظهرونه إذا وجدوا فرصة ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ﴾ "من" للبيان، قالوا ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بألسنتهم ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وهم المنافقون ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ﴾ قوم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ الذي افترته أحبارهم سماع قبول ﴿سَمَّاعُونَ﴾ منك ﴿لِقَوْمٍ﴾ لأجل قوم ﴿ءَاخَرِينَ﴾ من اليهود ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ منهم من يأتي للنبي صلى الله عليه وسلم يأخذ الخبر ويذهب به إلى اليهود «لَمْ يَأْتُوكَ» وهم أهل خيبر، زنا فيهم محصنان فكرهوا رجمهما فبعثوا قريظة ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الحكم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الذي في التوراة كآية الرجم ﴿مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ التي وضعه الله عليها ﴿يَقُولُونَ﴾ لمن أرسلوهم ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ الحكم المحرف أي الجلد أفتاكم به محمد ﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بأن أفتاكم بخلافه ﴿فَاحْذَرُواْ﴾ أن تقبلوه ﴿وَمَنْ يُّرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾

وعزا الشبهة ليهودي. حاشية الصاوي ج283/1.

1- ذكره السيوطي في الجلالين، حاشية الصاوي ج283/1.

إضلاله ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ بدفعها ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذل بالفضيحة والجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ هم ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ الحرام كالرشا ﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ لتحكم بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هذا التخيير منسوخ بقوله "وأن احكم بينهم" الآية، فيجب الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا وهو أصح قولي الشافعي[1]، فلو ترافعوا إلينا مع مسلم وجب إجماعا ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ بينهم ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في الحكم أي يثيبهم ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ بالرجم، لم يقصدوا بذلك معرفة الحق بل ما هو أهون عليهم ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ يعرضون عن حكمك بالرجم الموافق لكتابهم ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ كان يهود خيبر إذا زنى فيهم شريف خففوا عليه حكم الله وجلدوه وأخذوا منه المال، وإذا زنى غير شريف رجموه، فزنى فيهم شريفان من أجلائهم فأرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لعلهم يجدون رخصة عنده فقال لهم: حكم الله الرجم، قالوا: جرت علينا يا أبا القاسم، ليس هذا هو حكم الله، فقال لهم: هذا هو حكم الله وهو في التوراة، فقالوا له:من أين لك أنه في التوراة؟ قال آتوا بالتوراة، فذهبوا وأتوا بالتوراة، كان يقرؤها عبد الله بن صوريا فلما بلغ آية الرجم وضع أصبعه على كلمة الرجم فقرأ ما بعدها، وكان عبد الله بن سلام حاضرا وهو يحفظ التوراة فنحى يده وقرأ آية الرجم على النبي صلى الله عليه وسلم، النبي لا يقرأ ولا يعرف الكتابة، فلما تبين أن هذا هو حكم الله أخذهما النبي

1- قاله السيوطي في الجلالين، الحاشية ج284/1.

صلى الله عليه وسلم ورجمهما فغضبوا[1]، هم الذين تعاتبهم هذه الآية، ما أتوا للنبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الحكم لأنهم يعرفون الحكم إنما كانوا يريدون شيئا هينا عليهم فقط، فلو أرادوا الحكم لاكتفوا بالتوراة، هذا حكم الله في التوراة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ بيان للأحكام ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ من بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُواْ﴾ انقادوا لله تبارك وتعالى. الأنبياء بعد موسى من بني إسرائيل ما كان لهم كتب ولا شريعة، إنما كل نبي من أنبياء بني إسرائيل كان يتمسك بالتوراة فقط. كل نبي في قرنه يهدي الناس بالتوراة كما يهدي العلماء الناس الآن بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل[2]. كان النبيئون بعد موسى يحكمون بالتوراة "الَّذِينَ أَسْلَمُواْ" انقادوا لله ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماء منهم ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ الفقهاء ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ﴾ استودعوا استحفظهم الله إياه ﴿مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ الله جعل التوراة وديعة عند بني إسرائيل فلهذا تمكنوا من التحريف والتبديل فغيروا وبدلوا بخلاف القرآن قال "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" الله تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن من التحريف والتبديل فلا يبدل إلى يوم القيامة، حتى أن الصبي إذا سمع من قارئ جليل تحريفا للقرآن صوبه له، هذا بحفظ الله تبارك وتعالى ﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أنه حق ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ﴾ اليهود ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في كتمانه ﴿وَلاَ تَشْتَرُواْ﴾ تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا تأخذونه على كتمانها ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ من ترك حكم الله

1- أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، صحيح البخاري: كتاب الحدود/ باب الرجم في البلاط (6819)، صحيح مسلم: كتاب الحدود/ باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا (3211).

2- روح البيان ج248/1

وحكَم بغير حكم الله فأولئك هم الكافرون. وذكر النبي صلى الله عليه وسلم: (خمس بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر)[1] ﴿وَكَتَبْنَا﴾ فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ النفس تقتل بالنفس إذا قتلتها ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تفقأ ﴿بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ﴾ يجدع ﴿بِالْأَنفِ وَالْأُذْنَ﴾ تقطع ﴿بِالْأُذْنِ وَالسِّنَّ﴾ تقلع ﴿بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ يقتص فيها إذا أمكن كاليد والرجل والذكر ونحو ذلك وما لا يمكن القصاص فيه ففيه الحكومة في اجتهاد الإمام، وهذا الحكم وإن كتب عليهم فهو مقرر في شرعنا. كل ما ذكر القرآن من حكم التوراة والإنجيل ولم يبين لنا نسخه فهو حكم لنا، هذا حكم لنا ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ بالقصاص بأن مكن من نفسه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ لما أتاه. من تصدق بالقصاص أي القاتل يسلم نفسه حتى يقُتل فهو كفارة له، أو من تصدق به بالقصاص من وجب له أن يقتل إنسانا فعفا عنه تقربا إلى الله فهو كفارة له. من هذه الآية اختلف مالك والشافعي في الحدود فقال الشافعي إن الحدود زواجر وقال مالك إن الحدود جوابر[2] فمن وجب عليه حد فسلّم نفسه فأقيم عليه الحد فهو كفارة له والآية تدل على ذلك، وحديث الغامدية: امرأة زنت بعد الإحصان فأتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له: زنيتُ أقم علي الحد الذي أوجب الله علي

1- (خمس بخمس ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر) للطبراني في الكبير عن ابن عباس الجامع الصغير 3945.

2- حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج286/1.

وأنا حامل من الزنا، قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم اذهبي حتى تضعي حملك، فذهبت ووضعت وأتت بالولد ترضعه قالت أقم علي الحد الذي أوجب الله علي، قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: اذهبي حتى تفطميه ــ هو نبي رحمة ــ فذهبت حتى فطمت الولد فجاءت أيضا وهو يحمل خبزا يأكله قالت له: الغلام فطم وهاهو يأكل أقم علي ما أوجب الله علي، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا بها إلى البقيع ويرجموها حتى تموت، فرموها بالحجارة فلما اشتدت عليها الحجارة فرت فلحقوا بها ورجموها حتى ماتت، فذكروا ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم وقال أحدهم: رجمنا الخبيثة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تقل الخبيثة هي طيبة والله إن توبتها لو اشترك فيها أهل المدينة لطهرتهم جميعا[1] هذا دلنا على أن الحدود جوابر، والشافعي يقول: الحدود زواجر أقيمت لزجر غيره فقط والذنب باق، شدد في هذه الشافعي. «فمن تصدق به فهو كفارة له» من مكّن نفسه من إقامة الحد عليه فذلك كفارة له وهذا يدل على أن الحدود جوابر ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في القصاص وغيره ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا﴾ أتبعنا

1- حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه أن امرأة يعني من غامد أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني قد فجرت فقال: ارجعي فرجعت فلما أن كان الغد أتته فقالت: لعلك أن تردني كما رددت ماعز بن مالك فوالله إني لحبلى، فقال لها: ارجعي، فرجعت فلما كان الغد أتته فقال لها: ارجعي حتى تلدي فرجعت، فلما ولدت أتته بالصبي فقالت: هذا قد ولدته فقال لها ارجعي فأرضعيه حتى تفطميه، فجاءت به وقد فطمته وفي يده شيء يأكله فأمر بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها وأمر بها فرجمت، وكان خالد فيمن يرجمها فرجمها بحجر فوقعت قطرة من دمها على وجنته فسبها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، وأمر بها فصلي عليها ودفنت. هذا لفظ أبي داود، والحديث في صحيح مسلم: كتاب الحدود/ باب من اعترف على نفسه بالزنا (3208) وفيه خبر ماعز بن مالك الأسلمي قبل خبر الغامدية.

﴿عَلَى ءَاثَارِهِمْ﴾ النبيئين ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ بيان للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ بما فيها من الأحكام ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وقلنا ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ من الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا﴾ شاهدا ﴿عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إليك ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عادلا ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الأمم ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقا واضحا في الدين تمشون عليه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على شريعة واحدة ﴿وَلَكِنْ﴾ فرقكم فرقا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة لينظر المطيع منكم والعاصي ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ سارعوا إليها ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ مرجعكم إلى الله جميعا بالبعث ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ويجزي كلا منكم بعمله. إن الله تبارك وتعالى هو الملك الحق وهو المتصرف في خلقه كيف شاء فله أن يجري حكما في مدة من الزمن ثم ينهي ذلك الحكم ويأتي بحكم آخر ليس في هذا اعتراض على الله تبارك وتعالى. أرسل الأنبياء كلهم اتفقوا على العقيدة وهي وحدانية الله تبارك وتعالى وتعظيم الخالق والشفقة على الخلق، كلهم اتفقوا على هذا لأن الله عهد إلى الأنبياء بأن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، والتفرق هنالك التفرق في العقائد (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار، وافترقت النصارى على ثنتين

وسبعين فرقة كلها في النار، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي)[1] أي الذين هم على السنة والجماعة (يد الله مع الجماعة)[2]، والتفرق المراد هنالك هو التفرق في العقائد، أما الاختلاف في الفروع فقد ورد فيه (اختلاف أمتي رحمة)[3] لأنه من قلد عالما لقي الله سالما، استكملَ الله الشرائع بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وختم الكتب بكتابه العزيز الذي سماه مهيمنا على جميع الكتب بعدما كانت كتب آدم كلمات فقط "فتلقى آدم من ربه كلمات" وكتب إبراهيم كلمات "وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات" وكتب موسى صحفا فقط "صحف إبراهيم وموسى" هذا كتاب مهيمن على جميع الكتب، فكما أن كتابه أفضل الكتب السماوية ودينه أفضل الأديان وأمته خير أمة فهو أفضل جميع الأنبياء باتفاق. وكلهم بشَّر أمته بمحمد صلى الله عليه وسلم، آخرهم عيسى: "ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد" لم يسمه بأحمد لأن لغتهم ليست عربية، ولكن قال: أفضل لكم أن أذهب أنا أذهب إلى أبي – في لغة الإنجيل الأب: السيد – أرجع إلى أبي أفضل لكم ويأتيكم البارقليط: روح الحق، البارقليط

---

1 – عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة). سنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب افتراق الأمم (3982).

2– عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يد الله مع الجماعة) سنن الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة (2092).

3– (اختلاف أمتي رحمة) نصر المقدسي و البيهقي، الجامع الصغير 288.

في لغتهم معناه محمد أو أحمد[1]. وقال: إذا جاء سيصدقني كما أني أصدقه، وذكر في آية: هو إذا أتى لا يقول إلا ما قال الله له ولا يفعل إلا ما قال الله له[2]، ولو أدركته لَاسْتحق أن أربط له نعله وأمسح له قدمه. ما جاء مخلوق بعد عيسى أجل قدرا من عيسى بهذه المرتبة إلا محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَأَنُ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَّفْتِنُوكَ﴾ أن لا يفتنوك أي يضلوك ﴿عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُّصِيبَهُمْ﴾ بالعقوبة في الدنيا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ التي أتوها ومنها التولي ويجازيهم على جميعها في الأخرى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الدين ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أيبتغون يطلبون حكم الجاهلية من المداهنة والميل ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا﴾ لا أحسن حكما من الله تبارك وتعالى ﴿لِقَوْمٍ﴾ أي عند قوم ﴿يُوقِنُونَ﴾ به، خصوا بالذكر لأنهم الذين يتدبرونه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ كان المنافق عبدالله بن أبي بن سلول يذهب يصادق اليهود والنصارى وإذا نهي عن ذلك يقول: تأتي الدوائر فنحتاج إليهم يوما ما «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ» توالوهم وتوادوهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الكفار متحدون في الكفر، الكفر كله ملة واحدة، كل الكفار اتفقوا على الكفر وكلهم ضد المسلمين، بعضهم أولياء بعض، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم من صادق الكافرين فقد خرج من الدين ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بموالاتهم للكفار

1- قال عياض في الشفا ج234/1 ومن أسمائه في الكتب روح الحق وهو معنى البارقليط في الإنجيل.

2- قاله في الأنوار المحمدية ص 379: وفي ترجمة أخرى للإنجيل أنه قال الفارقليط إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ولا يقول من تلقاء نفسه ما يسمع يكلمهم به.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقادٍ كعبد الله بن أبي المنافق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ في موالاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يدور بها الدهر علينا من جدب أو غلبة ولا يتم أمر محمد أبدا فلا يميرونا، قال تعالى ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ بالنصر لنبيه بإظهار دينه ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الشك وموالاة الكفار ﴿نَادِمِينَ يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لبعضهم إذا هتك سترهم تعجبا ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ كانوا يقولون إنهم مع المسلمين، قال تعالى ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت أعمالهم الصالحة ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ صاروا ﴿خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا بالفضيحة وفي الآخرة بالعقاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَّرْتَدِدْ﴾ يرجع ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ إلى الكفر إخبار بما علم الله تبارك وتعالى وقوعه. هذه الآية نزلت قبل وقوع هذه القضية، وقد ارتد جماعة قال جلال بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم[1] ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قال صلى الله عليه وسلم (هم قوم هذا) وأشار إلى أبي موسى الأشعري[2] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ﴾ أشداء ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قد ارتد في الصدر الأول إحدى عشرة فرقة: ثلاث فرق ارتدوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منهم الأسود العنسي ارتد باليمن وتغلب على اليمن حتى أخرج معاذ بن جبل أمير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى معاذ أنهم يقاومونه ويحمل الناس على البقاء على الإسلام، فقتله رجل يقال له فيروز، أخبر

1- هو السيوطي في الجلالين ج289/1 من الحاشية.

2- قال القرطبي في تفسيره: روى الحاكم أبو عبد الله في المستدرك بإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى أبي موسى الأشعري لما نزلت هذه الآية فقال: (هم قوم هذا) ج220/6.

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قُتل الأسود العنسي قتله رجل مبارك وهو في مرض موته قيل له من هو رجل مبارك؟ قال فيروز. فتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الليلة. هذا في اثنيَ عشر من ربيع الأول، وعند نهاية الشهر جاء الخبر من اليمن أن الأسود العنسي قتله فيروز كما أخبر صلى الله عليه وسلم. ومسيلمة الكذاب ارتد باليمامة وكتب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله إن الأرض بيننا نصفان نصف لي ونصف لك، فجاء رسولاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: أنتما تؤمنان بهذا؟ قالا: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما[1]، وكتب له النبي صلى الله عليه وسلم جوابا: (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين") فلما توفي النبي صلى الله عليه وسلم أرسل أبو بكر جيشا قائده خالد بن الوليد فأتوا وغزوهم فقتله وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة في غزوة أحد فلهذا كان يقول قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام يعني في جاهليته وإسلامه، لما كان كافرا هو الذي قتل حمزة ولما كان مسلما هو الذي قتل مسيلمة الكذاب[2]. وطليحة هو أيضا تنبأ وارتد وارتدت معه جماعة قاتلهم أبو بكر فتغلب

1- أخرج أحمد في مسنده عن نعيم بن مسعود الأشجعي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما). مسند أحمد: مسند المكيين/ حديث نعيم بن مسعود (15420).

2- راجع قتل وحشي مسيلمة الكذاب في صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه (4072).

عليهم وفر طليحة إلى الشام وبعد ذلك رجع إلى الإسلام، هداه الله ومات مسلما. هؤلاء الفرق الثلاث ارتدوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وارتد في زمن أبي بكر سبع فرق، ارتد العرب جميعا من الشام واليمن والعراق لم يبق إلا أهل مكة وأهل المدينة بسبب الزكاة، قالوا: نقيم الصلاة كما قال الله، أما الزكاة فلا نُغصَب أموالنا بعد النبي صلى الله عليه وسلم، الله قال "خذ من أموالهم صدقة" والذي خوطب بـــ"خذ" ذهب لا نعطي شيئا من أموالنا بعد النبي صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر وقال: والله لو منعوني عقالا كانوا يدفعونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه[1]، قال له عمر: مهلا يا أبا بكر تقاتل من يقيم الصلاة ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؟ قال أبو بكر: إليك عني يا عمر جبار في الكفر خوار في الإسلام، والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة أبدا، الله يقول "أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" فتقلد سيفه وحده، قال عمر: فلما رأيت الجد من أبي بكر علمت أن هذا الذي عليه هو الحق، فكانوا كرهوا هذا الأمر في البداية وأحبوه في النهاية فقاتلوا العرب كل من لم يؤد الزكاة يقاتلونه حتى رجعوا إلى قبول الزكاة لولا أبو بكر لسقط هذا الركن ولاستخفوا بالإسلام فلهذا قال عمر: والله ما ولد مولود بعد الأنبياء أفضل من أبي بكر الصديق ولولاه لارتد العرب جميعا بترك الزكاة. وارتدت فرقة واحدة في زمن عمر: جبلة بن الأيهم ملك غسان أتى وأسلم وسار مع عمر إلى الحج فكان يطوف بالبيت ويجر رداءه وراءه فوطئ

1- جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر رضي الله عنه فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر رضي الله عنه بالقتال فعرفت أنه الحق. صحيح البخاري: كتاب الزكاة/ باب أخذ العناق في الصدقة (1457)

أحد الصحابة رداءه وهو ملك متكبر فلطمه، فشكا ذلك إلى عمر فدعاه عمر وقال له: حكم الله القصاص، قال: القصاص، أنا ملك وهو سوقة يقتص مني؟ قال له عمر: ليس هذا في الإسلام، الإسلام ساوى بيننا، الملك والسوقة سواء فحكم الله القصاص، قال له: أعطيك مائة من الإبل ولا تقتص مني قال الرجل أنا أقتص فقط، قال: أعطيك ألفا من الإبل ولا تقتص مني، امتنع الرجل وقال عمر: لا بد أن يقتص منك فقال: يا أمير المؤمنين أمهلني قليلا إلى غد فأمهله عمر ففر وارتد، قال: دين يسوي بين الملك والسوقة هذا دين لا يرضى به. هذا هو الذي ارتد في زمن عمر والله أخبر بهذا قبل وقوعه. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَنْ يَّرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ» عاطفين «عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ» أشداء «عَلَى الْكَافِرِينَ» سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء، فقال: أهل اليمن، الإيمان يمان والحكمة يمانية[1] وسئل مرة ثانية فأشار إلى سلمان فقال قوم هذا (لو كان الإسلام في الثريا لناله رجال من هؤلاء)[2] إشارة إلى سود الجلود إذا آمنوا

1- أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا الإيمان يمان والحكمة يمانية والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم) صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن (4388)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه (73).

2- أخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه سورة الجمعة فلما قرأ "وآخرين منهم لما يلحقوا بهم" قال رجل: مَن هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي صلى الله عليه وسلم حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثا قال وفينا سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال: (لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء. صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضل فارس (4619)، وفي صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب وآخرين منهم لما يلحقوا بهم (4898).

بالله، وسئل أيضا فقال قوم أبي موسى الأشعري[1]. والعبرة بكل من اتصف بهذه الصفات «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين». المسلمون عكسوا هذه القضية الآن هم أشداء على المسلمين رحماء بالنسبة إلى الكافرين، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ كما يخاف المنافقون لوم الكفار ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الأوصاف ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ نزل لما قال ابن سلام: يا رسول الله إن قومنا هجرونا كل من دخل في الإسلام قاطعه قومه الكفار واتخذوه عدوا فقال الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ خاشعون فبقي هذا الحكم إلى يوم القيامة. من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا فالله وليه ورسوله والمؤمنون جميعا ﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيعينهم وينصرهم ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لنصره إياهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُؤًا﴾ نزل هذا في المنافقين واليهود، كان الرسول صلى الله عليه وسلم شديد الاهتمام بشيء ينادي الناس إلى الصلاة فشاور الصحابة فقال: نحب أن نجد شيئا يعلن بأوقات الصلاة، منهم من قال: نوقد نارا إذا رأوا دخانا في النهار يعلمون أن الوقت بلغ وإذا كان في الليل إذا رأوا النور يعلمون أن الوقت قد بلغ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم النار، منهم من قال نضرب جرسا، فكره الجروس، فتفرقوا فجماعة من الصحابة كلهم رأى الأذان في النوم، رأى أبو صداء الأذان وبلال وجماعة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأذان فصاروا يؤذنون

1- أخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن أبي موسى الأشعري قال لما نزلت "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هم قوم هذا) ابن كثير ج71/2. وأورده القرطبي قال أخرجه الحاكم في مستدركه وذكره بلفظه. القرطبي ج220/6.

فضحك اليهود ضحكا شديدا قالوا: ما رأينا دينا أقبح من دين محمد، هذا نهيق الحمار الذي جاء به ما أتى به دين قط[1] فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا﴾ مهزوءا به ﴿وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ دعوتم ﴿إِلَى الصَّلاَةِ﴾ بالأذان ﴿اتَّخَذُوهَا﴾ أي الصلاة ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ بأن يستهزئوا بها ويتضاحكوا عند سماع الأذان ﴿ذَلِكَ﴾ الإتخاذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ ليس عندهم عقل فالأذان لم يكن ثبت بنوم فقط لجماعة من الصحابة بل ثبت بهذه الآية أيضا. هذه الآية أثبتت حكم الأذان. قال الرسول صلى الله عليه وسلم (المؤذنون أطول أعناقا يوم القيامة)[2] وقال إن أربعة لا تأكل الأرض أجسادهم إذا ماتوا: الأنبياء لا تأكل الأرض أجسادهم، وحملة الشريعة المحمدية العلماء العاملون، وحملة القرآن، والمؤذنون، من أذن سبع سنين لا تأكل الأرض جسده[3]. هو في صف رفيع الأنبياء وحملة الشريعة وحملة القرآن والمؤذن، ويندب

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج1/291.

2- عن معاوية بن أبي سفيان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة) صحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه (580).

3- قال القرطبي ج17/ ص4: " ثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرض أجسادهم".

ونظمهم الإمام التتائي في شرح الرسالة قال:

لا تأكل الأرض جسما للنبي ولا ... لعالم وشهيد قتل معترك

ولا لقارئ قرآن و محتسب ... أذانه لإلـه مجري الفلك

من شرح العلامة ميارة على المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر. ص59 مكتبة المنار – تونس.

حكاية الأذان لكل من سمعه[1]، إذا قال الله أكبر تقول الله أكبر، وإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله تقول أشهد أن لا إله إلا الله، وإذا قال أشهد أن محمدا رسول الله تقول أشهد أن محمدا رسول الله، وإذا قال حي على الصلاة تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا قال: حي على الفلاح، تقول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا قال: الصلاة خير من النوم، تقول: صدقتَ وبررت، وإذا قال: قد قامت الصلاة في الإقامة، تقول أقامها الله وأدامها، ويجيب بالقول والفعل عند الإقامة إذا قال قد قامت الصلاة، تقول: أقامها الله وأدامها وتنهض أيضا جمعا بين الإجابة الفعلية والإجابة القولية. ويكره اللحن في الأذان، منهم من يقول: آالله وهذا استفهام، منهم من يقول حي على الصلا، والصلا: النار، ومنهم من يقول حي على الفلا، والفلا جمع فلاة الصحراء. يحافِظ على الألفاظ لا يغيِّر منها شيئا ويؤذن لله تبارك وتعالى فإذاً يكون من الدعاة إلى الله "ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين". الدعاة إلى الله الأنبياء والمجاهدون والشيوخ المعلمون والمؤذنون. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ نزل لما قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: بمن تؤمن من الرسل؟ أو بمن نؤمن من الرسل؟ فقال بالله وما أنزل إلينا الآية حتى ذكر عيسى، قالوا: لا نعلم دينا شرا من دينكم، تعد عيسى من الأنبياء ونحن لا نؤمن به ولا بمن آمن به؟[2] قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ﴾ تنكرون

1- أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن) صحيح البخاري: كتاب الأذان/ باب ما يقول إذا سمع المنادي (611)، وفي صحيح مسلم: كتاب الصلاة/ باب استحباب قول مثل قول المؤذن لمن سمعه (576).

2- ذكره السيوطي في أسباب النزول قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ونافع بن أبي نافع وغازي بن عمر فسألوه عمن يؤمن به من الرسل قال: أؤمن "بالله وما أنزل

﴿مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ إلى الأنبياء ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾ من أهل ذلك ﴿مَثُوبَةً﴾ ثوابا بمعنى جزاء ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ هو ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أبعده عن رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ بالمسخ ﴿وَ﴾ من ﴿عَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الشيطان بطاعته، جماعة منهم سجدوا للجبت والطاغوت لما أتوا إلى أبي سفيان بمكة[1] ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ تمييزا ليس لهم إلا النار ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ طريق الحق وأصل السواء الوسط ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ منافقو اليهود ﴿قَالُواْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ﴾ عليكم متلبسين ﴿بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ﴾ من عندكم متلبسين بالكفر أيضا ﴿بِهِ﴾ بالكفر ولم يؤمنوا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ اليهود ﴿يُسَارِعُونَ﴾ يقعون سريعا ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ في الكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ الحرام كالرشا ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ هلا نهاهم العلماء العاملون ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ منهم ﴿عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ الكذب ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ ترك نهيهم. أشد آية على العلماء[2] «لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون». ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ لما ضيق الله عليهم بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا أكثر الناس مالا

على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيئون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" الآية، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا بمن آمن به فأنزل الله فيهم "قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا" الآية.

1- نقله الصاوي في حاشيته على الجلالين عن الخازن في تفسيره. حاشية الصاوي على الجلالين ج224/1.

2- قال الصاوي: قال ابن عباس هي أشد آية في القرآن يعني في حق العلماء. ج293/1.

صاروا فقراء قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أمسك الله أيديهم عن فعل كل الخيرات هذا دعاء عليهم ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ مبالغة في الوصف بالجود، وثنّى اليد لإفادة الكثرة إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه، الله تبارك وتعالى يداه مبسوطتان، يد الله ليست جارحة بدليل أن يديه كلتيهما يمين. هذه الصفات التي وردت في القرآن والحديث كان السلف يقررونها على ظواهرها ويكلون المعنى إلى الله تبارك وتعالى: آمنا به على مراد الله، آمنا به على مراد رسول الله، والمتأخرون يؤولون فأوّلوا اليد بالقدرة، فإذا أولوا اليد بالقدرة، فماذا يفعلون باليدين هنا؟ القدرة واحدة وهذه تثنية. وجاءت جمعا "والسماء بنيناها بأيد" هذا جمع أكثر من اثنين لا ندري هل ستة أم ثمانية؟ إذاً الصواب أن تترك اليد على ظاهرها ونفوض في المعنى إلى الله تبارك وتعالى، يداه ليست يدين كما عندنا ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من توسيع وتضييق لا اعتراض عليه ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لكفرهم به ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وكل فرقة منهم تخالف الأخرى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ لحرب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين بالمعاصي ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءامَنُواْ﴾ بمحمد ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ الكفر ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ﴾ أي عملوا بالتوراة ﴿وَالْإِنجِيلَ﴾ عملوا بما فيهما، وما فيهما هو الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم. قد جاء ذكر محمد في التوراة والإنجيل. كلهما بشر به، قال عيسى: سوف أذهب وسيأتيكم البارقليط ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لو عملوا بما أرشدهم إليه التوراة والإنجيل من الإيمان بمحمد صلى الله

عليه وسلم لفتح الله عليهم ووسع عليهم في الرزق وأفاض عليهم من كل جهة ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ نعم فيهم جماعة تعمل به وهم عبد الله بن سلام ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولا تكتم شيئا منه خوف أن تنال بمكروه ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ تبلغ جميع ما أنزل إليك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أن يقتلوك وكان صلى الله عليه وسلم يُحرس حتى نزلت فقال: انصرفوا فقد عصمني الله[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا نزلت آية شديدة على الكفار يتردد في تبليغها إليهم مخافة أن يزدادوا كفرا فنزلت عليه هذه الآية «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالاَتِهِ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» فبلّغ كل ما أنزل إليه، فلهذا قالت عائشة: (من ادعى أن محمدا كتم شيئا مما علمه الله فقد أعظم على الله الفرية)[2] أي الكذب. والرسول صلى الله عليه وسلم أعطاه الله علم الأولين والآخرين وزاده عليه، أعطاه ثلاثة علوم: علم أخذ الله عليه العهد أن يبلغه ولا يكتم منه شيئا، وقد بلغه ولم يكتم منه حرفا وذلك هو القرآن وكل ما سئل عنه من أحكام الشريعة. وعلم خيره الله إن شاء بلغه وإن شاء لم يبلغه، فبلّغ الخواص ذلك العلم وكتمه عن الباقين، وهو العلم الذي يتفوه به المجاذيب عندما يصِلون إلى الفناء المحض، وعلم أُخذ عليه العهدُ بكتمه فكتمه وهو علم سر

1- أخرج الترمذي في سننه عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية "والله يعصمك من الناس" فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم: (يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله). سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة المائدة (2972).

2- صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" (4612)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ معنى قوله تعالى "ولقد رآه نزلة أخرى" (259).

القدر لم يبلغه لأحد[1]. «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» هذا متعلق بالقرآن وكل الشريعة أو شيء سئل عنه «وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» وعده الله بالعصمة. فكان إذا أتى الليل يقوم ببابه حارس فلما نزلت هذه الآية رفع الستار من الباب وقال: انصرفوا انصرفوا فقد كفاني الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين معتد به ﴿حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأن تعملوا بما فيه وهو الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لكفرهم به ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ لا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ إن لم يؤمنوا بك لا تهتم بهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود ﴿وَالصَّابُونَ﴾ فرقة منهم ﴿وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة (لقد رفع الإسلام التفرقة العنصرية) "من آمن بالله" فكل المؤمنين إخوة "إنما المؤمنون إخوة" إذا كان أصله يهوديا أو نصرانيا أو صابيا أو مجوسيا أو أسود أو أحمر أو عربيا فكلهم آخى الإسلام بينهم عندما نطقوا بالشهادتين وهم أكفاء. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على الإيمان بالله ورسوله ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ منهم ﴿بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبوه ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿يَقْتُلُونَ﴾ قتلوه كزكريا ويحيى، والتعبير بيقتلون دون قتلوا حكاية للحال الماضية للفاصلة ﴿وَحَسِبُواْ﴾ ظنوا ﴿أَلاَّ تَكُونَ﴾ تقع ﴿فِتْنَةٌ﴾ عذاب بهم على تكذيب الرسل وقتلهم ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الحق فلم يبصروه ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماعه ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لما تابوا ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ ثانيا ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ

1- هذه العلوم الثلاثة ذكرها الصاوي بالتفصيل في حاشيته على الجلالين ج295/1.

بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فرقة منهم قالوا إن الله هو المسيح ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فإني عبد ولست بإله. أول ما نطق به "إني عبد الله" ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ﴾ في العبادة غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمنعونهم ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ فرقة قالوا إن الآلهة ثلاثة: الله إله وعيسى وأمه وهم فرقة أيضا ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التثليث ويوحدوا ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثبتوا على الكفر ﴿مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كان عيسى عليه الصلاة والسلام لما رفع ترك الذين آمنوا به على دينه وهو الإيمان بالله وأن عيسى عبد الله ورسوله، فكان الكفار يقاتلون المسلمين فينصر الله المسلمين عليهم حتى أضلهم رجل يقال له بلس وهو الذي يسمونه ابّول إلى يومنا هذا، لما قاتلهم زمنا وعجز عن الغلبة أظهر الإسلام، أنه دخل في دينهم، دخل في دينهم واجتهد حتى وجد شهرة كبيرة وصيتا وقبولا عند الجميع، ويوم من الأيام لما صلوا الصبح قال لهم أنا رأيت الإله، رأيت عيسى نزل إلي وأودعني سرا أتركه عند أمين منكم وأنا يجب علي أن أتقرب إلى الله بنفسي، فدعا ثلاثة: رجل اسمه يعقوب ورجل اسمه مَلْكان ورجل اسمه نسطور. خلا بيعقوب قال له: علمت أني دخلتُ في دينكم متأخرا وسبقتكم جميعا؟ نعم. ذلك لسر علمتُه وأنت لا تعلمه وما دمت لم تعتقد هذا فلا تنتفع بهذا الدين. قال له: وما ذلك؟ قال له: الإله هو عيسى عليه الصلاة والسلام، كان نزل بنفسه ورجع إلى ملكوته، من لم يعتقد أن عيسى هو الله لا ينتفع بهذا الدين أبدا حتى أدخل هذا في قلبه. لما علم أنه قبِل منه قال له: اتجهْ إلى هذه الجهة وعظ الناس وادعهم إلى هذه العقيدة. وخلا بملْكان وقال له: دخلتُ في دينكم متأخرا

وسبقتكم جميعا بسبب عقيدة هي التي نفعني الله بها وما دمت لم تعلم هذا لا تنتفع أبدا. قال: وما تلك العقيدة؟ قال: الإله ثلاثة عيسى إله وأمه إله والله إله ثالث ثلاثة، فلما قبل منه أرسله إلى جهة أخرى يدعو الناس إلى تلك العقيدة. وجاء نسطور فدعاه أيضا قال له: علمت أني دخلت في دينكم جديدا وسبقتكم جميعا لأني أعلم عقيدة من لم يعلمها لا ينتفع بهذا الدين. تلك العقيدة ما هي؟ هي أن عيسى ولد لله تبارك وتعالى، فلما قَبِلَ منه بعثه داعيا إلى جهة ثالثة وانتحر هو عدو الله قتل نفسه فبقيت تلك الفرق يدعون إلى هذه العقائد إلى يومنا هذا[1]. والفرقة الرابعة التي بقيت على عقيدة عيسى الإسرائيلية هم الذين آمنوا بأن الله واحد وعيسى عبد الله ورسوله كان منهم النجاشي، فلهذا لما بلَغه القرآن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدقه لأنه وافق ما كان تركهم عيسى عليه.

﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ مما قالوه استفهام توبيخ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ به ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فهو يمضي مثلهم وليس بإله كما زعموا وإلا لما مضى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ مبالغة في الصدق ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ كغيرهما من الحيوانات، ومن كان كذلك لا يكون إلها لتركبه وضعفه وما ينشأ منه من البول والغائط ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ كيف بين الله وحدانيته بقوله «كانا يأكلان الطعام» من أكل الطعام لا بد أن يتغوط وهذا لا يليق بجانب الله تبارك وتعالى «انظر كيف نبين لهم الآيات» ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق مع قيام البرهان ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ

1- راجع قصة بلس وكيف فرق دين المسيحية إلى ثلاث فرق في تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج6/ 24.

اللَّهِ﴾ غيره ﴿مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿لاَ تَغْلُواْ﴾ تجاوزوا الحد ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ غلوا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بأن تضعوا عيسى أو ترفعوه فوق حقه كلتا الفرقتين ضلت في شأن عيسى، اليهود اتهموا أمه قالوا إن مريم بغي وعيسى ولد حرام، والنصارى رفعوه فوق قدره فجعلوه ولدا لله أو هو الله. كلتا الفرقتين ضلت ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ بغلوِّهم وهم أسلافهم ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ طريق الحق، والسواء في الأصل الوسط. ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ دعا عليهم داود فمسخوا قردة وهم أصحاب أيلة ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ دعا عليهم فمسخوا خنازير وهم أصحاب المائدة ﴿ذَلِكَ﴾ اللعن ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضا ﴿عَنْ﴾ معاودة ﴿مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ سبب هلاكهم هو هذا ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فلهذا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده إن استطاع وإلا فبلسانه وإلا فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] ﴿تَرَى﴾ يا محمد ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة بغضا لك ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من العمل لمعادهم الموجب لهم ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حقا ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم

1- أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (70).

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ الكفار ﴿أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الإيمان. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

الدرس الخامس عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر

ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين ثم المشركين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى﴾ وتجد النصارى أقرب لمودة المسلمين من اليهود ومن المشركين ﴿ذَلِكَ﴾ القرب قرب مودهم للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ علماء ﴿وَرُهْبَانًا﴾ عبادا ﴿وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن إتباع الحق. وصف في هذه الآية حالة اليهود وحالة النصارى. قيل إن هذا خاص بوفد النجاشي ليس جميع النصارى لأن في النصارى من يعادي المسلمين جدا، وقيل مطلقا، فاليهود أشد عداوة للمسلمين من النصارى، هذا مع أن كفر النصارى أغلظ من كفر اليهود. النصارى كفرهم في الإلهية وفي النبوءة واليهود كفرهم في النبوءة فقط ولكن اليهود جبلوا على حب الدنيا فلشدة محبتهم للدنيا صاروا شرا من النصارى الذين هم أشد كفرا، فصاروا أشد معاداة للمسلمين من غيرهم لحسدهم وتكبرهم وحبهم للرياسة لحديث: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)[1] اليهود

1- تقدم في الدرس 13 وهو الحديث رقم 3662 من الجامع الصغير.

إذا قدروا على مسلم قتلوه[1] وإن لم يقدروا على قتله وقدروا على غصب ماله أو سرقته فعلوه، وإن لم يقدروا إلا على سب المسلمين وشتمهم ومعاداتهم والمكر بهم في كل وقت فعلوه، لا يقصرون في هذه الأشياء ، عكس النصارى مع أنهم أغلظ كفرا هم عبادهم زهّاد في الدنيا ولما زهدوا في الدنيا صاروا أقل إذاية للخلق من اليهود ومن المشركين فلهذا ورد (حب الدنيا رأس كل خطيئة) وسبب نزول الآية في وفد النجاشي. النجاشي كان ملكا للحبشة ولما اشتدت الإذاية بالمسلمين قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم (هاجروا إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكا لا يَظلم ولا يُظلم عنده)[2] فهاجر جماعة إلى أرض الحبشة منهم عثمان بن عفان ورقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ثمانون رجلا من الصحابة وعشر نسوة، فلما ذهبوا إلى أرض الحبشة آواهم النجاشي وأكرم مثواهم. وكانوا في أمن فلما سمع كفار قريش بذلك أرسلوا وفدا ليأخذوا صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم من النجاشي، أرسلوا عمرو بن العاص وكان داهية من دهاة العرب وعمارة بن الوليد، وأعطوهما تحفا وهدايا فيها الجلود المزخرفة وذلك أحب الأشياء إلى النجاشي، فلما وصلا إلى النجاشي أتحفاه بهدايا وأتحفا كل بطريق من بطارقته بهدايا ليستميلوا لهم قلب النجاشي، فلما أتيا إلى النجاشي قالا له: ظهر فينا قوم أهل فساد أفسدوا

1- (ما خلا يهودي بمسلم قط إلا حدث نفسه بقتله) للديلمي والخطيب عن أبي هريرة، الجامع الكبير ج702/1.

2 - جاء في سير أعلام النبلاء: عن أم سلمة قالت: لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان هو في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله : «إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا» فخرجنا إليه أرسالا، حتى اجتمعنا فنزلنا بخير دار إلى خير جار أمننا على ديننا. سير أعلام النبلاء: ترجمة جعفر بن أبي طالب ج151/1

أرضنا ولحقوا بأرضك مكنا منهم نذهب بهم إلى أرضنا، فإنهم ليسوا على دينك وليسوا على ديننا، لو كانوا على دينك لرضينا عنهم أو على ديننا ولكن ليسوا على دينك ولا على ديننا، وهم من أمرهم كذا وكذا، فأرسل النجاشي إلى جماعة من الصحابة أن يحضروا لمجلسه فحضروا يتقدمهم جعفر الطيار، فلما وصلوا إلى الباب قالوا: السلام عليكم، قالا: سمعت؟ ما حيوك بما يحييك به قومك، هذا دليل على ما نقول لك، قال لهم النجاشي: ولَم لم تحيوني كما يحييني الناس؟ قالوا: حييناك بتحية الجنة وتحية الإسلام وتحية نبينا، قال: أكرم بهذا رضيت، سألهم ما دينهم فقالوا له: كنا أهل جاهلية نعبد الصنم ونقطع الرحم ونفعل ونفعل حتى جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعانا إلى الإسلام عبادة الله وحده وإقام الصلاة والصيام والصدقة والعفاف وصلة الرحم. فقال: ما يقول صاحبكم في صاحبنا عيسى؟ قالوا: "رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" فأخذ عودا صغيرا فقال: ما زاد صاحبكم على ما قال صاحبنا بقدر هذا العود، عندكم شيء من كتابه؟ قالوا: نعم. قال: اقرأوا، فقرأ جعفر سورة مريم، وكان حول النجاشي قسيسون ورهبان فبكوا حتى فاضت دموعهم فقالوا: ما أشبه هذا بما كان يأتي به الروح، فقال النجاشي لمبعوثي المشركين قبحكما الله، أعلى هؤلاء تغرونني؟ وقال للصحابة أنتم سيوم معناه أنتم في أمان، اذهبوا أنتم في سعة من أمركم. فسد أمر الرسولين الذين جاءا من مكة، وقد كانت بينهما عداوة شديدة، فلما رأى عمرو بن العاص أن أمرهما فسد صار يحتال لهلاك صاحبه، فقال لعمارة بن الوليد: أنت رجل جميل وهؤلاء الملوك تملكهم نساؤهم لابد أن تدخل على امرأة الملك وتتودد لها حتى يكون بينكما صداقة لتستميل لنا قلب الملك. فصار عمارة بن الوليد يتردد إلى بيت المرأة، فخلا عمرو بن العاص بالملك قال له: صاحبي رجل سوء احذره

على نسائك فإنه رجل شرير، فدخل النجاشي داره ليلة فلقي عمارة بن الوليد يخرج من بيت زوجته فأخذه وضربه وعذبه ونفخ في إحليله حتى انتفخ بطنه وألقاه في البحر فجن وصار يسير مع الوحوش ورجع عمرو إلى مكة خائبا وأهلك الله عمارة بن الوليد[1].

ثم كتب النجاشي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يخبره بإسلامه[2] وأرسل ولده وسبعين راكبا، فلما توسطوا في البحر غرقوا، وفي تلك المدة توفي زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، فكتب الرسول إلى الملك النجاشي أن يخطبها له صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليها أبرهة رسولا، فلما جاء الرسول إلى أم حبيبة وبشرها بخطبة الرسول صلى الله عليه وسلم أعطته جميع ما وهب لها النجاشي فعقدوا عليها للمصطفى صلى الله عليه وسلم بأربعمائة دينار وهيأوها وأرسلوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قدم بها جعفر يوم رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر، في ذلك اليوم يقول صلى الله عليه وسلم: ما أدري بأيها أفرح بإسلام النجاشي أم بقدوم جعفر[3] أم بعروسي أم بفتح خيبر. وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي[4]

1- قصة تحايل عمرو بن العاص على عمارة بن الوليد أوردها البيهقي في دلائل النبوة ج65/2.

2- نص رسالة النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث ولده ذكرها البيهقي في الدلائل ج79/2.

3 - أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه: عن الشعبي قال: أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له: قد قدم جعفر، فقال: «ما أدري بأيهما أفرح؟ بقدوم جعفر أو بفتح خيبر»، ثم تلقاه النبي فالتزمه وقبل ما بين عينيه. مصنف ابن أبي شيبة: كتاب الجهاد/ باب في تشييع الغزاة وتلقيهم (29417).

4 - قالها صلى الله عليه وسلم حين تحاكم إليه علي وجعفر وزيد في كفالة أم كلثوم بنت حمزة رضي الله عنه كما جاء في صحيح البخاري طرفا من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: (...فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعتهم ابنة حمزة: يا عم، يا عم، فتناولها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخذ بيدها

فرقص جعفر بين يديه صلى الله عليه وسلم[1]. ولما توفي النجاشي أتى جبريل فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن النجاشي توفي فصلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم[2]، قرّبه إليه الملك حتى صار ينظر إليه فصلى عليه. هذا سبب نزول الآية، والصفة عامة لجميع النصارى القسيسين والرهبان، فهم أخف عداوة للمسلمين لزهدهم في الدنيا وأن دينهم ترك الإذاية عكس اليهود فهم أشد عداوة لحبهم

وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك، حملتها فاختصم فيها علي وزيد وجعفر. فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا). كتاب الصلح/ باب كيف يكتب هذا ما صالح عليه فلان بن فلان (2700).

1- أخرج البيهقي في سننه الكبرى عن أبي إسحاق عن هانئ بن هانئ عن علي رضي الله عنه قال: أتينا رسول الله أنا وجعفر وزيد، فقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»، فحجل، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»، فحجل وراء حجل زيد، ثم قال لي: «أنت مني وأنا منك»، فحجلت وراء حجل جعفر. قال الشيخ: هانئ بن هانئ ليس بالمعروف جدا، وفي هذا إن صح دلالة على جواز الحجل، وهو أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى من الفرح، فالرقص الذي يكون على مثاله يكون مثله في الجواز. والله أعلم. سنن البيهقي الكبرى/ باب من رخص في الرقص إذا لم يكن فيه تكسر ولا تخنث (21493). وفي سير أعلام النبلاء: روى حفص بن غياث عن جعفر بن محمد، عن أبيه أن ابنة حمزة لتطوف بين الرجال إذ أخذ علي بيدها فألقاها إلى فاطمة في هودجها، فاختصم فيها هو وجعفر، وزيد، فقال علي: ابنة عمي، وأنا أخرجتها. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. فقضى بها لجعفر، وقال: «الخالة والدة». فقام جعفر، فحجل حول النبي ، دار عليه، فقال: «ما هذا» ؟ قال: شيء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم. سير أعلام النبلاء/ ترجمة جعفر بن أبي طالب ج1/152.

2- نعْيُ الرسول صلى الله عليه وسلم للنجاشي في اليوم الذي مات فيه وصلاته عليه متفق عليه. جاء في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه خرج إلى المصلى فصف بهم وكبر أربعا. كتاب الجنائز/ باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه (1245)، صحيح مسلم: كتاب الجنائز/ باب في التكبير على الجنازة (1582)

للدنيا، من كان حريصا على الدنيا، كلما رأى عبدا رفعه الله يحسده ويعاديه ويحاربه لا محالة. ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من القرآن ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ صدقنا بنبيك وكتابك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ هذه صفة الرهبان والقسيسين «تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ» بكوا حتى فاضت أعينهم من الدمع لكثرة دموعهم. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس المسلمين في سبيل الله)[1]. ﴿وَ﴾ قالوا في جواب من عيرهم بالإسلام من اليهود ﴿مَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ القرآن ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ المؤمنين الجنة، قال تعالى ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالإيمان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هم يدخلون النار. من آمن بالله دخل الجنة ومن كفر بالله دخل النار. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (كلكم يدخل الجنة إلا من أبى، من آمن بي وصدقني وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة، ومن أبى فقد أبى دخول الجنة)[2]. ركب ملك ووصل إلى بلدة كان يعيش فيها أبو يزيد البسطامي، فسأل هل هنا أحد أدركه؟ فقالوا: نعم. هناك شيخ كبار أدرك زمن أبي يزيد فاستحضره الملك فسأله هل ضبطت شيئا من كلامه؟ حفظتَ

1- عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) سنن الترمذي: كتاب فضائل الجهاد/ باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله (1563) وفي الجامع الصغير رقم 5647.

2 - (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" للبخاري عن أبي هريرة: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (7280).

شيئا مما كان يقول؟ قال نعم، سمعته يقول: من رآني لم تمسه النار. قال سبحان الله كيف يكون هذا وأبو جهل رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من أهل النار؟ قال له: أيها الملك فإن أبا جهل لم ير الرسول صلى الله عليه وسلم إنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رأى الرسول صلى الله عليه وسلم لآمن به ولدخل الجنة[1]. ففهم الملك وصدقه. هما صورتان صور الأشخاص وصور المعتقدات، صور المعتقدات إذا وجدت تغني عن صور الأشخاص، وصور الأشخاص إذا ظهرت لم تغن عن صور المعتقدات. ها نحن اليوم في القرن الرابع عشر ما رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا رأينا المعجزات، سمعنا به وسمعنا بالمعجزات ورأينا القرآن فآمنا به وصدقناه. هؤلاء قريش شاهدوا وجهه الكريم ورأوا معجزاته وما آمنوا. الله يرزقنا المعتقدات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم وعظ الصحابة موعظة بليغة رقت منها القلوب وذرفت العيون، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لابد لنا من الرهبانية والاختصاء وترك أكل اللحم والطيب ونصوم أبدا لا نفطر ونصلي أبدا ولا ننام إلى أن نموت، فسمع بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين تقولون إنكم تخرجون للرهبانية وللاختصاء وترك الطيبات؟ قالوا نعم. قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عثمان فإن رهبانية أمتي الجهاد، لا رهبانية في الإسلام، قال: إذا أختصي، قال: اختصاء أمتي الصيام، قال: إذا أطلق المرأة أو لا آتيها أبدا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عثمان، إذا قدرت أن تكون عندك اثنتان أو

1– تفسير روح البيان ج430/2.

ثلاث أو أربع فافعل، فإنك كلما واقعت واحدة ولم يكتب الله لك ولدا تجد وصيفا في الجنة، وإن كتب الله لك ولدا ومات قبلك يكون فرطا وشفيعا يوم القيامة وإن متَّ قبله يكون لك نورا يوم القيامة. قال: إذا لا آكل اللحم، قال: مهلا يا عثمان فإني آكل اللحم كلما وجدته ولو سألت ربي لأطعمنيه كل يوم، قال: أترك الطيب، قال: فإني أتطيب، أمرني جبريل أن أتطيب غِبًّا، وأما في الجمعة فلا بد من الطيب قال: إذا أصلي ولا أنام أبدا وأصوم ولا أفطر، قال: مهلا أنا أصلي وأنام وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتي فليس مني[1]. فنزلت هذه الآية، والآية تناسب ما قبلها، فإن الآية قبلها مدحت القسيسين والرهبان بصفتهم، وهم تركوا الدنيا تماما، فلهذا تخيل لأناس أن ذلك أفضل من تناول الطيبات، فنزلت هذه الآية، يبين لهم أنهم ولو وصف أولئك الرهبان بصفة محمودة فالمسلمون خير منهم فإن الآية تمنع المسلمين من تحريم الحلال كما منعتهم في أول السورة من تحليل

---

1 – أخرج مسلم عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على الفراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال: (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) صحيح مسلم: كتاب النكاح/ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة (2487).

= وخرجه البخاري أيضا عن أنس ولفظه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب الترغيب في النكاح (5063).

الحرام "أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام" محلل الحرام كمحرم الحلال "لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم" المستلذات من الطعام إذا كانت حلالا فلا تحرموها ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾ لا تتجاوزوا أمر الله، المدار مع أمر الله فقط إذا حرم الله شيئا فاتركوه وإذا أحل شيئا فتناولوه ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً﴾ هو الحلال ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[1]، وأشد المسلمين جريمة من سأل عن شيء كان حلالا حتى حرم[2]. «وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ» تناول الطيبات من الرزق غير نقص في حق العبد، نعم من أسرف واشتغل بتحصيل المستلذات من الطعام والشراب ربما يحمله ذلك على الحرص على كسبها فيجره ذلك إلى الاشتغال بالدنيا وترك عبادة الله ونسيان ذكر الله، ومن رفض هذه الطيبات وترهب كما فعل الرهبان، فإن ذلك أيضا ينقص من طبيعته فينقص من عقله، فإن بعض الأطعمة تقوي طبيعة الإنسان وتقوي عقله، والمعرفة مع فقدان العقل مستحيلة، لابد من الفكر ولابد من التفكر وذلك طريقه العقل، والرهبان سلبتهم الرهبانية عقولهم فما وصلوا إلى معرفة الله لأنهم نقصت

---

1 – حديث حسن رواه الدارقطني وغيره عن أبي ثعلبة الخُشَني جرثوم بن ناشر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية.

2– هذا مضمون حديث صحيح متفق عليه، ولفظ البخاري: عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته) كتاب الاعتصام بالسنة/ ما يكره من كثرة السؤال (7289)، وفي صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب توقيره وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه (4349).

عقولهم. والذين اشتغلوا بالدنيا وتكالبوا على الشهوات ونسوا ذكر الله فما وصلوا إلى المعرفة، والغاية حقيقة هي المعرفة. «فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون» ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الكائن في أيمانكم، قال المفسر[1] هو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف، كقول الإنسان: لا والله وبلى والله، وهذا مذهب الشافعي ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمْ﴾ عاقدتم ﴿الْأَيْمَانَ﴾ عليه بأن حلفتم عن قصد ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ إذا حنثتم فيه ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من حلف بالله وحنث عليه الكفارة، والكفارة إطعام عشرة مساكين لكل مسكين مد «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ» لا أعلاه ولا أدناه. اختلف الأئمة في هذا - إطعام عشرة مساكين - فمالك والشافعي قالا لكل مد ويكفي التمليك، وأبو حنيفة يقول يكفي غداء وعشاء لأنه نص بالإطعام، فالإطعام يغني عن التمليك، والقرآن يقول "إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم" والإنسان عادته في إطعام أهله أن يملكهم العيش لا أنه يطعمهم فلهذا يكفي تمليك المساكين لكل مدٌّ، والغداء والعشاء ربما يكون الإنسان غداؤه أقل من مد أو أكثر والسنة بينت أن لكل مسكين مداًّ[2]، فعلى هذا إطعام عشرة مساكين لكل مد، مدٌّ هو الطريق، وإذا أطعم مسكينا كل يوم مدا عشرة أيام أجزأه، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ بما يسمى كسوة كقميص وعمامة وإزار، ولا يكفي دفع ما ذكر إلى مسكين واحد وعليه الشافعي ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما في كفارة القتل والظهار، حملا للمطلق على المقيد ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدا مما ذكر ﴿فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ﴾ كفارته وظاهره أنه لا يشترط التتابع وعليه الشافعي ﴿ذَلِكَ

1- هو جلال الدين السيوطي

2- انظر موطأ مالك: كتاب النذور والأيمان/ باب العمل في كفارة اليمين (906 – 907)

كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ﴾ أن تنكثوها ما لم يكن على فعل بر أو إصلاح بين الناس كما في سورة البقرة[1]. من حلف أن يطيع الله فليطعه، ومن حلف أن يعصي الله فلا يعصه ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونه على ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلاَمُ﴾ الآية الرابعة في الخمر، لما نزلت "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ المسكر الذي يخامر العقل ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار ﴿وَالْأَنصَابُ﴾ الأصنام ﴿وَالْأَزْلاَمُ﴾ قداح الاستقسام، هذان الجزءان كفر، قرن الخمر والميسر بهذين الجزأين تأكيدا لتحريمهما ﴿رِجْسٌ﴾ خبيث مستقذر ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الذي يزينه ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ اجتنبوا الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أراد الشيطان أن يوقع العداوة بينكم عند شرب الخمر لأن عادة شاربي الخمر يجتمعون عليه قصدهم المحبة ولكن إذا شربوا وسكروا وغابت عقولهم تشاتموا وتضاربوا وتقاتلوا، والميسر كذلك. الميسر لعب يجدون به المال بلا كسب، من غلب يأخذ المال ومن غُلب أخِذ ماله ثم يزيد مالا آخر يرجو أن يربح حتى يذهب جميع ماله حتى يرهن نفسه إن لم يجد شيئا، فإذا لم يبق عنده شيء صار يعادي من أدخله في هذا ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾ بالاشتغال بهما ﴿عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الخمر والميسر يصدان عن ذكر الله: في الخمر بغيبوبة العقل وفي الميسر

1- وهو قوله تعالى "ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم" الآية 222 من سورة البقرة.

بالفرح عندما يربح أو بالحزن عندما يخسر، «عن ذكر الله» ﴿وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾ خصها بالذكر تعظيما لها ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ انتهوا عن هذه الأشياء، هذا الاستفهام أمر وهو أبلغ في التحريم من أن يقول انتهوا. وصف الخمر بهذه الأوصاف الخبيثة «رجس من عمل الشيطان» «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة» بعدما شرحت لكم حال الخمر فرأيتموها خبيثة هكذا هل تتركونها؟ قال عمر: اللهم انتهينا، اللهم انتهينا[1]، فحَرُمت الخمر. ليس كما يقول الجهلة إنه سألنا وسكتنا وسكت فقط فبقيت الخمر حلالا، ليس كذلك، هذا أمر بالتحريم أبلغ من الأمر. إنسان يصف لك شرا حتى يصفه لك على حقيقته ويقول لك هل أنت تأتيه؟ أي معناه أنك لا تأتيه أبدا ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ﴾ المعاصي ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الطاعة ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ الإبلاغ البين وجزاؤكم علينا ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ هذه نزلت لما قال المسلمون: إخواننا ماتوا يوم أحد وهم شربوا الخمر و لم يعلموا بتحريمها نخاف أن يجدوا إثما في ذلك فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ﴾ أكلوا من الخمر والميسر قبل التحريم ﴿إِذَا مَا اتَّقَواْ﴾ المحرمات

1- عن أبي ميسرة عن عمر رضي الله عنه قال لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في البقرة فدعي عمر فقرئت عليه فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في النساء "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون قال عمر رضي الله عنه انتهينا انتهينا) سنن النسائي: كتاب الأشربة/ تحريم الخمر (5445)، وفي سنن الترمذي وصححه: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة المائدة (2975)

﴿وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ﴾ ثبتوا على التقوى والإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ استدل بعض الجهلة بهذه الآية على تحليل الخمر[1] قالوا: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا» إنها الخمر، و لم يقبلوا أنها نزلت في الذين ماتوا لإتيان الآية بإذا للمستقبل ولكن ضلوا. «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ» أي أكلوا والطعم هنا الشرب[2] «إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ» نزلت في فئتين بعضهم ماتوا وبعضهم غابوا وقت نزول الآية قبل أن تبلغهم آية التحريم، إذا كانوا يتقون كل ما حرم الله ويمتثلون أمر الله فليس عليهم جناح فيما شربوا حتى تبلغهم الآية. والدين على ثلاثة أركان: الإسلام والإيمان والإحسان، كرر التقوى ثلاث مرات، «ثم اتقوا» في مقام الإسلام «وآمنوا»، «ثم اتقوا» في مقام الإيمان «وأحسنوا» «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ». الإنسان لابد أن يسلم ويؤمن ويحسن ــ الإسلام والإيمان والإحسان ــ والإحسان هو الغاية، فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا مزيد عليه (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[3] «والله يحب المحسنين» قطعوا المسافة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ لما بين ما أحل وما حرم أتى بنوع

1- راجع تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج6/ الصفحات 297 – 299.

2- جاء في تفسير الخازن "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا" أي لا حرج ولا إثم عليهم فيما شربوا من الخمر وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم. ج1/492.

3 – جزء من حديث متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان (50)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (10).

خاص وهو الصيد في حق المحرم أو في الحرم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ ليختبرنكم ﴿اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ يرسله لكم ﴿مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ﴾ تتناوله ﴿أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ الكبار منه وكان ذلك بالحديبية وهم محرمون فكانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿مَنْ يَّخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي غائبا لم يره، فيجتنب الصيد ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النهي عنه فاصطاده ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمون بحج أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم، شبهه في الخلقة ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بالمثل رجلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ لهما فطنة يميزان بها أشباه الأشياء به. وقد حكم ابن عباس وعمر وعلي في النعامة ببدَنة، وابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره ببقرة، وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة، وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما في الحمام لأنه يشبهها في العب، ﴿هَدْيًا﴾ جزاء ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه، ولا يجوز أن يذبح حيث كان ﴿أَوْ كَفَّارَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ أو عليه كفارة طعام مساكين، إطعام مساكين من غالب قوت البلد ما يساوي قيمة الجزاء لكل مسكين مد، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو يعد لكل مد يصوم له يوما، فإن وقع كسر يصوم له يوما كاملا ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ ثقل جزائه، جزاء أمره الذي فعله ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من قتلِ الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ ممن عصاه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس حلالا كنتم أو محرمين ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أما صيد البحر فحلال أن تأكلوه وهو ما لا يعيش إلا فيه كالسمك بخلاف ما يعيش فيه وفي البر كالسرطان ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما يقذفه ميتا، صيد البحر وطعامه فسرهما أبو بكر قال صيد البحر ما تحتال له حتى تصيده، وطعامه ما

وجدت ميتا أو قذفه البحر أو نضب عنه الماء فبقي فتجده بلا كلفة[1] ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وصيد البحر على ثلاثة أقسام: الحيتان حلال بإجماع، والضفادع حرام بإجماع، وما بينهما مختلف فيه ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ﴾ وهو ما يعيش فيه من الوحش ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فلو صاده حلال فللمحرم أكله كما بينته السنة[2] ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ المحرم ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ يقوم به أمر دينهم بالحج إليه ودنياهم بأمن داخله وعدم التعرض له وجبي ثمرات كل شيء إليه. الكعبة بيت الله الذي بمكة جعله الله حرما وجعله آمنا وجعله قياما للناس أي ما يقوم به مصالح دينهم ودنياهم، أما دينهم فالكعبة قبلة المسلمين في سائر أنحاء العالم، ومحل نسكهم حجهم، ومصالح الدنيا للأمن الذي يجده أهل البيت، كانوا في الجاهلية في حروب دائما ليس لهم أمن إلا إذا أتى شهور الحج سعوا لكسب معاشهم كلهم يكسب قوت سنة ويجمعه قبل انقضاء الأشهر الحرم،

1- راجع تفسير ابن كثير ج102/2.

2- كما جاء في حديث أبي قتادة الوارد في الصحيحين بروايات مختلفة، ففي صحيح البخاري حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان هو ابن موهب قال أخبرني عبد الله بن أبي قتادة أن أباه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حاجا فخرجوا معه فصرف طائفة منهم فيهم أبو قتادة فقال خذوا ساحل البحر حتى نلتقي، فأخذوا ساحل البحر فلما انصرفوا أحرموا كلهم إلا أبا قتادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش فحمل أبو قتادة على الحمر فعقر منها أتانا فنزلوا فأكلوا من لحمها وقالوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحم الأتان فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله إنا كنا أحرمنا وقد كان أبو قتادة لم يحرم فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتانا فنزلنا فأكلنا من لحمها ثم قلنا أنأكل لحم صيد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقي من لحمها قال: (أمنكم أحد أمره أن يحمل عليها أو أشار إليها قالوا لا قال: فكلوا ما بقي من لحمها) صحيح البخاري: كتاب الحج/ باب لا يشير المحرم إلى الصيد لكي يصطاده الحلال (1824) ومثله في صحيح مسلم: كتاب الحج/ تحريم الصيد للمحرم (2065)

فكان ذلك قياما لهم أي سبب معاشهم ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب قياما لهم بأمنهم حيث يعلمون أن لا قتال فيكسبون معايشهم ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ﴾ ذكر أربعة أشياء وجعلها أمنا للناس وقياما لهم: الكعبة بنفسها، والشهر الحرام، والهدي، إذا قلّد الإنسان هديا كذلك، والقلائد ﴿ذَلِكَ﴾ الجعل ﴿لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإن جعله ذلك لجلب المصالح لكم ودفع المضار عنكم قبل وقوعها دليل على علمه بما هو في الوجود وما هو كائن ﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأعدائه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمٌ﴾، «شديد العقاب وأن الله غفور رحيم» عادة الله تبارك وتعالى في كتابه كلما ذكر وعيدا قرنه بوعد كما فعل في هذه الآية «اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم» وفي آية أخرى "نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم" وكما قال في آية أخرى "ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد" وقال "من خشي الرحمن" لما ذكر كلمة الخشية قرنها بالرحمن، لو قرنها بشديد العقاب لكان الخوف يغلب الرجاء ولكن كلما ذكر خوفا قرنه برجاء ليكون العبد راجيا وخائفا دائما ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ الإبلاغ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون من العمل ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تخفون منه فيجازيكم ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ﴾ الحرام ﴿وَالطَّيِّبُ﴾ الحلال ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ سرك ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في تركه ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية أنهم أكثروا من سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم حتى غضب صلى الله عليه وسلم يوما وقال: (سلوني والله لا يسألني أحد عن شيء ما دمت في موقفي هذا إلا

وأجبته) فقام رجل يقال له عبد الله بن حذافة كان يُتهم أنه ينسب إلى غير أبيه فقال له: يا رسول الله من أبي؟ قال: أبوك حذافة، وقام رجل وقال: يا رسول الله أين أبي؟ قال له: أبوك في النار، فبرك عمر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أكثر من قوله: سلوني سلوني سلوني، برك عمر فقال: رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا لا نسأل عن شيء، فنزلت هذه الآية[1]. وسأله رجل أيجب علينا الحج كل عام؟ فسكت وقالها الرجل ثلاثا. قال: ذروني ما تركتكم فلو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[2] إن الله تبارك وتعالى أحل أشياء وحرم أشياء وسكت عن أشياء غير غافل فلا تبحثوا عن ذلك. كل ما لم يذكر فيه تحريم ولا تحليل فهو مما سكت الله عنه وهو معفو عنه فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ﴾ تُظهر ﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لما فيها من المشقة ﴿وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا﴾ إذا سألتم عن الأشياء ﴿حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ﴾ أي في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ إذا سألتم عن أشياء في زمنه لابد أن ينزل القرآن بإبدائها، ومتى أبداها ساءتكم فلا

1- صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (7294)، صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب توقيره وترك إكثار سؤاله (4353). وقد ذكره السيوطي في أسباب النزول.

2 - عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) صحيح مسلم واللفظ له: كتاب الحج/ باب فرض الحج مرة في العمر (2380)، وفي صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الإقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (7288).

تسألوا عنها قد ﴿عَفَا اللّهُ عَنْهَا﴾ عن مسألتكم فلا تعودوا ﴿وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ﴾ زجر المسلمين عن تحريم الحلال، ومحرم الحلال كمحلل الحرام. ﴿مَا جَعَلَ اللّهُ﴾ ما شرع الله ﴿مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾ كان كفار قريش جعلوا أشياء من إبلهم لأصنامهم "بحيرة" هي التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، أول من بحر البحائر وسيب السوائب عمرو بن لحي. كان قريش على دين إبراهيم إلى زمن عمرو فهو أول من خصص هذه الحيوانات لطواغيتهم، فتتابع عليه قريش. قال الرسول: رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه في النار[1]. السائبة: كانوا يسيبوها لآلهتهم فلا يحمل عليها. والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنى بأنثى، كانوا يسيبوها لطواغيتهم أيضا، الوصيلة وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. والحام: فحلُ الإبل يضرب ضرابا معدودا فإذا قضى ضرابه

1 – جاء في صحيح البخاري: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال سمعت سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبوها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب) كتاب المناقب/ باب قصة خزاعة (3521).
وفيه عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام (4624) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (5096) وفي رواية (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصبه في النار وكان أول من سيب السيوب) (5097).

ودعوه للطواغيت. ما أشد حماقتهم. ما شرع الله لهم هذه البحائر ولا السوائب ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في ذلك ونسبته إليه ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء لأنهم قلدوا فيه آباءهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ إلى حكمه من تحليل ما حرمتم ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا﴾ كافينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من الدين والشريعة، تلك عادتهم كلما جاء مرشد قالوا «حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا» قال تعالى ﴿أَ﴾ حسبهم ذلك ﴿وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق، والاستفهام للإنكار. تقليد الآباء إذا كان الآباء مهتدين فالحمد لله وإذا ضلوا لابد من الضلال. ودين الآباء لا يتركه الأبناء غالبا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ احفظوها وقوموا بصلاحها ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قيل المراد لا يضركم من ضل من أهل الكتاب، وقيل المراد غيرهم لحديث أبي ثعلبة الخشني: سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك) رواه الحاكم[1]. هذه الآية ليست للسكوت عن الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، بل

1 - ورواه كذلك الترمذي وأبو داود وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" قال: أما والله لقد سألتَ عنها خبيرا، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم) وفي رواية قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: (بل أجر خمسين منكم). سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة المائدة (2984) وفي سنن أبي داود: كتاب الملاحم/ باب الأمر والنهي (3778)

هي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الكفار واليهود والنصارى جانب، والمسلمون جانب. «عليكم أنفسكم» أي أنفسكم أنتم جميع المسلمين. الإنسان لا يهتم إلا بنفسه وبإخوانه المسلمين يأمرهم وينهاهم «لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» إذا كان النصارى واليهود في ضلال وأنتم المسلمون على هداية فلا يضركم ذلك، فلهذا لما توهموا أن الآية في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه) إذا فسدت الدنيا حتى لا ينفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعند ذلك عليكم بخويصة أنفسكم[1] ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ مرجعكم جميعا إلى الله ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أصعب آية إعرابا وتفسيرا ومعنى وحكما. سبب نزولها أن تميما الداري وعديا أخاه[2] وكانا نصرانيين على دين النصارى سافرا إلى الشام معهما بديل مولى عمرو بن العاص السهمي. وبديل مسلم ورفيقاه نصرانيان تميم الداري وعدي أخوه، فلما توسطوا الطريق مرض بديل وكتب كتابا فيه أسماء جميع متاعه وأخفاه في داخل المتاع، وأوصاهما: إذا أنا مت فأبلغا هذا المتاع إلى عمرو بن العاص السهمي، فمات ففتشا المتاع ورأيا جاماً إناء من فضة مرصعا بثلاثمائة مثقال من الذهب فباعاه بألف دينار واقتسماه بينهما، فلما رجعا إلى المدينة سلما المتاع إلى عمرو

1- في رواية لابن ماجه: (عليك خويصة نفسك) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب "يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم (4004).

2- هو عدي بن بدّاء وقد ذكر أخوهما القرطبي في تفسيره نقلا عن الواقدي، الجامع لأحكام القرآن ج347/6.

ففتش فرأى الكتاب وقرأ ما فيه فرأى ذكر الجام، فأتاهما قال لهما: صاحبكما لعله باع شيئا من متاعه قبل موته؟ قالا: لا، ما وصل إلى محل السوق، مات في الطريق. قال: لعله طال مرضه فتصرف في بعض ماله؟ قالا: لا. قال: إذا هذا جام من فضة قيمته كذا وكذا ذكره في كتابه. قالا: ما رأيناه، فأتى عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره. فنزلت الآيتان، وبعد مدة وجد الجام في مكة، بل أسلم تميم الداري وأقر بصدق القرآن أنهما سرقا الجام وباعاه بألف دينار ورد هو خمسمائة دينار وذهب إلى ورثة صاحبه فأخذ منهم خمسمائة دينار. في تلك القضية نزلت هذه الآيات[1] ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ ليشهد بينكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أسبابه ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ الذي يكفي من الشهادة رجلان مسلمان ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ إذا لم يجدوا مسلمين يشهد آخران من غير ملتكم كتميم وعدي ﴿إِنْ﴾ ضربتم ﴿أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ توقفوهما ﴿مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ﴾ من بعد صلاة العصر ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يحلفان ﴿بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم فيها ويقولان ﴿لاَ نَشْتَرِي بِهِ﴾ بالله ﴿ثَمَنًا﴾ عوضا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا﴾ إن كتمناها

1- أخرجه البخاري والترمذي، ففي صحيح البخاري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا من ذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وجد الجام بمكة فقالوا ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلان من أوليائه فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية "يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت" صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم" (2780) ومثله في سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة المائدة (2986). وقد وردت القصة مفصلة في لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي عند ذكره سبب نزول "يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الآية"

﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ فدعاهما الرسول صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر وأوقفهما وحلفا، كافران لم يباليا بالحلف حلفا بالله كذبا ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ وبعد زمن اطلع بعد حلفهما على أنهما كذبا، أقر تميم لما أسلم ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ إذا يأتي الورثة فيقسمان بدل الكافرين من أقرباء الميت ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلما نزلت الآية الثانية أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن العاص فوقف وأقسم هو وصاحب له أقسما بالله أن النصرانيين كاذبان فيما أقسما عليه وأن الجام هما اللذان سرقاه. فحكم عليهما الرسول صلى الله عليه وسلم فلما أسلم تميم أقر بصدق القرآن ورد المال ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور من رد اليمين على الورثة ﴿أَدْنَى﴾ أقرب إلى ﴿أَنْ يَأْتُواْ﴾ الشهود ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ لما انتقل الحلف إلى الورثة ذلك أقرب لإثبات الحق من تكرار حلف الكافرين لأنهما لا يخافان الله تبارك وتعالى ﴿أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ على الورثة ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ بترك الخيانة والكذب ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ ما تؤمرون به سماع قبول ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته لا يهديهم إلى سبيل الخير. واذكر ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ هو يوم القيامة. عادة الله تبارك وتعالى إذا ذكر أحكاما في كتابه حتى تقررت الأحكام يعظنا بالآخرة. اذكر يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم توبيخا لقومهم ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ ما الذي أجبتم حين دعوتم إلى التوحيد ما قال قومكم؟ ﴿قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ بذلك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ما غاب عن العباد، ذهب عنهم علمه لشدة هول يوم القيامة وفزعهم ثم يشهدون على أممهم لما يسكتون. ذكر أن الرسل لشدة الفزع «قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب». وبعد ذلك لما رجع إليهم عقولهم شهدوا على أممهم أنهم

بلغوهم وأنهم كذبوهم. وهذا ينافي "لا يحزنهم الفزع الأكبر" إذا كان بعض المسلمين آمنين في ذلك اليوم فمن باب أولى الأنبياء والرسل، إنما تأدبوا مع الله تبارك وتعالى ووكلوا العلم إليه فهو علام الغيوب. يقال علاّم ولا يقال لله تبارك وتعالى علاّمة، لعل ذلك للتاء التي تشبه التأنيث، يقال عالم وعلاّم. واذكر ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هو أول من يخاطب يوم القيامة لضلالة قومه ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ بشكرها ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ أيدتك ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ طفلا ﴿وَكَهْلاً﴾ يفيد نزوله قبل الساعة لأنه رفع قبل الكهولة كما سبق في آل عمران ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ الكتابة كان حسن الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ كان يعرف التوراة قبل الإنجيل وأنزل الله عليه الإنجيل بعد ذلك ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ تصور صورة مثل الخفاش ﴿بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي﴾ أخبر الله عيسى روح الله أنهم يأتونه بشيء من الطين فيصوره خفاشا فينفخ فيه فيطير بإذن الله. الخفاش أكمل الطيور لا ريش لها ولا تبيض إنما تلد كما تلد الحيوانات وترى الحيض وتضحك وتبصر في الظلام ولا تبصر في الضوء[1]. أخبر الله عيسى روح الله بأنه إذا صور طينا ونفخ فيه يخرج طائرا شبه الخفاش حتى يغيب عن الناس فيسقط ميتا فرقا بين خلق الله وخلق الحادث ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ إذا أوتي بإنسان ولد أعمى أو أبرص مسحه فيبرأ ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم ﴿بِإِذْنِي﴾ كان يحيي الموتى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا﴾ الذي جئت

1- انظره في القرطبي ج94/4.

به ﴿إلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أمرهم على لسانه ﴿أَنْ ءامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى ﴿قَالُواْ ءامَنَّا﴾ بهما ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يفعل ﴿رَبُّكَ﴾ قراءتان: هل تستطيع ربَّك[1]، تقدر أن تسأل ربك أو هل يستطيع يفعل ربُّك ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ﴾ لهم عيسى ﴿اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في اقتراح الآيات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُواْ نُرِيدُ﴾ سؤالها من أجل ﴿أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُنَا﴾ بزيادة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ﴾ نزداد علما ﴿أَنْ﴾ أنك ﴿قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادعاء النبوة ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لما بينوا سبب سؤالهم قام عيسى وتوضأ ولبس الصوف وصلى ركعتين وقال هذا الدعاء ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا﴾ يوم نزولها ﴿عِيدًا﴾ نعظمه ونشرفه ﴿لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ ممن يأتي بعدنا ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ على قدرتك ونبوتي ﴿وَارْزُقْنَا﴾ إياها ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ﴾ مستجيبا له ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ فنزلت الملائكة بها من السماء عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات فأكلوا منها حتى شبعوا. قاله ابن عباس. وفي حديث (أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما فأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير)[2]. عيسى عليه الصلاة

1- جاء في التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي قوله : وقرئ تستطيع بتاء الخطاب ربَّك بالنصب أي هل تستطيع سؤال ربك، وبها قرأت عائشة رضي الله عنها. ج193/1. وعند القرطبي أنها قراءة علي وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والكسائي ج364/6.

2- أخرجه الترمذي عن عمار بن ياسر، سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة المائدة (2987)

والسلام طلب قومُه أن تنزَّل لهم مائدة من السماء فصلى ركعتين ودعا الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء "اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء" فإذا بسحابة فوقها سحابة وبينهما المائدة حتى نزلت أمام عيسى عليه الصلاة والسلام فقال: ليفتح أتقاكم لله تبارك وتعالى وأقدسكم يفتح هذا، قالوا: ذلك أنت، قال له شمعون: افتحه أنت ففتح عيسى فإذا سمك ليس له شوك مطبوخ بعضه بالزيتون وبعضه بالعسل فيها كل ألوان الطعام. فقال لهم عيسى كلوا واشكروا الله تبارك وتعالى ولا تدخروا فكل يوم يأتيكم ولا تخونوا امتثلوا أمر الله واتركوا نواهيه. فمن أكل من هذا الطعام إن كان فقيرا يصير غنيا وإن كان مريضا يصير صحيحا وإن كان حقيرا يصبح جليلا، فأكلوا فكان الأمر كذلك. ثم بعد ذلك تنازعوا فيها وأخذوا وادخروا فدعا عليهم عيسى فمسخوا قردة وخنازير[1] كما توعدهم الله «فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين». هذه المائدة نزلت يوم الأحد فلهذا اتخذ النصارى يوم الأحد يوم عيد عندهم إلى يومنا هذا. كما أن اليهود اتخذوا يوم السبت يوم عيد عندهم فلهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم أنتم الآخرون السابقون اليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى هذا اليوم الذي أعطوا فاختلفوا فيه فهداكم الله إليه هو يوم الجمعة)[2]. أعياد المسلمين عند فراغهم من عباداتهم. إن

1- ابن كثير ج2/119.

2- جاء في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد) كتاب الجمعة/ باب فرض الجمعة (876). ولمسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم

الله تبارك وتعالى خلق الدنيا سبعة أيام، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سبعة أيام)[1] أولها السبت وآخرها الجمعة، والله أوجب علينا خمس صلوات في اليوم والليلة إذا أتى يوم الجمعة وهو اليوم السابع فقد استكملنا ما علينا من الصلوات في الأسبوع. عند فراغ ما علينا من الصلاة في الأسبوع أعطانا الله يوم الجمعة عيدا، فلهذا نصلي يوم الجمعة ركعتين بخطبة لأن العيد لا بد فيه من خطبة، الخطبتان قامتا مقام الركعتين الباقيتين. الظهر أربع ركعات ركعتان هما الخطبتان وركعتان هما الصلاة، هذا عيد فراغ المسلمين من صلاتهم. والعيد الثاني عيد فراغهم من صيامهم هو يوم الفطر، والعيد الثالث هو عيد فراغهم من حجهم هو عيد النحر. المسلمون لهم ثلاثة أعياد والله تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة في الجنة في أيام الأعياد فمن كان لا يرى في العام إلا عيدين: الفطر والأضحى يرى الله في الجنة في كل عام مرتين ومن كان له عيد الجمعة يرى الله في كل أسبوع، وأهل الأوراد عيدهم كل صباح ومساء يرون الله كل يوم صباحا ومساء، والعارفون أعيادهم عدد أنفاسهم لأن كل أنفاسهم مع الله تبارك وتعالى فصارت أعيادهم في الجنة عدد أنفاسهم وكل عيد لابد أن يروا الله تبارك وتعالى فيه[2]. وعيد غيرنا كل أمة عيدها بانتصارها، إذا رأيت أمة تحتفل بعيد فهو يوم انتصارها فقط ونحن عيدنا عند فراغنا من عبادة ربنا.

فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له قال يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى) كتاب الجمعة/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (1413).

1- (الدنيا سبعة أيام من أيام الآخرة) الجامع الصغير 4277.

2- راجع روح البيان ج2/ 464 – 465.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ يقول ﴿اللَّهُ﴾ لعيسى في القيامة هو أول من يحاسب ويخاطب يوم القيامة توبيخا لقومه، يقول الله وهو يتجلى باسمه المنتقم ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَاَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ سأله الله وهو يعلم أن عيسى لم يقل هذا ﴿قَالَ﴾ عيسى وقد أرعد من شدة الخوف ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك عما لا يليق بك من الشريك وغيره ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما ينبغي ﴿لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ خبر ليس لي ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ هذا القول إذا كنت قلته فقد علمته ﴿تَعْلَمُ مَا﴾ أخفيه ﴿فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا﴾ تخفيه ﴿فِي نَفْسِكَ﴾ من معلوماتك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ وهو ﴿أَنُ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيبا أمنعهم مما يقولون ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قبضتني بالرفع إلى السماء ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من قولي لهم وقولهم بعدي وغير ذلك ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع عالم به ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ من أقام على الكفر منهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لمن آمن منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه. أجاب عيسى كان جوابه المختصر: ما قلت لهم هذا، ولكن هذا يكون فيه سوء أدب. ما قال عيسى: ما قلته، أطال الكلام أدبا مع الحضرة ولم يصرح بأنه ما قال هذا بل قال: «إن كنت قلته فقد علمتَه تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» بهذا الأدب فاق، الأنبياء يعرفون الأدب مع الحضرة «إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» بدلا من أن يقول: ما قلت هذا. كما يقول إبراهيم "وإذا مرضت فهو يشفين" المرض لما كان نقصا ما أسنده إلى الحق تبارك وتعالى، أسنده إلى نفسه وهو لم يمرض نفسه ولكن "إذا مرضتُ فهو يشفين"

الشفاء الذي هو خير أسنده إلى الرب والمرض الذي هو شر أسنده إلى نفسه هكذا آداب الأنبياء مع الحضرة. «إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» هذه الآية أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم حتى بات ليلة كاملة يصلي بها ما زاد عليها «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»[1] ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ في الدنيا كعيسى ﴿صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بثوابه ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ولا ينفع الكاذبين في الدنيا صدقهم فيه كالكفار لما يؤمنون عند رؤية العذاب ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائن المطر والنبات والرزق وغيرها ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ أتى بما تغليبا لغير العاقل ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه إثابة الصادق وتعذيب الكاذب وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر.

1- أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد في مسنده، ففي سنن النسائي أخبرنا نوح بن حبيب قال حدثنا يحيى بن سعيد القطان قال حدثنا قدامة بن عبد الله قال حدثتني جسرة بنت دجاجة قالت سمعت أبا ذر يقول قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أصبح بآية والآية "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" سنن النسائي: كتاب الافتتاح/ باب ترديد الآية (1000) ومثله في سنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل (1340).

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده: عن أبي ذر قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" فلما أصبح قلت يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها قال إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئا) مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث أبي ذر الغفاري (20365)

سورة الأنعام

مكية إلا "وما قدروا الله" الآيات الثلاث وإلا "قل تعالوا" الآيات الثلاث

وهي مائة وخمس أو ست وستون آية

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ القرآن قسمان سور مكية وسور مدنية، امتازت السور المكية بأنها أوجز وأبلغ لأن المخاطبين قريش هم العرب الفصحاء البلغاء يفهمون من العربية ما لا يفهم غيرهم، والسور المدنية يكون فيها البسط الطويل والإطناب، لأن المخاطبين اليهود وهم ليسوا كقريش في الفهم والذكاء فاحتاجت السور المدنية إلى بسط الكلام أكثر من السور المكية فلهذا تجد الفصاحة والبلاغة والنظم والإعجاز في القرآن سواء المكي منه والمدني، ولكن الإيجاز أكثر في السور المكية منه في السور المدنية لهذه العلة. والقرآن معجز فصاحته وبلاغته وحسن نظمه والإخبار بالغيب وعدم تناقضه وكونه جديدا مع مرور الأيام دائما، لا يوجد شيء أدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن. النبي صلى الله عليه وسلم أمي نشأ في قوم أميين في قفر من الأرض ما رأى عالما قط ولا جالس عالما قط، وهو بنفسه لا يقرأ كتابة ولا يكتب، وما جالس كاتبا ولا قارئا، فأتى بهذا الكتاب الذي تعجزنا سورة منه نتدارسها ليلا ونهارا وتنفلت منا، وهو لا يكتب ولا يقرأ فأتانا بهذا الكتاب، والذي نزل في مكة والذي نزل في المدينة كله على نسق واحد من فصاحة وبلاغة وبراعة ونظم. فلهذا خاطبنا تبارك وتعالى "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" المؤلف منا إذا ألف في التاريخ أو في أي شيء فمكث عنده أعواما فراجعه لا بد هو بنفسه يبدل شيئا ويغيره لتطور الزمن لاسيما إذا نقده غيره، تجد كتب التاريخ التي كتبت في

زمن ماض لا تناسب زمننا هذا، وهذا القرآن مضى الآن أربعة عشر قرنا والقرآن جديد مع كل قرن لا يأتي حادث يناقض القرآن أبدا، فكل أمة وكل دولة تصنع دستورا إذا مضى أعوام تجاوز الزمن ذلك الدستور وتحتاج لتغييره حتى السنغال الآن صاروا يغيرون دستورهم منذ أربعة أعوام. والقرآن دستور الكل في كل زمان وفي كل مكان لا يأتي حادث يناقض القرآن أبدا أو يكذب القرآن. والذي جاء به أمي وُلد في أرض الجبال، ما رأى بحرا قط، ولا حاضرة قط، هذا لا يأتي إلا من عند الله تبارك وتعالى. الحمقى رموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه تعلم هذا الكتاب من غيره قالوا لعله من سفره إلى الشام، نعم النبي لما بلغ اثني عشر عاما خرج به أبو طالب إلى الشام، فلما قربوا من الشام قال له الرهبان: ارجع بهذا الغلام لا يراه اليهود فهم حُسد فيقتلونه فرجع به أبو طالب[1]، في تلك المدة يمكن أن يتعلم هذا القرآن من أحبار اليهود في الشام؟ رموه بسخافة أخرى كان قين يقال له جبر في مكة، قين نصراني قرأ الكتب السابقة وكان يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتدت إذاية قريش على النبي صلى الله عليه وسلم يصبره ويشجعه ويقول له: الأنبياء قبلك هكذا كان يفعل بهم، يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم. كان إذا اشتدت به الإذاية ذهب صلى الله عليه وسلم وجلس عنده لما يؤنسه من كلامه، فقالوا: عرفنا الآن من أين تعلم محمد هذا القرآن، من هذا القين. والقين لا ينطق بعربية لابد لهما من ترجمان "إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" ما تدبروا القرآن "أفلا يتدبرون القرآن"؟

1- سفره صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب قاصدين الشام أخرجه الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن قيس، سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب ما جاء في بدء نبوة النبي صلى الله عليه وسلم (3553).

هذه السورة مكية سورة الأنعام، نزلت مرة واحدة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم، هذه السورة شيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح، فلما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكتابتها كلا في ليلة واحدة[1] قال الرسول صلى الله عليه وسلم: من قرأ هذه السورة وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون له مثل عبادهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة معه مرزبة من حديد فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له ضربه فيكون سبعون حجابا بينه وبين الشياطين، ويوم القيامة إذا بعث من قبره يقول الرب "يا إنسان سر في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، وادخل جنتي واشرب من الكوثر فأنت عبدي حقا وأنا ربك"[2] وثلاث آيات من أول هذه السورة من قرأها كل يوم عصمه الله

---

1 - ذكره القرطبي قال: وفي الخبر أنها نزلت جملة واحدة غير الست آيات وشيعها سبعون ألف ملك مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك وهي "وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو" نزلوا بها ليلا لهم زجل بالتسبيح والتحميد فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكُتاب فكتبوها من ليلتهم. وأسند أبو جعفر النحاس قال: حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو حاتم روح بن الفرج مولى الحضارمة قال حدثنا أحمد بن محمد أبو بكر العمري قال حدثنا ابن أبي فُدَيك حدثني عمر بن طلحة بن علقمة بن وقاص عن نافع بن سهل بن مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نزلت سورة الأنعام مها موكب من الملائكة سد ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض لهم ترتج ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سبحان ربي العظيم ثلاث مرات. القرطبي ج382/6.

2 - ذكر الثعلبي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى قوله ويعلم ما تكسبون" وكل الله به أربعين ألف ملك يكتبون مثل عبادهم إلى يوم القيامة وينزل ملك من السماء السابعة ومعه مرزبة من حديد فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له أو يوحي في قلبه شيئا ضربه ضربة فيكون بينه وبينه سبعون حجابا فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى " امش في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي وكل من ثمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسبيل فأنت عبدي وأنا ربك. من تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج383/6.

من الشياطين وكتب له عدد ما نزل مع السورة من الملائكة سبعين ألفا عباداتهم إلى يوم القيامة ولم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بدأ هذه السورة بهذه الكلمة وكل سورة بدأها الله بهذه الكلمة لابد أن يستكمل فيها نعيم الدنيا والآخرة هي في أول الفاتحة وفي أول الأنعام وفي أول الكهف وفي أول سبأ وفي أول فاطر ﴿الْحَمْدُ﴾ الوصف بالجميل ثابت ﴿لِلَّهِ﴾ الثناء لله تبارك وتعالى، الحمد كله لله لا لغيره، نعم إذا أكرمك إنسان تشكره وتحمده وإذا أكرمك مِلك تشكره وتحمده. لا يشكر الله من لا يشكر الناس[1]، كيف يكون الحمد لله وحده؟ الحمد كله لله، الحمد إذا كان لله فهو لله، وإذا كان لغير الله فهو لله، إما أن يكون وصفه أو فعله حمد العبد لربه وحمد الرب لعبده، وحمد العبد للعبد وحمد الرب لنفسه كل هذا لله تبارك وتعالى "نعم المولى ونعم النصير" الحامد الله والمحمود الله "نعم العبد" أيوب، الحامد الله والمحمود عبده فالكل لله. العبد يقول الحمد لله، الحامد العبد والمحمود الله، هذا لله، وإذا حمد عبد عبدا فالكل لله تبارك وتعالى. ذكر اسم الله الذي هو أعظم الأسماء ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات للناظرين ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ كل ظلمة ونورٍ أو ظلمات الكفر ونور الإيمان. الله هو الذي خلق السماوات والأرض تراهما وخلق الظلمات وخلق النور، جمع الظلمات وأفرد النور لكثرة أسباب الظلمات ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع قيام هذا الدليل ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعدلون يسوون بربهم غيره في

1- أخرج الترمذي في سننه وصححه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) سنن الترمذي: كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك (1878). وكذا أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة: مسند المكثرين/ باب مسند أبي هريرة (7191).

العبادة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بخلق أبيكم آدم منه ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ لكم تموتون عند انتهائه ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب ﴿عِندَهُ﴾ لبعثكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيها الكفار ﴿تَمْتَرُونَ﴾ تشكون في البعث بعد علمكم أنه ابتدأ خلقكم ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المعبود المستحق للعبادة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ ما تسرون وما تجهرون ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ تعملون من خير وشر ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ أهل مكة ﴿مِنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ من القرآن ﴿إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ﴾ القرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ﴾ عواقب ﴿مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ في أسفارهم إلى الشام ﴿كَمْ﴾ كثيرا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أمة من الأمم الماضية ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ أعطيناهم مكانا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالقوة والسعة ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ﴾ ما لم نعط ﴿لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ متتابعا ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ تحت مساكنهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بتكذيبهم الأنبياء ﴿وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مكتوبا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ رق كما اقترحوه ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أبلغ من عاينوه لأنه أنفى للشك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تعنتا وعنادا ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿مَلَكٌ﴾ يصدقه هلا جاء ملك من السماء؟ قال ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ كما اقترحوا فلم يؤمنوا ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بهلاكهم ﴿ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ لو جاء الملك لهلكوا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ هذا سر كبير، وهذا الملك الذي طلبوا لو أتى لصار رجلا ينظرونه، لابد أن يأتي على صورة رجل ليتمكنوا من رؤيته إذا لم يعلموا هل الرجل ملك أم لا؟ لأنه لو جاء ملك لكان رجلا ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ لابد أن يقع لبس ﴿وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ بنو آدم فيهم

ملائكة، الإنسان خلق فيه قابلية لأن يكون شيطانا، وفيه قابلية لأن يكون بهيمة، وفيه قابلية لأن يكون سبعا، وفيه قابلية لأن يكون ملَكا. إذا جاهد نفسه وطهرها وردها إلى أصلها يكون من جنس الملائكة، فإذاً لو جاء ملَك لجاء رجلا «وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ» ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فكذا يحيق بمن استهزأ بك ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الرسلَ من هلاكهم ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ لا جواب غيره ﴿كَتَبَ﴾ قضى ﴿عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فضلا منه وفيه تلطف في دعائهم إلى الإيمان ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليجازيكم ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ كل شيء، فهو ربه وخالقه ومالكه. قال في بداية السورة «خلق السماوات والأرض» هذا المكان، المكان السماوات والأرض «وله ما سكن في الليل والنهار» هذا الزمان. استغرق الزمان والكائن في الزمان، والمكانَ والكائنَ في المكان، كل هذا له تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أعبدُه ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ يرزق ﴿وَلاَ يُطْعَمُ﴾ لا يُرزَق ﴿قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لله قال المفسر: من هذه الأمة[1]، ﴿وَ﴾ قيل لي ﴿لاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ به ﴿قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿مَنْ يُّصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أراد الله به الخير ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بلاء كمرض وفقر ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَّمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ كصحة وغنى ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال الرسول صلى الله عليه

1- يعني جلال الدين السيوطي.

وسلم (يا غلام أعلمك كلمات: اتق الله يحفظك، اتق الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك وإن اجتمعت الأمة على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا)[1] تفسير هذه الآية «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير» ﴿وَهْوَ الْقَاهِرُ﴾ القادر لا يعجزه شيء مستعليا ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ وَهْوَ الْحَكِيمُ﴾ في خلقه ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطنهم ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ نزل لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ائتنا بمن يشهد لك بالنبوة فإن أهل الكتاب أنكروك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ إن لم يقولوه لا

---

1 - أخرج الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف" رواه الترمذي وقال حسن صحيح، سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق/ (2440).

= وفي رواية أحمد عن ابن عباس أنه قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى، فقال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا) مسند أحمد: مسند بني هاشم/ بداية مسند عبد الله بن العباس (2666).

جواب غيره هو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَن بَلَغَ﴾ ومن بلغه القرآن، فلهذا كل من بلغه القرآن فكأنما أنذره النبي صلى الله عليه وسلم مشافهة من الجن والإنس[1] وفيه تأويل «لأنذركم به ومن بلغ» وكلّ بالغ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ﴾ لا أشهد بذلك ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ معه من الأصنام ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ به ﴿وَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ توبيخا ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أهم شركاء لله ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتَهُمْ﴾ معذرتهم ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾ إلا قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال تعالى ﴿انظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ بنفي الشرك عنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَنْ يَّفْقَهُوهُ﴾ أن لا يفقهوه ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمما فلا يسمعونه سماع قبول ﴿وَإِنْ يَّرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا﴾ ما هذا القرآن ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ﴾ أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ كالأضاحيك والأعاجيب جمع أسطورة بالضم، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ نزلت في أبي طالب كانوا إذا أرادوا الإيمان بالنبي منعهم وإن أرادوا قتله منعهم أيضا ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنْهُ﴾ عن إتباع النبي

1- جاء في تفسير المراغي: أخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال: من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ثم قرأ "وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به". المراغي ج93/7 ولابن كثير ج127/2.

صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ يتباعدون ﴿عَنْهُ﴾ فلا يؤمنون به ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ عرضوا ﴿عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿وَلاَ نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لو رأيت هذا لرأيت أمرا عظيما ﴿بَلْ﴾ للإضراب ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ يكتمون بقولهم «والله ربنا ما كنا مشركين» ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إلى الدنيا فرضا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ من الشرك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. هذه الآية هي أدل دليل على أن الآية لا تحمل على الإيمان. أكبر آية هي يوم القيامة، ولما رأوا يوم القيامة وما فيه، قال الله تبارك وتعالى إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر أيضا ﴿وَقَالُواْ﴾ منكرو البعث ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لرأيت أمرا عظيما ﴿قَالَ﴾ لهم على لسان الملائكة ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ البعث ﴿بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنه لحق ﴿قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي ندامتنا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ بأن تأتيهم عند البعث في أقبح شيء صورة وأنتنه ريحا فتركبهم[1] ﴿أَلاَ سَاءَ﴾ بيس ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ يحملون ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الاشتغال بها ﴿إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ الجنة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر لعلمهم أنك صادق ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ يكذبون

1- قاله السيوطي في تفسير الجلالين ج11/2.

بألسنتهم وهم مصدقون بقلوبهم ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بإهلاك قومهم فاصبر حتى يأتيك النصر بإهلاك قومك ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ﴾ مواعيده ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ما يسكن به قلبك ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ عظُم ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإسلام لحرصك عليهم ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ سربا ﴿فِي الْأَرْضِ أو سُلَّمًا﴾ مصعدا ﴿فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا فافعل، المعنى أنك لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللّهُ﴾ هدايتهم ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ولكن لم يشأ ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ﴾ يا محمد ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بذلك. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس السادس عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ دعاءك إلى الإيمان ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار ﴿وَالْمَوْتَى﴾ الكفار شبههم بالموتى في عدم السماع ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يردون فيجازيهم بأعمالهم. أخبر الله تبارك وتعالى نبيه أنه لا يقدر أن يسمع الكفار لأنهم موتى والله يقدر أن يسمعهم لأنه قادر على بعثهم. يستجيب ويجيب معناهما ليس واحدا يستجيب معناه استجابة قبول بخلاف يجيب، يجيب بقبول أو مخالفة، أما يستجيب فليس إلا لقبول. الذين يسمعون سماع تفهم واعتبار يستجيبون دعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيؤمنون بالله، والموتى لا يستجيبون أبدا ولكن سيبعثهم الله إن شاء في الدنيا أو في الآخرة ثم يرجعون إليه. جعل الكفار موتى فالكافر كأنه ميت في قبره مقبور في جسمانيته، جسد بلا روح هذا ميت، والجسد إذا خلا من الروح يكون منتنا، ويكون فيه الدم والصديد، المصلحة فيه أن يدفن تحت الأرض. والجسد إذا كان فيه روح بلا عقل يكون صاحبه مجنونا، إذا خلا من العقل يتصرف تصرف المجانين، وإذا كان فيه روح وعقل بلا معرفة يكون العقل كأنه شيء ضائع لا ينتفع به، وإذا كان فيه معرفة فهذا هو الحي الذي ينتفع بحياته. إذاً المعرفة روح روحِ الروح، المعرفة روح العقل،

والعقل روح الروح، والروح روح الجسد فلما خلوا عن جميع هذه الأرواح صاروا موتى فسماهم الله "موتى"، وَإن شاء أحياهم بالروح والعقل والمعرفة فيستجيبون لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يرجعون إليه فيجازيهم بأعمالهم، هذا البعث إن شاء في الدنيا بإرسال هذه الأرواح وإلا فهم في الآخرة لابد يبعثون ويرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿وَقَالُواْ﴾ كفار مكة ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِن رَّبِّهِ﴾ هلا نزل على الرسول آية من ربه كالناقة التي استخرجها صالح من الجبل والعصا كعصا موسى والمائدة مائدة عيسى؟ طلبوا آيات من النبي صلى الله عليه وسلم لا كما يقول بعض الجهلة، فبعض الجهال من الفرق الضالة يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم ما أرى معجزة لو رأوا معجزة ما قالوا «لولا نزل عليه آية من ربه» وهو يجيب بقوله "قل إن الله قادر على أن ينزل آية" معنى هذا عندهم أن النبي صلى الله عليه وسلم ما أظهر ولو معجزة واحدة، وهذا ليس هو المراد بل الرسول صلى الله عليه وسلم لو فرضنا أننا ما شاهدنا أي معجزة لكفاه القرآن معجزة، لأن الله تحدى بسورة وهي ثلاث آيات، فتضمن القرآن أكثر من ألفي معجزة، ولكن هم اقترحوا الآيات مع وجود الآيات تعنتا وعنادا، قالوا يأتينا بناقة كناقة صالح وعصا كعصا موسى، ومائدة كمائدة عيسى، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ مما اقترحوا الله قادر على ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن نزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها، منعهم من نزول الآيات لأنهم إذا رأوا هذه الآيات بعدما اقترحوها و لم يؤمنوا يهلكوا في الحال. وقد سبق أن أمة محمد لا تهلك، فلهذا منعهم الله من الآيات التي اقترحوا، واقتراح الآيات بعد وجود الآيات تعنت وعناد. والله تبارك وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء قال "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا"، "ولو شاء الله لجمعهم على الهدى" إذا هو

أراد في الأزل أن قسما من عباده يهديهم إلى الجنة – جعلنا الله وإياكم منهم – وقسما لا يهديهم فيشْقون ويذهبون إلى النار، إذًا الآيات لا تهدي أحدا، أكبر الآيات يوم القيامة، وقد تقدم بالأمس[1] "ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه"، لو شاهدوا يوم القيامة وما فيه من العجائب ورجعوا إلى الدنيا لرجعوا كفارا، إذاً الآيات لا تجدي شيئا، الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. سبق في الأزل أن الله تبارك وتعالى أخذ قبضة من البشر وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وأخذ قبضة وقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي[2]. فمن كان في القبضة النورانية يهديه الله ومن كان في الأخرى لا يقدر أحد أن يهديه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تمشي ﴿فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ﴾ في الهواء ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في تدبير خلقها ورزقها وأحوالها، الحيوانات في الدنيا إما شيء يدب على الأرض وكل ما يدب على الأرض فهو من جنس الدواب، أو طائر يطير في الهواء فهو من جنس الطيور. ذكر الأرض لأن الخلق في السماء غير داخل في هذا، فهم كلهم مؤمنون طائعون "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" أما دواب الأرض وكل ما يطير في الهواء فكلهم أمم أمثالكم. وما ذكر حيوانات البحر لأنها تدخل في الدواب، لأنها إن كان مشيها في البحر دبيبا فهي من جملة الدواب، وإن كان السبح في البحر طيرانا فهي من جملة الطيور، إذًا لما ذكر الدواب والطيور ذكر كل ما خلق الله على وجه الأرض في البر

---

1 – في نهاية الدرس الخامس عشر.

2 – جاء في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال على مواقع القدر) مسند أحمد: مسند الشاميين/ حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي (17000).

والبحر كلهم أمم أمثالكم، إن الله دبر خلقها ورزقها وجميع أحوالها. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها ولكن اقتلوا الأسود منها فإنه شيطان)[1].

وقال (إن أول ما تفقدون من الأمم الجراد والبقر)[2] فهذا يفسر لنا أن كل الدواب والحيوانات أمم أمثالنا. «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ» يدبر الله خلقها ورزقها وأحوالها، أو أمم أمثالكم متشابهة معكم، فكل إنسان فيه خلق حيوان من الحيوانات فمن كان صابرا مثل الجمل، ومن كان حاقدا كذلك مثل الجمل، ومن كان مفترسا كالأسد، ومن كان يتتبع العورات كالذباب لا حاجة له في الجسد الصحيح إنما في محل القروح فقط، كلهم أمم أمثالكم. ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ فلم نكتبه ﴿ثُمَّ إِلَى

1- أخرج الترمذي في سننه وصححه وأصحاب السنن عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها كلها فاقتلوا منها كل أسود بهيم) سنن الترمذي: كتاب الأحكام والفوائد/ باب ما جاء في قتل الكلاب (1406) ويروى في بعض الحديث أن الكلب الأسود البهيم شيطان كما جاء في صحيح مسلم من حديث جابر : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب حتى إن المرأة تقدم من البادية بكلبها فنقتله ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها وقال: (عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان) صحيح مسلم: كتاب المساقاة/ باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه (2938).

2 - أورد ابن كثير في تفسيره حديثا عن جابر بن عبد الله قال: قل الجراد في سنة من سني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاغتم لذلك فأرسل راكبا إلى كذا وآخر إلى كذا وآخر إلى الشام وآخر إلى العراق يسأل هل رئي من الجراد شيء أم لا؟ قال فأتاه الراكب الذي من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثلاثا ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة في البحر وأربعمائة في البر وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا انقطع سلكه) ابن كثير ج132/2.

رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيقضى بينهم ويقتص للجماء من القرناء ثم يقول لهم كونوا ترابا[1]. الله أخبر في هذه الآية أنه ذكر كل شيء يُحتاج إليه في الكتاب وهو اللوح المحفوظ في تأويل أو هو القرآن «ما فرطنا في الكتاب» الذي هو القرآن «من شيء» إن كان القرآن فاستشكلوا هذا أن بعض العلوم الطبية وعلوم الحساب ونحو ذلك ما أتى بها القرآن تفصيلا وإن أتى بالكل إجمالا، قالوا إن معنى «ما فرطنا في الكتاب من شيء» من أمر الدين، كل ما يحتاج إليه من أمر الدين بيّنه القرآن وذلك كمعرفة الله تبارك وتعالى في ذاته وصفاته وأسمائه. تضمن القرآن من هذا ما لم يتضمنه كتاب، والأحكام كتبيين الحلال والحرام كذلك، وأنواع العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج كذلك، بيّن من هذا النوع ما لم يبين كتاب كمثله، وإذا كان الدين هو المعتبر لمّا بيّن الدين بيّن كل شيء. أو «ما فرطنا في الكتاب من شيء» من أمر الدنيا والآخرة، لا يوجد شيء إلا وهو في القرآن وهذا هو الحق. جلس الشافعي يوما فقال: سلوني، لا تسألوني عن مسألة إلا وأجبت عنها بالقرآن، قال له سائل: المحرِم يقتل زنبورا؟ قال: نعم، لا شيء عليه. قال له: أين هذا في القرآن؟ قال له: قال الله تعالى "وما آتاكم الرسول فخذوه"، والرسول صلى الله عليه وسلم قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)، وعمر قال: لا شيء على المحرم في قتل الزنبور. استخرج هذا الحكم من القرآن: من قول عمر وقول عمر من سنة الرسول، وسنة الرسول قال القرآن "وما آتاكم الرسول

1- القرطبي ج421/6، ابن كثير ج132/2.

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"[1] بل في القرآن كل شيء، يقول ابن عباس حتى عقال بعيري إذا ضل علي أقدر أن أجده في القرآن[2].

حكاية: كنت بالرباط في العام الماضي[3]، فكنا في محل اجتمع فيه النصارى والمسلمون والصبيان، فقال نصراني وهو يعلم العربية: القرآن يقول "ما فرطنا في الكتاب من شيء" وأنا رأيت شيئا ليس بصغير كبيرا جدا والقرآن ما ذكره قال له صبي: وما هو؟ قال له: القرآن ذكر مكة قرية، وذكر مصر قرية، وأنا أعلم قرية أكبر منهما بكثير والقرآن ما سماها. قال له الصبي: وما هذه القرية؟ قال له: باريس. قال له: ذكرها القرآن "سأريكم دار الفاسقين". كنت أنتظر إذا عجز الغلام أجيبه فأجابه الغلام بجواب أحسن من كل جواب. قال له: قال الله "سأريكم دار الفاسقين" هذه باريس. «ما فرطنا في الكتاب من شيء» ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيقضى بينهم ويقتص للجماء من القرناء[4]. سئل الشافعي عن هذه السفن البحرية والبرية من أين ذكرها في القرآن؟ قال:" والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" إن هذه السفائن كلا دخلت في "ويخلق ما لا تعلمون". سُئلتُ عن هذه المسألة في المدينة، ذكرت لهم جواب الشافعي وقلت لهم: وأنا أرى جوابا ثانيا "وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله

1- وردت هذه الحكاية في تفسير روح البيان ج27/3.

2- قول ابن عباس: "لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى" جاء في كتاب الإتقان في علوم القرآن نقلا عن تفسير ابن أبي الفضل المرسي، ج26/4.

3 - يعني عام 1382 هـ

4- جاء في مسند أحمد عن عثمان بن عفان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الجماء لتقص من القرناء يوم القيامة) مسند أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ مسند عثمان بن عفان (489).

إلا بقدر معلوم" ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ القرآن ﴿صُمٌّ﴾ عن سماعها سماع قبول ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن النطق بالحق ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر ﴿مَنْ يَّشَإِ اللَّهُ﴾ إضلاله ﴿يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَّشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام. كان أبو جهل جالسا يوما فأتاه إبليس وقال له: خذ صنمك هذا وضعه عند الرسول صلى الله عليه وسلم لعلك تسمع منه ما يسرك وكان صنم أبي جهل مرصعا بالجواهر واليواقيت، فحمل أبو جهل صنمه ووضعه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال له: هذا محمد يشتمنا ويسب آلهتنا ويعيرنا دائما وأنت إلهنا فلا تغني في ذلك عن شيء. فدخل الشيطان في الصنم وتكلم، فصار يسب النبي صلى الله عليه وسلم ويشتمه، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بيته فدق عليه البابَ آت، قال له: مرني بما شئت أفعله، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: من أنت؟ قال: أنا جني كنت في الأرض السابعة فلما تكلم الصنم بين يديك بما تكلم به، دعاني جبريل أني آتي وقد قتلت الشيطان الذي تكلم في جوف الصنم وجئتك لتأمرني بما شئت، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: ما قوتك؟ قال له: أقدر أن أجمع بين جبلَيْ أبي قبيس وقويقعان وأدمر ما بينهما. قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: حسبي الله، قال له: ارجع إلى الصنم، ورجع النبي صلى الله عليه وسلم فصار الصنم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، أنا صنم لا أغني، لا أنفع ولا أضر، أنا صنم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، آمِنوا بمحمد الحق معه. فغضب أبو جهل وكسره وقال: سحر محمد كل شيء حتى سحر الأصنام[1]. هذا لو شاء الله هدايته لهداه ولكنه لم يشأ ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ

1- تفسير روح البيان ج29/3.

أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة المشتملة عليه بغتة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ لا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الأصنام تنفعكم فادعوها ﴿بَلْ إِيَّاهُ﴾ لا غيره ﴿تَدْعُونَ﴾ في الشدائد ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أن يكشف عنكم الضرر ونحوه ﴿إِن شَاءَ﴾ كشفه ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ تتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾ معه من الأصنام فلا تدعونه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلا فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ﴾ شدة الفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون فيؤمنون ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ هلا تضرعوا إذ جاءهم بأسنا أي لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضي له ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلم تلن للإيمان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي فأصروا عليها ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظوا وخوِّفوا ﴿بِهِ﴾ من البأساء والضراء فلم يتعظوا ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم استدراجا لهم ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ﴾ فرح بطر ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ أهلكناهم بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ آيسون من كل خير ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ آخرهم بأن استؤصلوا ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على نصر الرسل وإهلاك الكافرين. يجب الحمد على كل حال. الحمد على السلامة والحمد على هلاك الأعداء والحمد عند النعماء. حمد نوح، وحمْد نوح للسلامة "قيل اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك" والحمد لله رب العالمين. أما أمة محمد فهم الحمادون سموا في الكتب السالفة بأهم هم الحمادون، رسولهم محمد وأحمد، وكتابهم رأسه الحمد لله رب العالمين، إذا أكلوا قالوا الحمد لله، وإذا شربوا قالوا الحمد لله، وإذا لبسوا قالوا الحمد لله، وإذا انتبهوا قالوا الحمد لله، وإذا ماتوا قيل الحمد لله، وإذا بعثوا قالوا الحمد لله، وإذا دخلوا الجنة قالوا الحمد لله، ورايتهم يوم القيامة لواء الحمد. الأمة الحمادون التي مدحت في التوراة

والإنجيل هي هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين، إذا أنعم الله على عبده يقول الحمد لله، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا وقع بلاء يقول الحمد لله على كل حال، الحمد عند البلاء لأن كل بلاء ولو بلغ ما بلغ من الشدة كان في قدرة الله تبارك وتعالى أن يكون أشد مما هو عليه، فإذا يجب عليه الحمد على كل حال. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ إن أصمكم الله ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أعماكم ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ طبع عليها فلا تعرفون شيئا ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بما أخذه منكم بزعمكم لو أخذ الله هذه الثلاثة، من أجلّ نعم الله على عبده القوة السامعة، يقدم القرآن السمع على البصر دائما لأن تعلق الإيمان بالسمع أشد من تعلقه بالبصر، الإنسان يسمع آيات الله ولو كان أعمى، يؤمن بالله ولولا السمع لما أمكنه الهداية أبدا. فالسمع أنفع من البصر، هذه القوة السامعة وهذه القوة الباصرة وهذه القوة المدركة القلب، نِعَم ثلاث لو أخذها الله تبارك وتعالى لا يجد العبد من يأتيه بها أبدا ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالة على وحدانيتنا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ هم كانوا يعبدون آلهة ولكن لا يقدرون أن يزعموا أن آلهتهم تأتيهم بهذا ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ ليلا أو نهارا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون أي ما يهلك إلا هم ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر بالنار ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بهم ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يخرجون عن الطاعة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ التي منها يرزق ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ لا أقول لكم إني أعلم الغيب ما غاب عني ولم يوح إلي ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الملائكة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ الكافر ﴿وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ

تَتَفَكَّرُونَ﴾ ذكر في هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعي أن عنده خزائن الله ولا يدعي علم الغيب ولا يدعي أنه ملك، فالدعوى قبيحة وإن كانت صحيحة، «لا أقول لكم» هذا لا يدل على أنه ليس عنده «لا أقول لكم عندي خزائن الله» وإن كان عندي خزائن الله «ولا أعلم الغيب» لا أقول لكم إني أعلم الغيب وإن كنت أعلم الغيب «ولا أقول لكم إني ملك» وإن كنت أجلّ قدرا من الملائكة «إن أتبع إلا ما يوحى إلي». الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتبع إلا ما يوحى إليه وهذا يوافق قوله "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" بهذا تمسك بعض العلماء الذين قالوا إن الرسول ليس له الاجتهاد، «إن أتبع إلا ما يوحى إلي»، "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" والصحيح أنه له أن يجتهد وإذا اجتهد يكون من جملة الوحي بدليل آية "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله" إذا اجتهد ورأى رأيا يكون مما أمر الله به في القرآن فهو اجتهاده وحي، وصدق من قال إنه يجتهد، ومن قال إنه لا يجتهد إن يتبع إلا ما يوحى إليه. ومنهم من أبطل القياس، فالحكم الشرعي القرآن والسنة فقط، والقياس أتت به آية أخرى "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"، "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في ذلك ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ﴾ غيره ﴿وَلِيٌّ﴾ ينصرهم ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بإقلاعهم عما هم فيه. ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ سبب نزول هذه الآية أن كبراء المشركين أتوا لمجلس النبي صلى الله عليه وسلم فوجدوه صلى الله عليه وسلم جالسا معه عمار وبلال وصهيب وسلمان الفارسي فقراء المسلمين أهل الصفة، فخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم:

أما تستحيي أن تجالس هؤلاء؟ اطردهم إن أحببت أن نؤمن بك ونجالسك. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما أنا بطارد المؤمنين، قالوا: إذاً اتخذْ لنا مجلسين مجلسا تجالس فيه الفقراء، وإذا جئناك تعزلنا نحن في مجلس وحدنا حتى نذهب ثم تجالسهم إن شئت. فقال عمر للرسول صلى الله عليه وسلم إنه يقبل منهم هذا لينظروا هل يهتدوا أم لا فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل منهم ذلك رغبة في هدايتهم فقالوا: مر من يكتب لك كتابا بذلك فدعا عليا وأراد أن يكتب فنزلت هذه الآية[1] «وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» لا شيئا من أعراض الدنيا وهم الفقراء وكان المشركون طعنوا فيهم وطلبوا أن يطردهم ليجالسوه، فقال عمر: أعتذر إليك يا رسول الله، لأنه أشار إلى قبول هذا الرأي[2]. وهذا نوح عليه الصلاة والسلام لما أمروه بطرد ضعفاء المؤمنين قال "ما أنا بطارد

---

1 – أخرج مسلم عن سعد قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه". صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ في فضل سعد بن أبي وقاص (4434).

= وفي سنن ابن ماجه عن خباب قال جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم فأتوه فخلوا به وقالوا إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه". سنن ابن ماجه: كتاب الزهد/ باب مجالسة الفقراء (4117).

2– ذكره ابن كثير في تفسيره ج2/136.

المؤمنين" والرسول صلى الله عليه وسلم أولا أجاب "ما أنا بطارد المؤمنين" ولكن لسعة رحمته لما طلبوا منه أن يجعل لهم مجلسين رغبة في إسلامهم مال إلى هذا الرأي حتى نهاه الله تبارك وتعالى، وهذا لا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم خالف أو أنه غير معصوم لقوله في آخر الآية "فتطردهم فتكون من الظالمين" لأنه ما عزم على طردهم إنما على مداراة هؤلاء وهو يقول (بعثت مداريا فداروا)[1] فلما نزلت الآية طرد النبي صلى الله عليه وسلم المشركين وصمم على مجالسة الفقراء ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ هم قالوا هؤلاء ليسوا بصادقين في إسلامهم إنما هم فقراء يعيشون بمجاورتك فقط ﴿مِن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن فعلت ذلك. الناس على أقسام أبناء الدنيا يريدون الدنيا فقط "من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب" وأبناء الآخرة يريدون الآخرة "ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا" وأهل الله يريدون وجه الله تبارك وتعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» لا يريدون دنيا ولا أخرى. الخواص اجتذبهم الحق من يد الدنيا فخصهم للآخرة، وأما خواص الخواص فسلبهم الدنيا والآخرة واختصهم لمشاهدة وجهه الكريم. هم أهل الله[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ ابتلينا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إن الله تبارك وتعالى باين بين الحظوظ فجعل شريفا ووضيعا وغنيا وفقيرا، فتنة فتن بها بعضهم ببعض. الشريف والغني إذا شكروا الله تبارك وتعالى وتواضعوا للفقير

1- (بعثت بمداراة الناس) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر، الجامع الصغير (3151).

2- (الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا والدنيا والآخرة حرام على أهل الله) للديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس. الجامع الصغير (4269).

والوضيع كان ذلك شكرا منهم، وإذا تكبروا وحرموا حق المسكين فقد بطروا نعمة الله. والوضيع والفقير إذا حسدا فما شكرا، وإن صبرا فقد شكرا نعمة الله تبارك وتعالى. الناس غني شاكر أو فقير صابر، اختلفوا في أيهما أفضل قيل الغني الشاكر وقيل الفقير الصابر لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إليه الفقراء من المسلمين: ذهب إخواننا الأغنياء بجميع الخيرات عنا، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويحجون كما نحج ويجاهدون كما نجاهد ويتصدقون بفضل أموالهم ويعتقون الرقاب ونحن ليس عندنا شيء، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ابشروا فإن لله منزلة في الجنة ما يسكن فيها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير، وإن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم من أيام الآخرة[1]، وقولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، من قال هذا منكم إن تصدق أحد مثل جبل أحد ذهبا ما لحق بأجره، ففرحوا وذهبوا وصاروا يذكرون هذا، وغدا رجعوا إليه: الأغنياء لما بلغهم ما لقنت لنا ذكروه معنا قال: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[2] ﴿لِيَقُولُوٓاْ﴾ الشرفاء والأغنياء منكرين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ

1- في سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا أبشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمس مائة عام) سنن ابن ماجه كتاب الزهد/ باب منزلة الفقراء (4114)

2 - أخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة. قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سمع إخواننا

مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ بالهداية، لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا إليه، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بالشاكرين له فيهديهم؟ بلى، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِئَايَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ﴾ قضى ﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ إن الله تبارك وتعالى بشر هذه الأمة بأنه كتب على نفسه الرحمة، يقول رحمتي سبقت غضبي[1]، ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ ارتكب معصية بجهالة، الجهالة جهالتان: جهالة ضلالة كجهالة الكفار، وجهالة جهولية، جهالة الخواص. الجهل جهلان: جهل بالله وحقوق ألوهيته الموجب خلود صاحبه في النار، والجهل الذي هو عين المعرفة بالله هو الجهل بكنه الذات من حيث ما هي هي الموجب لخلود صاحبه في الجنة، "وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا"، فإذاً من عمل منكم سوء بجهالة ﴿ثُمَّ تَابَ ﴾ رجع ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد عمله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَإِنَّهُ﴾ الله ﴿غَفُورٌ﴾ له ﴿رَحِيمٌ﴾ به. «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم» هذا السلام هو التحية بين المسلمين فيما بينهم في الدنيا وبه يسلم عليهم المَلَك إذا دخلوا الجنة "سلام عليكم طبتم" حتى يسلم عليهم الرب "سلام قولا من رب رحيم". «كتب ربكم على نفسه الرحمة» أول ما أوجد الله تبارك وتعالى القلم، فقال له: اكتب، نطق القلم: ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما كان وما

أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء". صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (936)، وفي صحيح البخاري: كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة (843)

1- في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي) صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم (7422). ولمسلم عن أبي هريرة بلفظ: قال الله عز وجل سبقت رحمتي غضبي) صحيح مسلم: كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (4940).

هو كائن إلى يوم القيامة[1]، فصار يكتب، اكتب: نوح عليه الصلاة والسلام إني سأرسله إلى قومه فمن آمن به أدخلته الجنة ومن كفر به أدخلته النار. اكتب: إبراهيم كذلك، اكتب: موسى كذلك، عيسى كذلك. اكتب: محمدا، فكتب محمدا وقال: أرسله إلى أمته فمن آمن به أدخلته الجنة ومن كفر به.. نطق الجليل: تأدب يا قلم، هذا الحبيب، فارتعد القلم حتى شق، فصار لا يكتب إلا إذا شق، فقال: ماذا أكتب؟ قال: اكتب: أمة محمد أمة مذنبة وأنا رب غفور ورحمتي سبقت فيهم غضبي. الحمد لله. هذا معنى "كتب على نفسه الرحمة" ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ القرآن ليظهر الحق فيُعمل به ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تظهر ﴿سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ طريق المجرمين فتجتنَب ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ في عبادتها ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إن اتبعتها ﴿وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿مِن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ وقد كذبتم "به" بربي حيث أشركتم ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ سألوه أن ينزل العذاب عاجلا، أجاب «ما عندي ما تستعجلون به» من العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ في ذلك وغيره ﴿إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ﴾ يقول ﴿الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ الحاكمين ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأن أعجله لكم وأستريح ولكنه عند الله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ متى يعاقبهم ﴿وَعِندَهُ﴾ تعالى ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه أو الطرق الموصلة إلى علمه ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ لا يعلم الغيب إلا الله تبارك وتعالى، وهي الخمسة التي في قوله تعالى "إن الله عنده علم

1- أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب فقال: ما أكتب قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد) سنن الترمذي: كتاب القدر/ باب ما جاء في الرضى بالقضاء (2081).

الساعة" الآية، ذكر في هذه الآية أن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ومفاتح الغيب فسرها الحديث[1] بآية لقمان "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت" وقد رأينا كثيرا من الأولياء والصالحين يخبرون عن هذه الأشياء قبل وقوعها فيأتي صدق ما أخبروا به، وهذا لا ينافي "لا يعلمها إلا هو" لأن هذا من علم الله تبارك وتعالى. الغيب الذي لا يعلمه إلا الله غيب واحد هو قيام الساعة فقط، وأما "ينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت" كل هذا علمه عند بعض عباد الله تبارك وتعالى بعلم الله[2]، يقول الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه إنه إذا مات ودفن واستُخرج وسئل عن هذه الخمسة لأخبر بها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ﴾ القفار ﴿وَالْبَحْرِ﴾ القرى التي على الأنهار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِالَّيْلِ﴾ يقبض أرواحكم عند النوم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ كسبتم ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ في النهار برد أرواحكم ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هو أجل الحياة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مستعليا ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قاهرهم

1- جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير". صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو (4627).

2- قال الصاوي في حاشيته على الجلالين عند قوله تعالى "وعنده مفاتح الغيب" فلا ينافي أن بعض الأنبياء والأولياء يطلعه الله على بعض المغيبات الحادثة، ج2/19.

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحصي أعمالكم ﴿حَتَّى إِذَا جَا أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أسبابه ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ توفاه الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ لا يقصرون فيما يؤمرون به. الله تبارك وتعالى خلق الخلق بلا واسطة، والخلق اتخذوا وسائط بينهم وبين الله تبارك وتعالى فجازاهم على ذلك فوكل ملكا يقبض أرواحهم، هو كما خلقهم أولا بلا واسطة كان قادرا على أن يتوفاهم بنفسه بلا واسطة، ولكن لما اتخذوا الوسائط واحتجبوا بها جازاهم على ذلك فاتخذ واسطة عند موتهم. ومن عباد الله المكرمين – جعلنا الله وإياكم منهم – من يتولى الله قبض روحه بلا واسطة الملك تكريما له. الإنسان أجله مكتوب، وملك الموت هو الموكل على قبض أرواح البشر. دائما الديوان الذي فيه أسماء البشر بين يديه ينظر إلى اسم كل أحد، فإذا مرض الشخص نظر إلى اسمه وقد اغبر وإذا انمحى تماما علم أن أجله انقضى وإذا انمحى وبقي محل كتبه بياضا علم أن هذا الذي انقضى أجله مؤمن، فيأمر ملكا بيمينه أنه يقبض روح فلان وليرفق به فهو مؤمن، إذا انمحى الاسم وسقطت الورقة – كل نفس لها ورقة من سدرة المنتهى – وإذا انمحى الاسم وبقي أسود علم أن الذي انقضى أجله كافر بالله فيأمر ملكا بشماله يأخذ روح هذا الكافر بعنف. جلس النبي صلى الله عليه وسلم يوما فمر به ملك الموت قال له: إن الله أمرني بقبض روح فلان قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارفق به فهو مؤمن، قال له طب نفسا فإني أرفق به[1]، هذا معنى قوله "والنازعات غرقا والناشطات

---

1 – روى جعفر بن محمد قال سمعت أبي يقول: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن"، فقال ملك الموت: يا محمد طب نفسا وقر عينا فإني بكل مؤمن رفيق واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى أني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم

نشطا". ملك الموت له وكلاء على قبض الأرواح، والله تبارك وتعالى حقيقة هو القابض للأرواح، فلهذا قال:"قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم" وقال هنا: "توفته رسلنا" ومرة أخرى "الله يتوفى الأنفس حين موهّا" القابض حقيقة هو الله تبارك وتعالى، ويوكل الملك، الملَك إذا أُمر بقبض روح عبد يقبضها، وعبد لم يؤمر بقبض روحه هو عاجز عن التعرض له. والعبد، وكّل الله تبارك وتعالى عليه ملائكة يحرسونه واحد عن يمينه وواحد عن شماله، وواحد بين يديه وواحد خلفه والحافظان اللذان يكتبان كل ما قدم من عمل صالح أو سيء، ومن غلبة رحمته رقيب على يمين الإنسان وعتيد على يساره، ورقيب هو الأمير على عتيد، إذا عمل حسنة، أمر بكتبها عشر مرات أو أكثر إلى سبعمائة، وإذا عمل سيئة لا يكتب عتيد إلا إذا أمره رقيب يقول أمهله ست ساعات إن تاب أو استغفر أو عمل خيرا فلا تكتب، فإذا مضى ست ساعات ولم يستغفر العبد ولم يعمل خيرا، قال له: اكتبها مرة واحدة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ويل لمن غلبت آحاده أعشارَه)[1] الحسنة بعشر أمثالها والسيئة لا تكتب إلا سيئة واحدة وإن استغفر في مدة ست ساعات لا تكتب، فمن غفل حتى صارت هذه الآحاد أكثر من هذه العشرات فهو غافل والله الموفق ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ مالكِهم الحق الثابت العدل ليجازيهم ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ فيهم ﴿وَهْوَ أَسْرَعُ

بأنفسهم، والله يا محمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها. تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج93/14.

1- (ويل لمن غلبت آحاده أعشاره) طرف من حديث نقله القرطبي قال: ورد في الخبر (الحسنة بعشر أمثالها وأزيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره) القرطبي ج151/7.

﴿الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك[1]. سئل سيدنا علي كيف يحاسب الله الخلق في نصف نهار؟ قال: كيف يغذيهم في نصف نهار؟[2] يغذيهم كلا ولا يعجزه ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَنْ يُّنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أهوالها في أسفاركم حين ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ علانية ﴿وَخُفْيَةً﴾ سرا تقولون ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ لئن أنجانا الله ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الظلمات والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المؤمنين ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهُ يُنجيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غم سواها ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ به ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَّبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الله قادر على أن يمطر على الأمة بحجارة من السماء أو صيحة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالخسف ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ فرقا مختلفة الأهواء ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال، لما نزلت هذه الآية «عذابا من فوقكم» قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بوجهك) وقال «أو من تحت أرجلكم» قال: (اللهم إني أعوذ بوجهك) ولما قال: «أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض» قال: (اللهم إني أعوذ بوجهك) قال: جف القلم، مضى القدر على ذلك فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (هذا أهون وأيسر)[3] فلهذا لا تزال الأمة مختلفة يذيق بعضهم بأس بعض. ابتدأ بقتل عثمان بن عفان

1- ذكره السيوطي في الجلالين ج93/1.

2- انظره في القرطبي ج435/2.

3 - في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بوجهك) "أو من تحت أرجلكم" قال: (أعوذ بنور وجهك) "أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذه أهون أو أيسر). كتاب تفسير القرآن/ باب "قل هو القادر" الآية (4628).

رضي الله عنه وهلم جرا. سلطان الألوهية إذا تعلق بشيء لا يرده نبي مرسل ولا ملك مقرب. أجلُّ الأنبياء مقاما عند الله ثلاثة محمد وإبراهيم وموسى. إبراهيم لما أراد الله هلاك قوم لوط وأراد أن يشفع فيهم "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك" ولم ينفع فيه الخليل. وموسى لما كان العرب في جاهليتهم لا يعرفون إلها ولا رسولا وكانوا يقاتلون بني إسرائيل، وبنو إسرائيل في ذلك الزمن مسلمون وهؤلاء كفار في جاهليتهم لكن فيهم من هو جد للمصطفى صلى الله عليه وسلم أراد موسى أن يدعو على هؤلاء العرب فزُجر من الحضرة أنه لا يدعو عليهم[1]. سلطان الألوهية. والنبي صلى الله عليه وسلم لما قال: "أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض" قال: (اللهم إني أعوذ بوجهك) قال: جف القلم. ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ الدالات على قدرتنا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ﴾ القرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الصدق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بجبار فأجازيكم إنما أنا منذر وأمركم إلى الله – وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت يقع فيه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد لهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ القرآن بالاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ لا تجالسهم ﴿حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ حملك على النسيان فقعدت معهم ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ إذا تذكرت فلا تقعد معهم ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال المسلمون إن قمنا كلما خاضوا فلن نستطيع أن نجلس في المسجد وأن نطوف فنزل ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ الخائضين ﴿مِن شَيْءٍ﴾ إذا جالسوهم

1- جاء في الجامع الكبير للسيوطي: لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلا وقعوا على عسكر موسى فانتهبوه فدعا عليهم موسى فقال يا رب هؤلاء ولد معد قد أغاروا على معسكري فأوحى الله إليه يا موسى لا تدع عليهم فإن منهم النبي الأمي. الجامع الكبير ج/657.

﴿وَلَكِنْ﴾ عليهم ﴿ذِكْرَى﴾ تذكرة لهم وموعظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخوض ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي كلفوه ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ باستهزائهم به ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا تتعرض لهم هذا قبل الأمر بالقتال ﴿وَذَكِّرْ﴾ عظ ﴿بِهِ﴾ القرآن ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أن تُسلم نفس إلى الهلاك ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عملت ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿وَلِيٌّ﴾ ناصر ﴿وَلاَ شَفِيعٌ﴾ يمنع عنها العذاب ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ تفد كل فداء ﴿لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ ما تفدي به ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾ أنعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا﴾ بعبادته ﴿وَلاَ يَضُرُّنَا﴾ بتركها وهو الأصنام ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ نرجع مشركين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ إلى الإسلام ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أضلته ﴿الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ متحيرا لا يدري أين يذهب ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ رفقة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ ليهدوه الطريق ويقولون له ﴿ائْتِنَا﴾ فلا يجيبهم فيهلك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وما عداه ضلال ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ بأن نسلم ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ﴾ وبأن ﴿أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ﴾ اتقوه تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة للحساب ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محقا ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وذلك الشيء هو يوم القيامة، يقول للخلق قوموا فيقومون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الصدق الواقع لا محالة ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ القرن النفخة الثانية من إسرافيل، لا ملك فيه لغيره "لمن الملك اليوم لله الواحد القهار" ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب وما شوهد ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في خلقه ﴿الْخَبِيرُ﴾ بباطن الأشياء كظاهرها.

سئل الرسول صلى الله عليه وسلم: ما الصور؟ قال: قرن خلقه الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام وفيه ثقبة كل روح من جميع الحيوانات وإذا أراد الله انقراض هذا الخلق يأمر الملك بالنفخ في الصور فينفخ في الصور "ففزع من في السماوات ومن في الأرض" فينفخ ثانية "فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله" فينفخ ثالثة فيبعث الله كل من كان قد مات[1].
النفخ حقيقة نفختان: نفخة الصعق الذي يموت منه جميع الخلائق ونفخة البعث، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما بين النفختين أربعون) قيل لأبي هريرة: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قيل: أربعون يوما؟ قال: أبيت[2]. يعني أَبَى عن تفسيره لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما فسره، "بين النفختين أربعون" إن كان (أربعون)

---

1 – ورد في تفسير ابن كثير: روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتابه المطولات قال حدثنا أحمد بن الحسن المقري الأبلي حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طائفة من أصحابه فقال: "إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر" قلت يا رسول الله وما الصور؟ قال: القرن، قلت: كيف هو؟ قال: "عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماوات والأرض ينفخ فيه ثلاث نفخات، النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ويأمره فيطيلها ويديمها فلا يفتر". تفسير ابن كثير ج147/2.

2 – أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (بين النفختين أربعون) قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت قال: أربعون شهرا؟ قال أبيت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب قوله تعالى ونفخ في الصور ... الآية (4814)، وفي صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب ما بين النفختين (5253).

سنة أو (أربعون) شهرا أو (أربعون) يوما الله أعلم. إذا نفخ في الصور حتى مات جميع الخلائق يبقون أربعين نياما، تمطر عليهم السماء ماء المنى فينبتون تنبت أجسادهم في تلك المدة، حتى إذا نفخ ثانية بعثوا فلهذا يقولون "يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا"، "إلا من شاء الله" سيأتي تفسيره أنه الحور العين أو الملائكة الأربعة جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، هم آخر من يموت كما سيأتي، فإذا نفخ ثانية وهذا بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا أول من تنشق عنه الأرض فأستوي جالسا فأكلم أبا بكر فيقوم وأكلم عمر فيقوم[1]. إذا أراد الله أن يبعث جميع الخلائق يرسل جبريل وخادم الجنة والبراق وخداما معهم: آتوني بحبيبي، هذا يوم القيامة، فيضلون، يقولون: جبريل أنت الذي تعرف طريق المدينة لأنك ترددت إليها كثيرا فيقودهم جبريل إلى بقعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيوقظون النبي صلى الله عليه وسلم ويكسونه ويركب دابته ويذهب إلى الله تبارك وتعالى وبعد ذلك ينفخ في الصور فيبعث جميع الخلائق ويحشرون إلى المحشر. وسيأتي حديث البعث والشفاعة بطوله.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو لقبه واسمه تارخ ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تعبدها؟ استفهام توبيخ ﴿إِنِّيَ أَرَاكَ﴾ يا آزر ﴿وَقَوْمَكَ﴾ باتخاذها ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق ﴿مُبِينٍ﴾. إبراهيم يكلم أباه آزر ينهاه عن عبادة الأصنام، وهذا ينافي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال إنه قلّبه الله في أصلاب المؤمنين والمؤمنات من آدم إلى شئث إلى إبراهيم إلى إسماعيل إلى عدنان إلى عبد الله وآمنة،

---

1 - أخرج الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين) سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في مناقب عمر بن الخطاب (3625).

ما ولد من سفاح بل من نكاح صحيح[1]. قال ابن عباس: كتبت للنبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة جد ما رأيت فيهم كفرا. كيف يتفق هذا مع كونه من ذرية إبراهيم وإبراهيم يقول هذا لأبيه؟ أجيبَ بأجوبة، أجاب العلماء أن هذه العصمة تقع لأجداد النبي صلى الله عليه وسلم ما دام نور النبي صلى الله عليه وسلم في أصلابهم، أما إذا انتقل النور فذلك كأحد الخلق فقط، وآزر حينما كان يعبد الأصنام كان النور قد انتقل إلى إبراهيم، وهذا الجواب غير مرضي، والقرآن يؤيد كون أجداد النبي صلى الله عليه وسلم كلهم مسلمين بقوله "وتقلبك في الساجدين" أي في أصلاب المصلين. أحسن ما أجيب في ذلك ما أجاب به شيخنا الشيخ التجاني رضي الله عنه[2] قال: آزر عم لإبراهيم، وفصاحة القرآن تعطي هذا، الإنسان أبوه الذي ولده لا يقول له أبي فلان، يقول أبي فقط، وإذا قيل أبي فلان معناه العم فقط، إذا لو كان آزر أبا إبراهيم لاكتفى بقوله: "وإذ قال إبراهيم لأبيه" فقط، أما قوله "لأبيه آزر" فهذا أب آخر غير الأب. إن صح هذا فقد زال الإشكال وإلا فالممنوع من أجداد النبي صلى الله عليه وسلم السفاح وأن ينشأ نور النبي صلى الله عليه وسلم بغير عقد نكاح، وأنكحة الكفار صحيحة في شريعة

1- جاء في روح البيان قوله صلى الله عليه وسلم (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات) وقوله (ولدت من نكاح لا من سفاح). روح البيان ج54/3.

2- ورد في جواهر المعاني قوله رضي الله عنه: "اعلم أن أجداده صلى الله عليه وسلم كلهم مؤمنون من أبيه عليه السلام إلى سيدنا آدم عليه السلام فقال له السائل ما معنى قوله تعالى: "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر" فأجاب رضي الله عنه بقوله إن آزر عمه ولو كان أباه أصليا ما ذكر آزر بعد أبيه يكفيه الأب ويدل على هذا استغفاره لوالديه في آخر عمره بعد ما أخبر الله بأنه تبرأ من أبيه بقوله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وفي آخر عمره قال رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين ولو كان أباه ما تبرأ منه. جواهر المعاني ج203/1

الإسلام. الحاصل: آزر هذا خاطبه إبراهيم: "أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين" قال هذا الكلام وهو ابن ستة عشر شهرا ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. رأى نمرود نارا خرجت من بعض الدور وحرقت مملكته، فسأل المنجمين عن هذه الرؤيا، قالوا له: إن مولودا يولد من هؤلاء الناس يكون سببا لذهاب ملكك، فقال: إذا لا يذهب ملكي أبدا، فعزل الرجال عن النساء ومنع من أن يأتي رجل امرأته، فصار الرجل لا يرى امرأته إلا في أيام الحيض، كانوا يجتنبون النساء في زمن الحيض، كل من حاضت امرأته أذن له في الدخول عليها، فوافق أن عرضت حاجة لنمرود وأرسل والد إبراهيم، وكان وزيرا له أن يذهب إلى البلد ويقضي له حاجته وإياه أن يقرب من امرأته، قال له: أنا أحرص على ملكك منك، لا أقرب منها أبدا. فلما دخل القرية وقضى حاجة الملك دخل على المرأة فزينها الله في عينيه فلم يملك نفسه حتى وقع عليها، فحملت بإبراهيم، فلما حملت بإبراهيم أخفى الله الحمل، كلما كبر الحمل صغر البطن لم يظهر عليها أمارات الحمل حتى آن وقت نفاسها، ففرت إلى الفلاة، فدخلت مغارة، كانت عينا غارت فوضعته فيها فإذا هو إبراهيم وسترت فم المغارة بحجر ورجعت إلى القرية وطهرت في الحين حفظا من الله تبارك وتعالى، فصارت تتردد إليه فتجده يرضع من أصابعه ماء من هذا الإصبع، لبنا من هذا، عسلا من هذا، دهنا من هذا، تمرا من هذا. وينبت في الشهر كما ينبت الولد في السنة[1]، وبعد ستة عشر شهرا صار شابا قويا. أتته أمه لما نظر إليها إبراهيم قال يا أمي: من ربي؟ قالت: ربك أنا، قال: ومن ربكِ أنتِ؟ قالت: ربي أبوك، قال: ومن رب أبي؟

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج26/2.

قالت: نمرود، قال: ومن رب نمرود؟ فرت وجاءت إلى زوجها، أخبرته الخبر قالت له إن المولود الذي كان يخاف منه هو ولدي هذا تعال حتى تسمع منه، فأتى إلى إبراهيم، قال له: يا أبي من ربي؟ قال: ربك أمك، قال: ومن رب أمي؟ قال: أنا، قال: ومن ربك أنت؟ قال: نمرود، ومن رب نمرود؟ لطمه[1]، فذهب عنه فصار ينظر يحب أن يعرف ربه، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أخرجوه من المغارة، هذا أول رؤيته للسماء ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ هي الزهرة، قال لقومه وكانوا نجامين ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ أن أتخذهم أربابا لأن الرب لا يجوز عليه التغير ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعا ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ وفي الغد رأى الشمس أول رؤيته لها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ غربت ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأصنام والأجرام المحدثة ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ «وَكَذَلِكَ» كما أريناه إضلال أبيه «نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ» إبراهيم قطب التوحيد ما ذكره الله تبارك وتعالى إلا وبرأه من الشرك، لِم؟ لأنه قال: هذا ربي، ولو كان يقصد أن النجم ربه لكان هذا شركا ولكنه لم يقصد النجم كان في ذلك الوقت مستغرقا في التوحيد لا يرى غير الله تبارك وتعالى. لما رأى النجم قال هذا ربي، قلت: لو كان يقصد النجم لقال: ذلك، لأنه بعيد منه ولقال في الشمس تلك لأنها أنثى، ولكن في كل المرات قال: "هذا ربي"، ربه أقرب إليه من هذه الأشياء يقصد الرب الحقيقي، فلهذا كلما

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج26/2 وذكره القرطبي في ج24/7 نقلا عن قصص الأنبياء للكسائي.

ذكره الله قال "وما كان من المشركين". فني في التوحيد وفناء الأنبياء لا يمكث طويلا كذلك المحمديون إذا أراد الله بعبد أن ينتفع به غيره يفنيه ويبقيه في الحين يرجع إلى حسه فينتفع منه غيره. إبراهيم قال "هذا ربي" عندما رأى الكوكب، "هذا ربي" عندما رأى القمر، "هذا ربي" عندما رأى الشمس، صحا "يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين". «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض» ذكر أن إبراهيم أراه الله ملكوت السماوات والأرض، الملكوت ما خفي والملك ما ظهر، الغيب والشهادة، الدنيا والآخرة، الحس والمعنى، الظاهر والباطن، الخلق والأمر، الملك والملكوت، كل هذه أسماء مترادفة الملك ما ظهر والملكوت ما خفي. أرى الله إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، وأرى محمدا من آياتنا، "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا" أدخلَ "من" التبعيضية في حق محمد صلى الله عليه وسلم، وإبراهيم "ملكوت السماوات والأرض" وليس فيه "من" التبعيضية، وهذا لا يقتضي أن إبراهيم أجل مقاما من محمد، بل إبراهيم أُري ملكوت السماوات والأرض ومحمد أري بعض الآيات ولكن آيات أي شيء؟ ليست آيات السماوات ولا آيات الأرض، "من آياتنا" آيات الله، تلك الحضرة ليست لها نهاية فلهذا لا يمكن للعبد إلا أن يطلع على بعض ويبقى بعض. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ جادلوه في دينه وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء، ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي﴾ تجادلوني ﴿فِي﴾ وحدانية ﴿اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ تعالى إليها ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ من الأصنام أن تصيبني بسوء لعدم قدرتها على شيء، أصنامكم ليست بشيء ﴿إِلاَّ﴾ لكن ﴿أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ إذا شاء ربي شيئا من المكروه يصيبني ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل شيء ﴿أَفَلاَ

﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا فتؤمنون ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ بالله وهي لا تضر ولا تنفع ﴿وَلاَ تَخَافُونَ﴾ أنتم من الله ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ أنتم تهددونني بالخوف من آلهتكم وأنتم لا تخافون الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بعبادته ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وبرهانا وهو القادر على كل شيء ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ هل نحن أم أنتم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من الأحق به نحن أم أنتم؟ نحن، قال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ﴾ يخلطوا ﴿إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ بشرك[1] ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ من العذاب ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ذكر الأمن في هذه الآية وذكره في آية أخرى "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" وهنا قال «الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» إذا الأمن أمنان: أمن أهل القهر والخسر، خوطبوا بقوله "أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" خالفوا أمر الله وما تقربوا إليه ومع ذلك أمِنوا، هذا الأمن مكر صاحبه يؤول إلى الخسران. وأمن أهل اللطف الذين وصلوا إلى حضرة الربوبية فآمنوا إيمانا كاملا ليس فيه شرك. الظلم: الشرك فسرته آية أخرى "يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم"، أولئك أمِنوا أخبر الله بأنهم أمنوا، وأمنهم لم يمنعهم من الهداية «الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»، تجد من الأنبياء والأولياء من يتحقق بسعادته وفوزه ودخوله الجنة وليس هذا أمنا من مكر الله لأنه ليس في المرتبة ذلك الأمن

1- أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية "الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم" شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه "يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم") صحيح البخاري: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/ باب ما جاء في المتأولين (6937)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب صدق الإيمان وإخلاصه (178).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ التي احتج بها إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب وما بعده ﴿ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه لها حجة ﴿عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ بالإضافة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ولده ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولدَ ولدِه ﴿كُلاًّ﴾ منهما ﴿هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابن يعقوب ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ﴾ كما جزيناهم ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّاءَ وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ ابن مريم، هذا يفيد أن الذرية تتناول أولاد البنت ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ ابن أخي هارون أخي موسى ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ ابن هاران أخي إبراهيم ﴿وَكُلاًّ﴾ منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ اخترناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ذَلِكَ﴾ الدين الذي هُدوا إليه ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾ فرضا ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بمعنى الكتب ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة ﴿وَالنُّبُوءَةَ فَإِنْ يَّكْفُرْ بِهَا﴾ بهذه الثلاثة ﴿هَؤُلاَءِ﴾ أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أرصدنا لها ﴿قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ هم المهاجرون والأنصار ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ هداهم الله ﴿فَبِهُدَاهُمْ﴾ طريقهم من التوحيد والصبر ﴿اقْتَدِهْ﴾ اقتد بهم جميعا يا محمد صلى الله عليك وسلم. هذه الآية أدل دليل على أفضلية الرسول صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين. ذكرهم الله كلا وكلهم له خصلة حميدة فاق فيها، هم كلهم تخلقوا بجميع الأخلاق الحميدة، ولكن كلهم تفرد بخصلة اشتهر بها، فكان داوود وسليمان من أهل الشكر جمعا بين المملكة والنبوة فشكرا الله تبارك وتعالى، فهما من أهل الشكر، وأيوب من أهل الصبر، وموسى من أهل المعجزات الباهرات،

وزكرياء ويحي وعيسى من أهل الزهد في الدنيا، ويوسف كان جامعا بين الصبر والشكر، في بدايته صابر وفي نهايته شاكر، لما تخلقوا بهذه الأخلاق كلا فأُمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم جميعا، هذا دليل على أنه أفضل منهم جميعا لأنه تَجمَّعَ فيه ما تَفرَّق فيهم. ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ من القرآن ﴿أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى﴾ عظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. ﴿وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ نزلت في مالك بن الصيف أرسله اليهود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة فلما جاء يجادل النبي صلى الله عليه وسلم قال له النبي صلى الله عليه وسلم أناشدك الله هل قرأت في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان هو حبرا سمينا، فغضب فقال «ما أنزل الله على بشر من شيء»[1] فلما رجع لامه اليهود فقال أغضبني أبو القاسم فقلت هذا، قالوا: أنت إذا غضبت تكفر بالله وتكفر بما أنزل الله؟ وكان هو حبرهم فعزلوه وولوا مكانه كعب بن الأشرف شرا منه ﴿وَمَا قَدَرُواْ﴾ أي اليهود ﴿اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عظموه حق عظمته أو ما عرفوه حق معرفته ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ يكتبونه في دفاتر مقطعة ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي تبدون ما تحبون إبداءه منها ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مما فيها كنعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾ أيها اليهود في القرآن ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ

---

1 – جاء في لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي عند ذكر سبب نزول "وما قدروا الله" الآية: أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبرا سمينا فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك ولا على موسى؟ فنزلت الآية.

وَلاَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ ما لبس عليكم في التوراة كلا فسره لكم القرآن ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أنزله إن لم يقولوه لا جواب غيره ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير البركة كثير الخير لمن آمن به، وشر لمن كفر به، ومن بركته بقاء الدنيا ونبات الأرض وإمطار السماء ما دام القرآن، فإذا رفع القرآن تأتي ريح لينة فيموت بها كل مؤمن ويبقى الكفار. فبقاء الخير في الأرض مدة بقاء القرآن فيها، كتاب مبارك هو هذا القرآن، مبارك يدعو العوام إلى ربهم، ويهدي الخواص إلى ربهم ويوصل خواص الخواص إلى ربهم. وهذا القرآن بركته ظاهرة فمن قرأه نال أجرا عظيما، ومن استمع لقراءته كذلك، ومن أمسك المصحف بيده وجد بذلك ثوابا. توفي رجل مسلم فدفن وكان صالح في الجماعة الذين حضروا دفنه، فلما انصرف الناس سمع الصالح ضربة شديدة فخرج كلب أسود فخاطبه الصالح قال له: من أنت؟ قال: أنا عمله السيئ. وما الضربة التي سمعتُ، عليك وقعت أو عليه هو؟ قال: بل علي أنا أردت أن أقترن به فضربتني سورة من القرآن كان يقرؤها وطردتني من القبر. يقول صلى الله عليه وسلم: (من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، لا أقول لكم "الم" حرف ولكن أقول "ألف" حرف، و"لام" حرف، و"ميم" حرف)[1]. فلما اشتهر القرآن بالبركة وادعى مسيلمة الكذاب قرآنا يعارض به القرآن أرسل رسلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله إن الأرض بيننا نصفان، إلى أن قال: إنا

---

1 - أخرج الترمذي في سننه عن عبد الله بن مسعود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) سنن الترمذي: كتاب فضائل القرآن/ باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر (2835).

أعطيناك الجواهر -يجب أن يعارض سورة الكوثر- فصل لربك وجاهر، وهذا على ركاكة ألفاظه كذب، الجواهر لا تعادل الكوثر، وما علمنا بجواهر أعطاها الله للرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا وأي مقارنة بين الجواهر والصلاة؟ فلما جاءا للرسول صلى الله عليه وسلم قال لهما: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما[1] فأتيا إلى مسيلمة قالا له: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما مرض صبي من أصحابه يأتونه به فيقرأ عليه القرآن ويشفيه الله، قال نعم: آتوني بالمرضى، فكانوا إذا أتوه بمريض وتلا عليه يموت في الحين، وإذا أتوه بأرمد يعمى في الحين. محمد صلى الله عليه وسلم يقرأ ويتفل في ماء ملح فيكون عذبا، وكلما تفل مسيلمة في بئر غارت تلك البئر، ليس مسيلمة بمبارك.

﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة وكلما نزلت آية كتبوها على الأحجار وعلى أوراق الشجر وعلى العظام وما جمع القرآن، حَفظَ القرآنَ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم تسعة من أصحابه. فلما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم وغزا أبو بكر اليمامة واستشهد جماعة من حملة القرآن، جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر وقال له إني أرى أن يجمع هذا القرآن ويكتب لأن الشهادة كثرت في حملة القرآن، وإذا وقع هذا مرة ثانية انقرض من يحمل القرآن وأخاف أن يرفع عنا القرآن. قال له أبو بكر: إذا حملتني جبال تهامة فهي خفيفة علي، ولكن شيئا لم يفعله الرسول صلى الله عليه

1- أخرج أبو داود في سننه وأحمد في مسنده عن نعيم بن مسعود الأشجعي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهما حين قرأ كتاب مسيلمة ما تقولان أنتما قالا: نقول كما قال، قال (أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما) سنن أبي داود: كتاب الجهاد/ باب الرسل (2380)، وفي مسند أحمد: مسند المكيين/ حديث نعيم بن مسعود (15420).

وسلم لا سبيل إلى قبوله، فصار عمر يقسم له حتى أنار الله قلب الخليفة فرأى ما رأى عمر فدعيا زيدا بن ثابت كان كاتب النبي صلى الله عليه وسلم، وجبريل كل عام يعرض القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عام وفاته عرض عليه القرآن مرتين وكل بحضرة زيد بن ثابت، دعاه الشيخان وقالا له: نأمرك أن تكتب لنا القرآن، قال لهم: جبال تهامة أهون علي من أن أفعل شيئا لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم وامتنع، فأقسم له الشيخان حتى نور الله قلبه فقبل منهما وصارا يقولان: زيد هو الذي يتولى الكتابة ولا يكتب آية إلا إذا شهد عليها عدلان وصاروا يكتبون كلما كُتبت آية ألحقها في محلها في سورتها بإقرار اثني عشر ألفا من الصحابة، و(أمتي لا تجتمع على الضلالة) حتى قال زيد: لم يبق من القرآن إلا آيتان فقط في آخر التوبة فجاء رجل من الصحابة يقال له خزيمة بهاتين الآيتين فطلبوا ثانيا ولم يجدوه فتذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم أوقفه بين أيديهم يوما وقال لهم: أقمت شهادة هذا مقام شهادتين[1]، فكتبوا الآيتين "لقد جاءكم إلى آخر

---

1 - أخرج أبو داود وأحمد واللفظ لأبي داود عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشي وأبطأ الأعرابي فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاعه فنادى الأعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس وإلا بعته فقام النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع نداء الأعرابي فقال أو ليس قد ابتعته منك فقال الأعرابي لا والله ما بعتكه فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى قد ابتعته منك فطفق الأعرابي يقول هلم شهيدا فقال خزيمة بن ثابت أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على خزيمة فقال بم تشهد فقال بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين. سنن أبي داود: كتاب الأقضية/ باب إذا

السورة"[1] فتم المصحف غير مرتب وكان عند أبي بكر فلما توفي كان عند عمر فلما توفي عمر كان عند حفصة فلما تولى عثمان وكان من حملة القرآن أخذ هذا الذي جمع ورتبه على نظام القرآن من أول البقرة إلى آخر القرآن بهذا النظام الذي في المصحف اليوم. عثمان هو الذي جمعه هكذا بإجماع من الصحابة فكتب سبعة مصاحف: مصحف كان بيده هو الإمام، ومصحف بعث به إلى مكة، ومصحف بعث به إلى الكوفة، ومصحف بعث به إلى مصر، ومصحف بعث به إلى بغداد،

علم الحاكم صدق الشاهد الواحد يجوز له أن يحكم (3130)، مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث خزيمة بن ثابت (20878).

1- حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني ابن السباق أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن يكتب الوحي قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن قال أبو بكر: قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم" إلى آخرهما. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ قوله لقد جاءكم رسول الآية (4679) وأخرجه الترمذي في سننه: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة التوبة (3028). وتجدر الإشارة إلى أن بعض الروايات تفيد أن الآيتين وجدتا مع أبي خزيمة لكن الأظهر أن ما وجد مع أبي خزيمة هو آية من سورة الأحزاب هي قوله تعالى "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه".

ومصحف بعث به إلى الشام، ومصحف بعث به إلى المغرب، قراءة مصحف المغرب هي التي وصلت إلينا نحن، - رأيت بالعام الماضي أو منذ عامين ذهابي إلى القاهرة رأيت مصحفا بخط عثمان موجودا الآن في القاهرة ومصحفا بخط علي، ما كنت أعلم أن هذا في الدنيا أبدا - ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ خوفا من عقابها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بادّعاء النبوة كمسيلمة الكذاب ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وهم المستهزئون "لو نشاء لقلنا مثل هذا" ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ سكرات الموت ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفا ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾ إلينا لنقبضها ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بدعوى النبوة والإيحاء كذبا ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تتكبرون لو رأيت هذا لرأيت أمرا فظيعا، ﴿وَ﴾ يقال لهم إذ بعثوا ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ منفردين عن الأهل والمال والولد ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حفاة عراة غرلا ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ في الدنيا بغير اختياركم ﴿وَ﴾ يقال لهم توبيخا ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ الأصنام ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ في استحقاق عبادتكم ﴿شُرَكَاءُ﴾ لله ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وصلكم تشتت جمعكم ﴿وَضَلَّ﴾ ذهب ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا.

«لقد جئتمونا فرادى» طريق التوحيد طريق المعرفة تجريد وتفريد وتوحيد، التجريد عن جميع الخلائق، والتفريد تنفرد عن كل أهل ومال وولد، والتوحيد يبقى الله وحده في القلب لا شريك له، البداية في النهاية والنهاية في البداية. الإنسان ولد

مجردا ليس عنده خرقة تستر عورته وسيرجع إلى الله تبارك وتعالى كذلك والنهاية في البداية إذا تجرد الآن عن كل شيء وبقي الله دخل جنة لا يشتاق إلى الجنة المنتظرة. ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ شاقّ الحبِّ عن النبات والنوى عن النخل ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ﴾ الفالق المخرج ﴿اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الإيمان مع قيام البراهين ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ شاق عمود الصبح ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ يسكن فيه الخلق من التعب ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ يجريان بحسبان أي يتعاقبان ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في الأسفار ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بيّنا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدالات على قدرتنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ خلقكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ﴾ منكم في الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ منكم في الصلب ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه التفات عن الغيبة ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ شيئا أخضر ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ أول ما يخرج منها ﴿قِنْوَانٌ﴾ عراجين ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريب بعضها من بعض ﴿وَ﴾ أخرجنا ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ ورقهما ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ثمرهما ﴿انظُرُواْ﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أول ما يبدو وكيف هو ﴿وَيَنْعِهِ﴾ نضجه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ دالات على قدرته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ حيث أطاعوهم ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ وقد خلقهم ﴿وَخَرَّقُواْ﴾ اختلقوا ﴿لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حيث قالوا عزير ابن الله والملائكة بنات الله

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من شأنه أن يخلق ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا تراه الإدراك غير الرؤية يرى الإنسان شيئا ولا يدركه ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يراها ويدركها كما نعلمه ولا ندركه، نراه ولا ندركه ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بأوليائه ﴿الْخَبِيرُ﴾ بهم ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾ حجج ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ها فآمن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر لأن ثواب إبصاره له﴿ وَمَنْ عَمِيَ﴾ عنها فضل ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وبال إضلاله ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ رقيب لأعمالكم إنما أنا نذير ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما بينا ما ذكر ﴿نُصَرِّفُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ﴾ ليعتبروا ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ الكفار في عاقبة الأمر ﴿دَرَسْتَ﴾ أي قرأت كتب الماضين ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآن ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيبا ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتجبرهم على الإيمان ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ نزلت في جماعة سبوا الأصنام فسب الكفار المولى جل وعلا قال تعالى «وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ» الأصنام ﴿فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْوًا﴾ اعتداء وظلما ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فعلى هذا كل طاعة تجر إلى معصية فهي معصية، لأن سب الأصنام عبادة ولكن لما جر إلى سب الله مُنعوا من ذلك ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ كفار مكة ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ مما اقترحوا ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿وَنُقَلِّبُ

أَفْئِدَتَهُمْ﴾ نحول قلوبهم عن الحق ﴿وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصار الحق فلا يؤمنون ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون متحيرين. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس السابع عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ﴾ ذكرنا أن السورة نزلت جملة واحدة بمكة، وهذا يعارض كون هذه الآية نزلت بسبب قول الكفار، أو أن الكفار لما اقترحوا هذه الآيات نزلت هذه السورة وفيها هذه الآيات جوابا لهم. أما كون آية من هذه السورة لها سبب نزول خاص بعدما بينا أنها نزلت جملة واحدة فذلك مما يصعب على المفسر، ولكن على كل حال المستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم خمسة كانوا من قريش: الأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث والعاص بن وائل وأبو جهل بن هشام[1] اجتمعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا: أرنا الملائكة إذا أحببت أن نصدقك فأرنا الملائكة حتى نسألهم، ومرة قالوا آتنا بالله حتى نراه ونسأله عن صدقك ومرة قالوا له: أحي لنا قصيا بن كلاب جدنا حتى نسأله هل أنت صادق أم لا. أجاب الحق تبارك وتعالى ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ﴾ كما اقترحوا ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ وتكلم لهم الأموات كقصي بن كلاب وغيره ﴿وَحَشَرْنَا﴾ جمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وزدنا على ذلك

1- ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج2/302.

حتى حشرنا لهم كل شيء ﴿قِبَلاً﴾ معاينة فشهدوه ﴿مَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ لو وقع هذا كلا لما آمنوا لِما سبق في علم الله ﴿إِلاَّ﴾ لكن ﴿أَنْ يَّشَاءَ اللَّهُ﴾ حتى يشاء الله إيمان عبد فيكون مؤمنا ومن لم يشأ إيمانه فلا يؤمن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أكثر الناس لا يعلمون بذلك. الإيمان بمشيئة الله تبارك وتعالى. فالآية وإن عظمت لا تحمل على الإيمان إلا بمشيئة الله تبارك وتعالى. أعظم آية هي يوم القيامة وقد تقدّم: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون". فإذاً سبق في الأزل أن الله رش رشا من نور على أرواح فأولئك لابد لهم من الإيمان، ومن أخطأه ذلك الرش لا يتأتى أن يؤمن[1] والآيات لا تنفع إلا أهل الهداية والتوفيق، كل معجزة لنبي وكل كرامة لولي سواء علمية كانت أو غيرها فهي تربية لأهل زمانه، فمن كان مستعدا يتربى بأول إشارة وينتفع، ومن لم يكن فيه استعداد يقول لو رأينا مرشدا حقا لتمسكنا بذيله ولتعلقنا به، ولانتفعنا ولسلكنا. والذي وفقه الله وقابلته عناية الله تبارك وتعالى يجد المرشد أقرب إليه من أن يطلبه. فلهذا أخبر تبارك وتعالى أن الإيمان بالمشيئة ليس بالآيات، فالآيات ظاهرة عيانا، ولكن لا يراها إلا الموفقون ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيءٍ عَدُوًّا﴾ كما جعلنا هؤلاء أعداءك جعلنا لكل نبي عدوا، جعل الله لآدم إبليس، وجعل لنوح كنعان ابنه، وجعل لإبراهيم نمرود، وجعل لموسى فرعون، وجعل لعيسى اليهود، وجعل لمحمد أبا جهل وقومه، وكذلك جعل لكل صدّيق وهلم جرا ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ﴾ مردة الإنس ﴿وَالْجِنِّ﴾

1- هذا مضمون حديث أخرجه الترمذي في سننه و أحمد في مسنده: عن عبد الله بن الديلمي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله. سنن الترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (2566).

ومردة الجن ﴿يُوحِي﴾ يوسوس ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ مموهه من الباطل ﴿غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ الإيحاء المذكور ﴿فَذَرْهُمْ﴾ دع الكفار ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ من الكفر وغيره مما زين لهم، وهذا قبل الأمر بالقتال، تلك الأعداء منفعة لعبد الله الذي اختاره لأهم يزعجونه فيرجع إلى خالقه وبارئه، فإنه لو لم يجد في الكون من يؤذيه لمال إليهم بطبعه ولاختطفوا شيئا من قلبه، والحق تبارك وتعالى يحب أن ينفرد بالقلب، فإذا كان جنسك وأبناء جنسك والأقارب حولك موافقين لك في كل ما تحب، لا ترى منهم إلا ما تحب لابد أن تميل إليهم ويأخذون قسطا كبيرا من قلبك إن لم يستولوا عليه، وإذا أزعجك الضرر من كل جانب رجعت إلى خالقك وبارئك فيصطفيك لنفسه وهذا خير لك من الدنيا وما فيها ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يميلون إلى ما يموه أعداء الله ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ يكتسبوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الذنوب فيعاقبوا عليه ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي﴾ لا أطلب غير الله ﴿حَكَمًا﴾ قاضيا بيني وبينكم، أرادوا أيضا أن يجعل الرسول حكَما بينهم وبينه وهو لا يبتغي حكما غير الله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿مُفَصَّلاً﴾ مبينا فيه الحق من الباطل ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ التوراة كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ بالأحكام والمواعيد ﴿صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ تمييز ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ بنقض أو خلف ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقال ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يفعل ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ الكفار ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ في مجادلتهم لك في أمر الميتة إذ قالوا: ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون في ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ عالم ﴿مَنْ يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيجازي كلا منهم

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إذا أردت أن تأكل فكل مما ذكر اسم الله عند ذبحه ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بين لكم ما حرم عليكم في آية "حرمت عليكم الميتة" ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ إلا شيئا اضطررتم إليه فالضرورات تبيح المحظورات[1]، من اضطر إلى أكل ميتة فالميتة حلال له ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ﴾ بما تهواه أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعتمدونه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين الحلال إلى الحرام. أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن تذبح الحيوانات باسم الله وذلك لحكمة لأن سكرات الموت شديدة حتى قال الرسول صلى الله عليه وسلم (لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله)[2] يهون عليهم سكرات الموت، فإن حلاوة ذكر الله تذهب بمرارة سكرات الموت، وكذلك الحيوانات إذا ذبحت باسم الله حلاوة اسم الله تذهب بمرارة الموت، فمن ذبح بغير اسم الله فقد ظلم الحيوان وجنى عليه فلهذا يحرم أكله وإن ذبح باسم الله فهو حلال، ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ اتركوه.

قال «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ» قال المفسر في آية "حرمت" واستشكلوا هذا لأن آية "حرمت" نزلت في سورة المائدة، وسورة المائدة من آخر ما نزل بالمدينة، فكيف يستدل بشيء في سورة المائدة قبل نزولها؟ أجاب العلماء بأجوبة منها أن الله تبارك وتعالى سبق في علمه أن في نظام القرآن تأتي المائدة قبل الأنعام فيصح

1- "الضرورات تبيح المحظورات" قاعدة فقهية ذكرها الشيخ أحمد الزرقاء في كتابه شرح القواعد الفقهية. ص131 دار الغرب الإسلامي.

2 - (لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة. صحيح مسلم: كتاب الجنائز / باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (1523 - 1524).

الاستدلال بما في سورة المائدة لأن علم الله ليس فيه ماض ولا مستقبل، وأجيب بأن الصواب "وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ" في آية "قل لا أجد" الآتية المحرمات الأربع في تلك الآية والسورة مكية هي المحرمات الأربع في سورة البقرة وهي المحرمات الأربع في سورة المائدة سواء بسواء. فالحق أن الله تبارك وتعالى حضرته ليس فيها ماض ولا مستقبل، فصح أنه بين لكم ما حرم عليكم وإن كانت السورة ما نزلت بعد. «وَذَرُواْ ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ» الإثم نوعان ظاهر وباطن فالظاهر ما يباشره الشخص بجوارحه، والباطن ما يرتكبه بقلبه والله تبارك وتعالى نهى عن كل ذلك كقتل النفس والزنا مثلا معصية ظاهرة، والكبر والحسد والبغض والغل كل هذه معاصي باطنة، اتركوا جميع ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بأن مات أو ذبح على اسم غيره وإلا فما ذبحه المسلم ولم يسم فيه عمدا أو نسيانا فهو حلال، قاله ابن عباس وعليه الشافعي[1] ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الأكل منه ﴿لَفِسْقٌ﴾ خروج عما يحل ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يوسوسون ﴿إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ الكفار ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ في تحليل الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فيه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم. ونزل في أبي جهل وحمزة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في المسجد الحرام حول البيت، وملأ من قريش ينظرون إليه فتكلموا وهنالك فرث ورائحة خبيثة يستقبحونها. قال واحد منهم: هل يقدر أحدكم أن يأخذ بعضا من تلك الخبائث ويجعله على محمد وهو ساجد؟ قال عقبة

1- جاء في تفسير ابن كثير: روى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله. وقال: لا يشترط التسمية بل هي مستحبة فإن تركت عمدا أو نسيانا لا يضر وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله. تفسير ابن كثير ج2/ 170.

بن أبي معيط: أنا، فأخذ تلك الرائحة القبيحة سلى جزور وفرث فوضعه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فصار كفار قريش يضحكون، يضحكون يستهزئون بالنبي صلى الله عليه وسلم فرحا بذلك حتى أتته فاطمة بنته فنزعته وسبت الملأ حتى تفرقوا[1]، فلما جاء حمزة وكان غائبا يتصيد أخبر بالخبر وبيده قوس فأتى إلى أبي جهل فضربه بالقوس حتى شج رأسه وقال له: تفعل هذا بابن أخي؟ قال له: يسب آلهتنا ويسفه عقولنا؟ قال: نعم لا يوجد أسفه منكم تعبدون حجارة، وسب آلهتكم ليس فيه بأس حجارة فقط، قال: أنت تؤمن به؟ قال: أنا أومن به أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فدخل في الإسلام. فقال ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ كافرا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالهدى مثل حمزة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يتبصر به الحق من غيره ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ كمن هو ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو أبو جهل بن هشام ﴿كَذَلِكَ﴾

---

1 - أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي إسحاق قال حدثني عمرو بن ميمون أن عبد الله بن مسعود حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فجاء به فنظر حتى سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه على ظهره بين كتفيه وأنا أنظر لا أغني شيئا لو كان لي منعة، قال فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة فطرحت عن ظهره فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات فشق عليهم إذ دعا عليهم قال وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة ثم سمى اللهم عليك بأبي جهل وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعد السابع فلم يحفظ قال فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى في القليب قليب بدر. صحيح البخاري: كتاب الوضوء/ باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة لم تفسد عليه (240) وفي صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (3349).

كما زين للمؤمنين الإيمان ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما جعلنا فسَّاق مكة أكابرها ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ عادة الله تبارك وتعالى، حيث أن فسقة مكة هم الكبراء وهم المجرمون الذين يعادون المصطفى صلى الله عليه وسلم، كذلك تجد في كل قرية الأكابر يكونون مجرمين أعداء أولياء الله تبارك وتعالى ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَا﴾ لأن الأكابر هم الذين توفرت عندهم الأموال والجاه، ومن كان عنده هذا كان أقدر على الغدر والخيانة والظلم من كل أحد، ومن كان عنده المال كثيرا وعنده الجاه لابد يكون حريضا على زيادة ماله وجاهه، وتلك الزيادة لا تصح إلا بجميع الأعمال الخبيثة مثل البغض والحسد والنميمة والغيبة والحلف بالأيمان الكاذبة، كل هذا لابد أن يكتسبوه صونا للرئاسة وحرصا على زيادة أموالهم، فلهذا هم الذين يشتغلون بإذاية أنبياء الله وأولياء الله دائما ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله عليهم ولكن كل ما فعلوه من المكر فالمصيبة راجعة إليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أهل مكة ﴿ءَايَةٌ﴾ على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أبو جهل بن هشام قال كان بيتنا وبيت محمد صلى الله عليه وسلم كفرسي رهان في الجاهلية إلى يومنا هذا، واليوم أصبح محمد يقول إنه نبي وليس عندنا نبي، لا نقبل هذا أبدا حتى يخرج من بيتنا نبي كمثله وإلا لا نومن به[1].

1 – في دلائل النبوة للبيهقي عن الزهري أن أبا جهل قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه.

الدعاء بين الجلالتين مستجاب[1] وقد صح فيه هذا الدعاء: (اللهم من الذي دعاك فلم تجبه ومن الذي استجارك فلم تجره ومن الذي سألك فلم تعطه ومن الذي استعان بك فلم تعنه ومن الذي توكل عليك فلم تكفه يا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه بك أستغيث فأغثني يا مغيث واهدني هداية من عندك واقض حوائجنا واشف مرضانا واقض ديوننا واغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا بحق القرآن العظيم والرسول الكريم برحمتك يا أرحم الراحمين). ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ الله تبارك وتعالى يعلم من هو المستحق للرسالة فيعطيها له ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ بقولهم ذلك ﴿صَغَارٌ﴾ ذل ﴿عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ أي بسبب مكرهم ﴿فَمَنْ يُّرِدِ اللَّهُ أَنْ يَّهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ﴾ بأن يقذف في قلبه نورا فينفتح له ويقبله كما ورد في الحديث أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله إذا أراد أن يهدي عبده قذف في قلبه نورا فينشرح صدره ويقبل هداية الله، قالوا: هل لذلك من علامة يا رسول الله؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور والتأهب لدار الآخرة، الزهد في الدنيا والإقبال على الله تبارك وتعالى[2] ﴿وَمَنْ يُّرِدْ أَنْ يُّضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ إذا أراد الله إضلال عبده يجعل صدره ضيقا عن قبول كل شيء ﴿حَرِجًا﴾ شديد الضيق ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ إذا كلف بالهداية كأنما كلف بالصعود إلى السماء ﴿فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ

1- ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين وذكر هذا الدعاء المخصوص ج44/2.

2 - أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام" قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال:" نور يقذف به في القلب" قالوا: يا رسول الله فهل لذلك من أمارة تعرف؟ قال: نعم، قالوا وما هي؟ قال: "الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت". ابن كثير ج175/2.

﴿وَهَذَا﴾ الذي أنت عليه يا محمد ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بيّنا ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ السلامة وهي الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الله تبارك وتعالى يتولى هدايتهم. كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جهز جيشا بأربعة آلاف فارس أرسلهم إلى بلاد العجم للقتال فذهبوا إلى بلد وقاتلوا شهورا عديدة و لم يبلغ سلاحهم محل عدوهم، كان حصن حصين وأميرته امرأة جميلة عجز الصحابة عن فتح الحصن ومكثوا زمنا فطلعت يوما على غرفتها فنظرت إلى شاب من الصحابة فأحبته فبكت، قال لها الجماعة: ما يبكيك؟ أنت في حصن منيع وهؤلاء العرب دوخوا البلاد كلا وعجزوا عن حصنك، ما لك تبكين؟ قالت: رأيت شابا من الصحابة لا بد أن يفتح حصني هذا، قيل لها بم؟ قالت لهم: سترون الآن، فبعثت إليه تقول: أنا لابد لي منك فكيف السبيل إليك؟ قال الشاب: أن تسلمي الحصن الخارجي لنا والحصن الداخلي لربنا. أرسلت إليه وأمرت بفتح الحصن، قالت الحصن الخارجي هاهو فتحته لكم، والحصن الداخلي ما هو؟ قال لها: تقولين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتسلمي قلبك لله. قالت: نعم، ولكن أنا ملكة كبيرة أحب إذا كنت أدخل في الإسلام أسْلم بين يدي أكبركم، أنت شاب صغير لا يليق أن تكون أنت مرشدي. قال: نعم، عبد الله بن عمر بن الخطاب هو أمير الجيش هو كبيرنا، فأتت عبد الله بن عمر فلما وقفت بين يديه قالت: أحب أكبر منك هل يوجد في المسلمين أكبر منك؟ أنا لا أدخل في الإسلام إلا على يد أكبر المسلمين، قال لها عبد الله بن عمر: نعم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب موجود في المدينة، فتوجهت إليه ومعها الجيش، ساروا حتى وصلوا إلى المدينة، فلما وقفوا بين يدي عمر بن الخطاب قالت له: أنا لا أدخل في الإسلام إلا على يد أكبر

المسلمين، هل يوجد أكبر منك؟ قال عمر: نعم، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في قبره كأنه حي، قالت لعمر اذهب بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أدخل في الإسلام إلا بين يديه، فوقفت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، ووضعت يدها في عتبة باب النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله أنا دخلت في الإسلام وأحب أن لا ألطخ إسلامي بشيء من المخالفات بعد، إن كان الله يقبل إسلامي فليقبض روحي إليه الآن، وتوفيت بين يدي عمر، فبكى عمر بكاء شديدا فغُسلت وكفنت ودفنها بالبقيع[1]. أولا تعلقت بغرض نفساني، قادها ذلك الغرض بعلو همتها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه «وهو وليهم بما كانوا يعملون» ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الخلق ﴿جَمِيعًا﴾ ويقال لهم ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾ بإغوائكم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ الذين أطاعوهم ﴿مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بتزيين الجن لهم الشهوات والجن انتفعوا بطاعة الإنس لهم ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وهو يوم القيامة وهذا تحسر منهم ﴿قَالَ﴾ تعالى على لسان الملائكة ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ مأواكم جميعا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال جلال: من الأوقات التي يخرجون فيها لشرب الحميم فإنه خارجها كما قال "ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم". وعن ابن عباس أنه فيما علم الله أنهم يؤمنون، فـــ"ما" بمعنى "مَن" أي خالدين فيها إلا من شاء الله ممن آمن من الكفار بعد، هذا كلام المفسر، والجواب ليس بمرضي جدا، الله تبارك وتعالى ذكر أن أهل الجنة خالدون في الجنة وأهل النار خالدون في النار، بمقتضى اسمه "الأول"

1- روح البيان ج101/3.

اقتضى أنه قبل كل شيء ومقتضى اسمه "الآخر" يقتضي أنه يكون بعد كل شيء لا محالة ولابد أن هذا الاسم بما تضمن من الصفة لا بد يتجلى "الآخِر" فإذا كنا خالدين أبدا كيف يتجلى "الآخِر"؟ وأهل الجنة يستمرون في الجنة من دخل فيها لا يخرج منها أبدا، وأهل النار كذلك لا يخرجون منها أبدا كما أخبر القرآن، والقرآن حق ولابد أن يتجلى "الآخر" أيضا فما الجواب؟ الجواب أن أهل الجنة يستمرون في النعيم ويترقون في النعيم حتى يغيبوا في النعيم حتى لم يبق لهم حس فيرجعون إلى حالتهم التي كانوا عليها في الأزل، وأهل النار يستمرون في النار بعد عقاب شديد وبليات متوالية أحقابا أحقابا، لا بد أن يصيروا لا يحسون بالألم يألفونه حتى يغيبوا في ذلك، فيرجعوا إلى حالتهم التي كانوا عليها في الأزل، فلابد أن الأزل يتجلى في الأبد فيكونون في الأبد كما كانوا في الأزل، وهذا لا ينافي خلود أهل الجنة في الجنة ولا خلود أهل النار في النار. وهو هكذا فالحالات قبل رجوعهم إلى حالة الأزل ابتلاءات من الحق تبارك وتعالى. أهل الجنة يبتليهم بالنعيم حتى يرجعوا إلى أبد كالأزل، وأهل النار ابتلاءات مؤلمة وعقاب شديد كله بلاء ولا بد أن ينتهي يوما ما فيرجعوا إلى الأبد الذي هو مرآة الأزل، هذا هو الذي يمكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما متعنا عصاة الإنس والجن بعضهم ببعض ﴿نُوَلِّي﴾ من الولاية ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من مجموعكم الصادق بالإنس ورسل الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل فيبلغون قومهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا﴾ قد بلغنا ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلم يؤمنوا ﴿وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ذَلِكَ﴾ إرسال الرسل ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ منها ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ لا بد من

بعث الرسل حجة عليهم ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ جزاء ﴿مِمَّا عَمِلُواْ﴾ من خير وشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ الناس درجات: علماء هم ورثة الأنبياء، وأغنياء هم أمناء الله تبارك وتعالى، وزهاد هم القادة، وغزاة هم المجاهدون أسياف الله، وملوك هم ظلال الله تبارك وتعالى، فإذا استقام هؤلاء الخمسة استقامت أحوال العالم كلا، وإذا كان العلماء طامعين في الدنيا والزهاد راغبين فيها والغزاة مرائين - وعمل الرياء كلا شيء - والأغنياء التجار خائنين، والملوك ظالمين، إذا طمع العلماء في الدنيا فمن يقلد ومن يهتدَى به؟ وإذا كان الزهاد راغبين في الدنيا فبمن يُستدل عليه؟ وإذا كان التجار خونة فبمن يوثق به؟ وإذا كان الغزاة مرائين فمن يغلب العدو؟ وإذا كان الملوك ظلمة فمن يرعى؟ هؤلاء هم الذين أفسدوا الدنيا وأفسدوا العالم، لو صلحوا لصلح كل شيء ولكن فسدوا وأفسدوا كل شيء «وما ربك بغافل عما يعملون» سيجازيهم ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه وعباداتهم ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ "كتب على نفسه الرحمة" ﴿إِنْ يَّشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يا أهل مكة بالإهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ من الخلق ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أذهبها ولكنه أبقاكم رحمة لكم. لو شاء الله لأهلك الناس كلا وأتى بآخرين وهذا دأبه دائما هذا لاشك فيه لأننا نشاهده دائما، إذا تفكرنا الآن قبل خمسين سنة نجد آباءنا قياما يدبرون هذا العالم وها نحن الآن ولم يبق شيء من آبائنا، ومن هنا إلى خمسين عاما لا ترى أحدا منا يبقى أولادنا، هكذا دائما «كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين» ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ هذا دليل على أن الساعة آتية لا ريب فيها ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فائتين عذابنا ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ حالتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على حالتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة في الدار الآخرة هل نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ﴾ الشأن ﴿لاَ يُفْلِحُ﴾

يسعد ﴿الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون ﴿وَجَعَلُواْ﴾ كفار قريش ﴿لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ الزرع ﴿وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ولشركائهم نصيبا يصرفونه إلى سدنتها. كان كفار مكة يقسمون أموالهم قسمين: شيء قالوا إنه لله تبارك وتعالى، إذا وجدوا ضيفا يضيفونه ويتصدقون على المساكين بشيء من ذلك، وجعلوا شيئا لآلهتهم أيضا يصرف في سدنتها لخدمة الشركاء ﴿فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ بزعمهم قالوا هذا نصيب الله ﴿وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ فيجعلونه في خزانة واحدة، إذا سقط شيء من نصيب الله إلى نصيب آلهتهم قالوا اتركوه اتركوه الله غني، وإذا سقط شيء من نصيب آلهتهم إلى جهة نصيب الله قالوا ردوه ردوه فيردونه. الله هو الذي رزقهم الحيوان ورزقهم الزرع فجعلوا له شريكا، فقسموا بينه وبين شريكه ولم يعدلوا في القسمة؛ لما لم يبق إلا أن يجعلوا له نصيبا ولغيره نصيبا كان من حقهم أن يوفروا له نصيبه ولكن ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ﴾ إلى جهته، كل شيء سقط من جانب شركائهم إلى جانب الله ردوه لا يقبلون هذا ﴿وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ﴾ وما كان لله إن سقط على نصيب الشركاء قالوا اتركوه الله غني ﴿سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم غير سديد ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما زُين لهم ما ذكر ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ﴾ كذلك من سفاهة الجاهلية كانوا يقتلون أولادهم بالوأد ﴿شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ يهلكوهم ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ يخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ كان واحد من الكفار أسلم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وكلما جلس في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم جلس كئيبا حزينا دائما متقنعا فكلمه الرسول صلى الله عليه وسلم: ما بالك دائما حزينا بعدما هداك الله إلى الإسلام؟ قال: أنا فعلت ذنبا في الجاهلية أظن أن الله لا يغفره لي، قال له النبي صلى الله عليه

وسلم: وما هو؟ قال إنه يستحيي أن يذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم، سأله الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: ذنبك شيء حقير بجانب عفو الله تبارك وتعالى، قال له: كنت رجلا في الجاهلية ممن يكرهون البنات كلما ولد لي بنت قتلتها، فوُلدت لي بنت فطلبت أمها مني أن لا أقتلها وطلبت مني عهودا ومواثيق فأعطيتها عهودا ومواثيق أني لا أقتلها حتى كبرت وبلغت مبلغ النساء وصارت أجمل نساء العالم فخطبها الرجال فدخلني الشيطان بأني أتكبر أن تكون بنتي زوجة لرجل فطلبت من أمها أن تسافر معي إلى زيارة بعض الأقارب ففرحت أمها بذلك فهيأت لها كل حلي وحلل وزينتها وأرسلتها معي، فلما ذهبنا إلى وسط الطريق ملت بها إلى بئر هنالك فأردت أن ألقيها في البئر ففطنت لذلك قالت يا أبت لا تقتلني لا تقتلني وإياك أن تخون أمي بعدما عاهدتها وأعطيتها عهودا ومواثيق أنك لا تقتلني؛ فإذا نظرت إليها رحمتها وإذا نظرت إلى أن الرجال يخطبونها عزمت على قتلها حتى غلبتني نفسي، فدفعتها في البئر فسقطت فصاحت: قتلتني يا أبي، فسمعتها تبكي فجلست حول البئر أياما حتى بردت وسكن صوتها علمت أنها ماتت فذهبت، فلما بلغ هنا بكى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: والله لو كنت أعاقب أحدا بذنب ارتكبه في الجاهلية لعاقبتك على هذا الفعل[1]. كان أهل الجاهلية يفعلون هذا. هذه سورة الأنعام فضحت الجاهلية ووصفت ما كانوا عليه من الجهل والسفاهة ﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ﴾ من خدمة الأوثان وغيرهم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لا حجة لهم فيه ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ فلا تركب كالسوائب والبحائر ﴿وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ

1- تفسير القرطبي ج7/ 97.

﴿عَلَيْهَا﴾ عند ذبحها، بل يذكرون اسم أصنامهم، ونسبوا ذلك إلى الله ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عليه ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ﴾ المحرمة وهي السوائب والبحائر ﴿خَالِصَةٌ﴾ حلال ﴿لِّذُكُورِنَا﴾ يجوز للذكر أن يأكل من أنعام آلهتنا ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ ولكن حرام على النساء أن تأكل من أنعام الآلهة ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ إلا إذا ماتت بنفسها إن كانت ميتة فالميتة حلال للذكور والإناث ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ﴾ سيجزيهم الله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ ذلك بالتحليل والتحريم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ﴾ بالوأد ﴿سَفَهًا﴾ جهلا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ مما ذكر ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مبسوطات على الأرض كالبطيخ وغيرها ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ بأن ارتفعت على ساق كالنخل. الله أنشأ لنا بساتين نعيش بها منها ما ينبسط على الأرض، ومنها ما له ساق كالنخل ﴿وَالنَّخْلَ﴾ وأنشأ النخل ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ ثمره وحبه في الهيئة والطعم ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ ورقهما ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ طعمهما ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قبل النضج ﴿وَآتُواْ حَقَّهُ﴾ أي زكاته ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والزكاة العشر أو نصفه ﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ بإعطاء الكل فلا يبقى لعيالكم شيء ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ المتجاوزين ما حد لهم ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ الله خلق لنا من جنس الأنعام حمولة صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار ﴿وَفَرْشًا﴾ لا تصلح له كالإبل الصغار والغنم، والصواب «حمولة» كالإبل والبقر هي التي تصلح للحمل «وفرشا» ما لا تصلح للحمل كالغنم ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرائقه في التحريم والتحليل ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أنشأ الله لكم ثمانية أصناف من

الأنعام ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ﴾ زوجين ﴿اثْنَيْنِ﴾ أيضا ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن حرم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى ونسب ذلك إلى الله ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله عليكم ﴿أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ ذكرا كان أو أنثى؛ أيُّ هذه الأقسام حرّم هل الذكور أم الإناث أم النسل ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ عن كيفية تحريم ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه، المعنى من أين جاء التحريم فإن كان من قِبل الذكورة فجميع الذكور حرام، أو الأنوثة فجميع الإناث حرام أو اشتمال الرحم فالزوجان حرام. فمن أين التخصيص؟ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضورا ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ التحريم فاعتمدتم ذلك؟ لا بل أنتم كاذبون ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بذلك ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قُلْ﴾ يا محمد ﴿لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ شيئا ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ ليس في كتاب الله شيء محرم إلا أربعة أشياء ﴿إِلاَّ أَنْ يَّكُونَ مَيْتَةً﴾ الميتة حرام ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ بخلاف غيره كالكبد والطحال ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ حرام ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أو شيء ذبح لغير اسم الله، ليس شيء محرم إلا هذه الأربعة، وأكدت آية البقرة هذا[1]، حددت هذه الأربعة أيضا، وأكدها آية المائدة[2]، وأن عدد أنواع الميتة "والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع" هذا كله داخل في الميتة ﴿فَمَنُ اضْطُرَّ﴾ إلى شيء مما ذكر فأكله

1- هي قوله تعالى: "إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم" الآية 173 من سورة البقرة.

2- الآية 4 من المائدة.

﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ له ما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ به، ويلحق بما ذكر بالسنة كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير[1] ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ ما لم تفرق أصابعه كالإبل وغيره ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الثروب وشحم الكلى ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ أي ما علق بها منه ﴿أَوْ﴾ حملته ﴿الْحَوَايَا﴾ الأمعاء جمع حاو أو حاوية ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وهو شحم الإلية فإنه أحل لهم، ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ به ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم بما سبق في سورة النساء[2] ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في إخبارنا ومواعيدنا ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فيما جئت به ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، وفيه تلطف بدعائهم إلى الإيمان ﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه إذا جاء ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الكفار يقولون إن الله تبارك وتعالى هو الذي شاء إشراكهم هذا حق، نحن ﴿وَلاَ ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ كذلك آباؤنا وكذلك تحريمنا لولا أن الله شاء ذلك لما كان، هذا حق وبنوا عليه كذبا، فهو راض به، لما كان هو الذي شاءه فهو راض به هذا كذب، قاسوا الحق تبارك وتعالى على المخلوق، فإن المخلوق لا يشاء شيئا إلا ورضي به، لأنه لا يشاء شيئا إلا شيئا له فيه منفعة، إذا كان له منفعة في شيء يشاء أن يكون ذلك، إذاً مشيئته ورضاه مقترنان لأنه طالب المنفعة والله تبارك وتعالى لا يكون شيء إلا بمشيئته ولكنه يشاء

1- أخرج مسلم عن ابن عباس قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير. صحيح مسلم: كتاب الصيد/ باب النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع و كل ذي مخلب من الطير (3574).

2- يعني قوله تعالى " فبظلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم" الآية 158.

شيئا ويرضى به ويشاء شيئا ولا يرضى به «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» هذا حق، الكفر بمشيئة الله والإشراك بمشيئة الله والمعصية بمشيئة الله ولكن لم يرض بهذا "ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم"، شاءه وما رضي به، فهو له خطابان خطاب المشيئة وخطاب الحكمة، خطاب المشيئة لا يكون شيء إلا شيء شاءه الله، والكفر والمحرمات والمعاصي كل هذه بمشيئة الله، ولكن لا يرضى لعباده الكفر، والإيمان بمشيئته والطاعة بمشيئته وهو يرضى بذلك. فهم قالوا كلمة حق وبنوا عليها باطلا «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء» هذا حق، فإشراكنا وتحريمنا بمشيئته فهو راض به هذا كذب، ﴿كَذَلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم ﴿حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ عذابنا ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ بأن الله راض بذلك ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ لا علم عندكم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون ﴿قُلْ﴾ إن لم تكن لكم حجة ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ التامة ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لو شاء الله لهدى الناس جميعا ولكنه لم يشأ.

أهل الإيمان وأهل الهداية أقل من غيرهم وما الحكمة في هذا؟ إن الإيمان عزيز والشيء إذا قل يكون عزيزا وإذا تكاثر عند كل أحد يكون غير عزيز عند الناس، فلما أراد الله أن يكون الإيمان عزيزا والمؤمن عزيزا جعل المؤمنين أقل من الكفار، وأيضا ليظهر غناه واستغناءه عن كل أحد، الله غني لو كان مفتقرا لشيء لافتقر إلى كثرة المسلمين وكثرة المؤمنين، ولكنه حيث أنه غني يكفيه قليل من الناس يكونون مسلمين، لو كان الناس كفارا جميعا ما ضره ذلك فقلل المسلمين أهل الإيمان ليريَ استغناءه بنفسه عن كل أحد. وثالثا ليري قدرته فإن أهل الإيمان وهم الأقل أقل عددا وعُددا ومع ذلك فهو قادر على حفظهم حتى لا يضرهم الكفار وهم أكثر،

فالكفار أكثر وأكثر عددا وسلاحا وعلما ومكائد، والمسلمون قليلون بينهم ضعفاء فقراء أكثرهم، جهلاء أكثرهم ومع هذا حفظهم الله حتى أن الكفار ما قدروا لهم على شيء، بل تجد الكفار دائما يخافون المسلمين، والمسلمون لا يبالون بهم، فإن قيل إن هذا ينافي ما تقدم بالأمس "كتب على نفسه الرحمة" إن كانت رحمته سبقت غضبه وكان الكفار أكثر من المسلمين فكيف ترجح الرحمة على الغضب؟ نعم قلة المسلمين بالنسبة إلى الإنس والجن فقط، وإلا فالملائكة كلهم والحور العين والملأ الأعلى أكثر من الإنس والجن بكثير وهم كلهم أهل الإيمان؛ نظرا إلى ذلك فأهل الرحمة أكثر من أهل الغضب ولكن أهل الغضب هم أكثر في الإنس والجن «فَلَوْ شَاءَ» هدايتكم «لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ» ﴿قُلْ هَلُمَّ﴾ احضروا ﴿شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الذي حرمتموه ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يشركون ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ أقرأ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ هذا الذي حرم كفار قريش من البحائر والسوائب كذبٌ وافتراء، الآن تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم - ذكر عشرة أشياء - ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ الذي أوجب الله علينا هو الإيمان به وحده ولا نشرك به شيئا. الشرك هو أكبر الكبائر، سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكبر الكبائر فقال: أن تشرك بالله شيئا وهو خلقك، وأن تعق الوالدين، وأن تزاني حليلة جارك[1]. الشرك هو أكبر الكبائر وأكبر الموبقات ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ

---

1 - أخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت: إن ذلك لعظيم قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: ثم أن تزاني بحليلة جارك. صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى "فلا تجعلوا لله أندادا" 7520، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب

إِحْسَانًا﴾ أحسنوا بالوالدين إحسانا، بعد الشرك العقوق، عظم العقوق حتى أنه ما ذكره، لا تشركوا به شيئا لم يقل ولا تعقوا، بل وأحسنوا بالوالدين إحسانا أبغض العقوق حتى أنه ما سماه ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ﴾ بالوأد ﴿مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ من أجل إملاق، كذلك ما كان يرتكبه الكفار من قتل الولد مخافة الفقر، لا تفعلوا هذا فالله هو الرازق ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ﴾ الكبائر كالزنا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كذلك لا تقربوا الفواحش أبلغ من لا تأتوها، لأنها كبيرة حرامٌ ومقدماتها كلا حرام، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (زنى العينين النظر، وزنى اللسان الكلام، وزنى الأنف القبلة، وزنى اليدين اللمس، وزنى القلب حديث النفس، وزنى الرجلين المشي، وكل هذا يصدقه الفرج أو يكذبه)[1]، إذا دخل الفرج زنت هذه الجوارح كلا، وإذا لم يدخل سلمت هذه الجوارح فإن الله يغفر الصغائر باجتناب الكبائر «ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن» علانيتها وسرها ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ كالقود وحد الردة ورجم المحصن. الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد، والزنا، وقتل النفس التي حرم الله إلا

---

124. وفي رواية عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب عقوق الوالدين من الكبائر (5976).

1 - أخرج مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطى والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه) صحيح مسلم: كتاب القدر/ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره (4802). وللبخاري في صحيحه: كتاب القدر/ باب وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون (6612).

بالحق، هذه خمسة ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون وإذا نظرت في المحرمات كلا وجدها ترجع إلى القتل، فإن الإنسان لو لم ينه عن قتل النفس لكثر القتل، كما قال "ولكم في القصاص حياة" ولو لم يُحرم الزنا لتقاتل الرجال على النساء كما تفعل الدواب والبهائم، والإنسان أقوى وأكثر كيدا فيقع القتل كثيرا. والسرقة من تعرض لمال شخص تعرض لقتله، لأن يقتل هو، وحيث أن الشرع أوجب القطع في السرقة، من قطعت يده ربما يؤدي ذلك إلى مماته، وشرب الخمر، من شرب الخمر سكر وفقد عقله وربما قتل أو قُتل لا يشعر، كل المحرمات ترجع إلى القتل، والله لا يحب القتل لأنه يحب بقاء العالم إلا ما شاء ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هو ما فيه صلاحه ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ بأن يحتلم. حرم الله على الأولياء أن يأكلوا أموال يتاماهم، فليحفظوها لهم إذا بلغوا الحلم وبلغوا الرشد سلموا إليهم مالهم. كان واحد من الصالحين يحفظ كتاب الله ويكتب المصاحف دائما، قال إنه كتب أربعين مصحفا يرى الذباب ربما يشرب من المداد على الخط إلا من هذه الكلمة، ما رأى الذباب يشرب منها خوفا من مال اليتيم. والتعلم من كتب اليتيم جائز عند أكثر العلماء ومنهم من منع ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ إذا كلتم للناس أو وزنتم لهم فلتعدلوا ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ طاقتها فإن أخطأ في الكيل والوزن والله يعلم صحة نيته فلا مؤاخذة عليه كما ورد في الحديث[1]. والإنسان إذا تفكر في كيفية الوزن يجد في نفسه واعظا يمنعه من البخس والنقص. كيفية الوزن هكذا:

1- ذكره ابن كثير من إخراج ابن مردويه بالسند عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية " وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها" فقال من أوفى على يده في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ وذلك تأويل "وسعها". ابن كثير ج2/ 191.

الوازن غالبا يعقد هذين الإصبعين ويمد الثلاثة، وهذا "الله" كأن الوازن دائما تخاطبه يده الله الله الله الله، وأشد ما يعذب به العبد في قبره البخس والنقص في الكيل. كان رجل يشتغل بالكيل والوزن دائما، فلما حان وفاته لقنوه الشهادتين فصار يقول: جبلان من نار جبلان من نار، إن جبلين من النار على لسانه منَعاه من أن ينطق بالشهادتين[1] وذلك لسان الوزن الذي كان يزن به، ومن أكثر من قراءة القرآن وتعوّد ذكر الله ربما يستوجب حسن الخاتمة. كان رجل يكثر قراءة القرآن فلما حضرته الوفاة كلما قيل له لا إله إلا الله يقول "طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" إلى قوله "الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى" صار يكرر هذا حتى مات، وكان واحد يبيع الخبيثة ويقول دائما: حزمة بفلس، حزمة بفلس، حزمة بفلس، فلما حضرته الوفاة كلما قيل له قل: لا إله إلا الله قال: حزمة بفلس، حزمة بفلس، ومات على ذلك[2]. وكان شاب ديّن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة لقنوه كلمة الشهادة فعجز عن النطق بها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فلقنه فلم يقدر أن ينطق بها. فقال للصحابة: ما تعرفون من عمله؟ قالوا: ما نعرف إلا خيرا أثنوا عليه خيرا، فكر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هل له من والدين؟ قالوا نعم أمه موجودة، فدعا بأمه: أترضين عن ولدك هذا؟ قالت: لا، لا سامحه الله ولا غفر الله له، قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: إن سامحتِه نطق بالكلمة ويدخل الجنة، وإن لم تسامحيه فهذا سبب شقاوته. فقالت: لا أسامحه أبدا.

1– جاء في تفسير روح البيان ج3/119 عن مالك بن دينار أنه دخل على جار له احتضر فقال يا مالك جبلان من النار أكلف الصعود عليهما، قال مالك: فسألت أهله فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.

2 – راجع الحكايتين في تفسير روح البيان ج3/122

فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم بحطب وأوقد نارا وقال: احملوه فأدخلوه في النار، فلما حملوه وأرادوا إدخاله في النار قالت: سمحت له سمحت له، فنطق بالشهادتين[1]. حق الوالدين، علم الرسول صلى الله عليه وسلم أنها لا ترضى أن ترى ولدها تأكله النار ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكم أو غيره ﴿فَاعْدِلُواْ﴾ بالصدق ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المقول له أو عليه ﴿ذَا قُرْبَى﴾ قرابة ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه عشر خصال ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ الذي وصيتكم به ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ هذا هو صراط الله المستقيم ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ﴾ الطرق المخالفة له ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ تتفرق تميل ﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»[2]. والله تبارك وتعالى منع الأمة من التفرق في العقائد لأن سبيل الحق واحد والسبل المتفرعة كلا سبل الشيطان. (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار وستفترق أمتي

---

1 - ذكرها الصفوري في كتابه نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص32.

2 - روى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما وخط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله". مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة/ مسند عبد الله بن مسعود (4205)، وفي سنن ابن ماجه: كتاب المقدمة/ باب إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (11)، وفي سنن الدارمي: كتاب المقدمة/ باب في كراهية أخذ الرأي (204).

على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ما أنا عليه وأصحابي)[1] أي السنة والجماعة.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة، ثم للترتيب في الإخبار لا في الوقائع ﴿تَمَامًا﴾ للنعمة ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ بالقيام به ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ بيانا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ﴾ بني إسرائيل ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿يُؤْمِنُونَ وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير كثير المنافع في الدنيا والدين ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يا أهل مكة اتبعوا هذا الكتاب بالعمل بما فيه ﴿وَاتَّقُواْ﴾ الكفر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ومن بركته أن بقاء الدنيا ببقاء القرآن[2] ما دام القرآن يقرأ فالأمطار والنباتات والنسل لا تنقطع، وإذا رفع القرآن حتى لم يبق من يحفظه، ومحي في المصاحف بقي العالم بلا خير حتى تقوم عليهم الساعة، واتقوا الكفر لعلكم ترحمون. أنزلناه أي القرآن ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ أن لا تقولوا ﴿إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ اليهود والنصارى ﴿مِن قَبْلِنَا وَإِنْ﴾ إنا ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم أي لغتهم ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لولا أن القرآن نزل لاحتجت هذه الأمة وقالوا أنزلت الكتب على اليهود والنصارى ونحن لا نعرف قراءتها، فسدت هذه الحجة بنزول القرآن بلغتهم ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لولا أن القرآن نزل

1- أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي) سنن الترمذي كتاب الإيمان/ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (2565) ولأبي داود في سننه: كتاب السنة/ باب شرح السنة (3981).

2- الصاوي ج2/31.

وقال العرب أنهم أجود أذهانا من العجم، لو جاءهم كتاب لرزقوا من الهداية ما لم يرزقوا ﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ﴾ بيان ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ والآن هذا القرآن بين أيديكم بلغتكم فما تقولون؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ كَذَّبَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ يعرضون عن القرآن ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظر المكذبون بالقرآن ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي أمره أي عذابه ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ أي علاماته الدالة على الساعة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ وهي طلوع الشمس من مغربها كما في حديث الصحيحين[1] ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ ينتظرون في تماديهم على الغي والضلالة مجيء الساعة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر علامات: الدخان وهو هذا الدخان الذي اشتغلت به الدول الآن لا تقوم الساعة حتى تروا الدخان، كل الدول الآن مشتغلون بالدخان دخان يفني العالم، ودابة الأرض، وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب، ويأجوج ومأجوج، والدجال، ونزول عيسى بن مريم، وطلوع الشمس من مغربها، ونارا تخرج من عدن)[2] هذه علامات قيام الساعة، بعضها ظهر وبعضها لم يظهر بعد. أما الدخان

1- أخرج الشيخان واللفظ لمسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون فيومئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (226) وفي صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (6506).

2 - أخرج مسلم في الصحيح عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: (إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات

فهو هذا الدخان الذي اشتغل فيه الدول الآن وخسفا بالمشرق وخسفا بالمغرب كل هذا وقع مرارا وتكرارا. ويأجوج ومأجوج دولتان عجميتان كبيرتان بهما هلاك دولة العرب وسيكون هلاك الدول على أيديهم أيضا[1]. الآن بقاياهم من الصين وهند الصين، هؤلاء من بقايا يأجوج ومأجوج، ولابد أن هلاك أوروبا سيكون على يد هؤلاء. هؤلاء الدول فيما مضى هم الذين دمروا دولة العرب زمن العباسيين، التتار منهم وبقاياهم هذه الدول التي سميت لكم، وسيهلكون أوروبا قبل كل شيء، ويأجوج ومأجوج أكبر فتنة للمسلمين، كذلك الدجال ونزول عيسى وخروج الدابة، وشروق الشمس من المغرب وذكروا المهدي في بعض الأحاديث[2]

فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (5162).

1- قال ابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قصة يأجوج ومأجوج في شرح قوله "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون" ويأجوج ومأجوج قبيلتان من ولد يافث بن نوح روى ابن مردويه والحاكم من حديث حذيفة مرفوعا (يأجوج أمة ومأجوج أمة كل أمة أربعمائة ألف رجل لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه كلهم قد حمل السلاح لا يمرون على شيء إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم) ومثله في كتاب الفتن/ باب يأجوج ومأجوج.

2- جاء في حديث أبي أمامة الباهلي الذي أخرجه ابن ماجه في سننه أن عيسى عليه السلام ينزل فيصادف صلاة الصبح فيصلي خلف إمام المسلمين، ونصه من الحديث: (.. فقالت أم شريك بنت أبي العكر يا رسول الله فأين العرب يومئذ قال: هم يومئذ قليل وجلهم ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرى ليتقدم عيسى يصلي بالناس فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم... الحديث). وقال السدي في شرح الحديث نقلا عن السيوطي عند قوله

والعلامات التي إذا ظهر منها شيء علمنا أن التغير الكبير في العالم قد وقع هي نزول عيسى وظهور الدجال وشروق الشمس من المغرب. إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]، ما لم يغلق باب التوبة. قال عمر: وهل للتوبة من باب؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعم باب طول مصراعيه مسافة أربعين سنة)[2]. لا أحد يعرف ما معنى هذه الأشياء أو متى تقع ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ باختلافهم فيه فأخذوا بعضه وتركوا بعضه ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقا في ذلك تركوا دينهم الذي أمروا به وهم اليهود والنصارى أو تفرقوا فصاروا فرقا فِرقا ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ فلا تتعرض لهم ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولاه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم به وهذا منسوخ بآية السيف ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ لا إله إلا الله ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فإن الله تبارك وتعالى يكتب له عشرا، هذا تفسير جلال، والصواب أن تبقى على ظاهرها، كل حسنة داخلة في هذا بدليل الحديث: قال الرسول صلى الله عليه وسلم:(إن الله تبارك وتعالى كتب على

(وإمامهم رجل صالح) هو المهدي. سنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم (4067).

1- أخرج الترمذي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) سنن الترمذي: كتاب الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار (3460).

2- أخرج ابن ماجه عن صفوان بن عسال قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من قبل مغرب الشمس بابا مفتوحا عرضه سبعون سنة فلا يزال ذلك الباب مفتوحا للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه، فإذا طلعت من نحوه لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) سنن ابن ماجه: كتاب الفتن/ باب طلوع الشمس من مغربها (4060) وفي رواية للترمذي: أربعون أو سبعون" كتاب الدعوات/ باب في فضل التوبة والاستغفار (3458).

نفسه الرحمة فمن همَّ منكم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كأنما عملها ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ومن عمل سيئة واحدة "فجزاء سيئة سيئة مثلها" ومن عمل بحسنة فله عشر أمثالها أو إلى سبعمائة ضعف أو إلى أكثر من ذلك)[1]. ذلك أن النفس الأمارة بالسوء وصفها الله، والنفس كأرض خبيثة والقلب كأرض طيبة والله تبارك وتعالى يقول "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا" لهذا عمل الخير يصدر من القلب فيخرج نباته بإذن ربه مضاعفا، وعمل النفس الأمارة بالسوء يخرج من أرض خبيثة لا يخرج إلا نكدا. والله تبارك وتعالى أنزل هذه الآية «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رب زد أمتي، فنزلت "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة" هذه سبعمائة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: رب زد أمتي، فقال "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة" أضعافا كثيرة أكثر من سبعمائة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رب زد أمتي، فقال "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"[2] بلا حصر عدد فقال: رضيت بالله، وذلك رجاء كبير للأمة. والحكمة

---

1 - أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل قال (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة) صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب من هم بحسنة أو بسيئة (6491)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (187).

2 - قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزلت "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة

في ذلك أن شخص الإنسان نفس وقلب وروح وسر، كما أن مراتب الأعداد عند أهل الحساب أربع مراتب: باب الآحاد وباب العشرات وباب المئين وباب الآلاف، إذا ضربت واحدا في محل الآحاد يكون واحدا فقط وإذا جعلته في محل العشرات يكون عشرة وإذا جعلته في محل المئين يكون مائة وإن جعلته في محل الآلاف يكون ألفا، فمن عمل سيئة هذا من باب النفس وهو باب الآحاد، سيئة مثلها، «جزاء سيئة سيئة مثلها» فقط، ومن جاء بالحسنة هذا من باب القلب فله عشر أمثالها لأنه ضرب واحدا في باب العشرات، وإذا ضرب في باب الروح يكون جزاؤه مئين لأنه باب المئين، وإذا كان في باب السر يكون جزاؤه الآلاف لأن هذا باب الآلاف، فعلينا أن نعمل خيرا والله يجازينا بأضعاف مضاعفة، والحق «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» العبد إذا قدم حسنة واحدة فله من الله عشر أمثالها قبل أن يقدم واحدة. الله قدم لنا حسنة الإيجاد أوجدنا من العدم، وحسنة الاستعداد جعلنا مستعدين للعمل، وحسنة التربية لما وُلدنا ولى آباءنا تربيتنا حتى عقلنا، وحسنة إرسال الرسل، وحسنة إنزال الكتب، وحسنة تبيين الحسنة والسيئة، وحسنة الإخلاص، وحسنة الهداية، وحسنة التوفيق، وحسنة القبول، فعل عشرا قبل أن نفعل واحدة «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» قدم لنا عشرا قبل أن نقدم نحن واحدة. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ «فجزاء سيئة سيئة مثلها» ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون من جزائهم شيئا، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم

أنبتت سبع سنابل" إلى آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رب زد أمتي، فنزلت "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة" قال: رب زد أمتي، فنزلت "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب". تفسير ابن كثير ج318/1.

(ويل لمن غلبت آحادُه أعشارَه)[1] إذا فعل سيئة كتبت مرة واحدة، وإذا فعل حسنة كتبت عشر مرات أو أكثر. على أن الذي على يمين العبد ويتولى كتب الحسنات هو الأمير على الذي على شمال العبد فإذا عمل حسنة أمر بكتبها في الحين، وإذا عمل سيئة قال له يؤخر كتبها ست ساعات لعله يتوب أو يستغفر أو يشفع فيه عبد من عباد الله الصالحين أو يعمل خيرا حسنة أخرى "إن الحسنات يذهبن السيئات" فإذا وقع شيء من ذلك في مدة ست ساعات لا تكتب سيئته، فإن غفل عن كل شيء حتى مرت ست ساعات كتبت مرة واحدة[2]، كرمُ الله، فإذا غفل العبد حتى تكون الآحاد التي لا يثبت بعضها أكثر من العشرات فهذا غافل جدا ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قل يا محمد إن الله تبارك وتعالى هداك إلى صراط مستقيم هو الإسلام ﴿دِينًا قِيِّمًا﴾ مستقيما ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إبراهيم أعطى كليته لله تبارك وتعالى وقال الله إنه ما كان من المشركين. إبراهيم سلم أمواله للضيفان، وسلم أولاده للقربان، وسلم نفسه للنيران، فكانت النار بردا وسلاما عليه، لم تجد إليه سبيلا ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي من حج وغيره ﴿وَمَحْيَايْ﴾ حياتي ﴿وَمَمَاتِي﴾ موتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ في ذلك ﴿وَبِذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا

1- ذكره القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن قال: وفي الخبر (الحسنة بعشر أمثالها وأزيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره) تفسير القرطبي ج151/7. وقد تقدم في الدرس 16.

2- أورد القرطبي معناه من حديث أبي أمامة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر) تفسير القرطبي ج10/17.

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ إلها لا أطلب غيره أبدا ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مالك كل شيء ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذنبا ﴿إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ﴾ تحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرَ أُخْرَى﴾ النفس لا تحمل إلا وزرها. هذا إن كان فيه شبه تعارض بين قوله "وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم" وقوله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)[1] فكيف الجمع بين هذين؟ إن الإنسان إذا لم يعمل وزرا و لم يأمر به و لم يتسبب في عمله فلا يكتب عليه، وأما قوله تعالى "وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم" لأنهم أضلوا هؤلاء وقادوهم إلى ارتكاب المحرمات، فلهذا كتبت عليهم، كذلك من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لأنهم دالون على هذا، ومن لم يدل و لم يأمر و لم يتسبب فهذا هو الذي يصدق فيه قوله «ولا تزر وازرة وزر أخرى» ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ﴾ جمع خليفة يخلف بعضكم بعضا فيها ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ بعضهم يجد المال، وبعضهم يجد الجاه، وبعضهم لم يجد شيئا من ذلك، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم ﴿فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ ليظهر المطيع منكم والعاصي ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

---

1 – أخرج الترمذي وابن ماجه واللفظ لابن ماجه عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئا) ابن ماجه: كتاب المقدمة/ باب من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة (199)، وللترمذي في سننه: كتاب العلم/ باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة (2599).

الله تبارك وتعالى بين أنه جعل بني آدم خلفاء في الأرض، فكل إنسان خليفة عن الله تبارك وتعالى على وجه الأرض في جزء من هذا العالم، آدم جعل خليفة في الأرض وهو أبو البشر خلقه الله وجعله خليفة، والقرآن ما نص على خلافة عبد من عباد الله إلا خلافة آدم وخلافة داوود، كلاهما فزع من الخلافة حتى تفرقت حروف اسمه. آدم: كل حرف لا يمس الآخر، داود: كل حرف لا يمس الآخر، هذا لأن الله تبارك وتعالى نص على خلافتهما، وكل إنسان خليفة، لأن الله هو رب الأشياء، كلنا رب شيء ولو قليلا ولو صغيرا، فلهذا قال الله تبارك وتعالى "ولقد كرمنا بني آدم" كرمهم بأن جعلهم خلائف في العالم، فكل المخلوقات ملك لبني آدم، وهم خلفاء الله على هذه البسيطة. فتجد الله تبارك وتعالى ما خاطب وما كلف وما وعد وما أوعد وما أرسل الرسل وما أنزل الكتب إلا إلى البشر، إذا رضي عنهم أكرمهم كرامة لا مزيد عليها، وإذا غضب عليهم حاربهم وعذبهم عذابا شديدا. لما كان كل بني آدم خليفة في الأرض من باب أولى المؤمنين "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا" وعدنا بهذا ووفى لنا. فأمة محمد صلى الله عليه وسلم حقق الله فيهم هذا حتى حكموا البلاد جميعا، ليست عندهم هندسة، وليس عندهم حساب، وليس عندهم علم طب، منهم من عنده سور من القرآن أو آيات يحفظها ولكن يؤمن به حقيقة ويمتثل أوامره ويجتنب نواهيه. واليوم المسلمون دخلوا في كل علم، أخذوا علم الحساب، وأخذوا علم الهندسة، وأخذوا علم التاريخ، أخذوا علم كل شيء وتركوا كتابهم الذي كان جزء منه قليل إن حفظوه وعملوا به يتكفل لهم بالعودة إلى مجدهم القديم وعزهم السابق، تركوا الأمر من حيث ما هو وطلبوه في غير محله، والسبيل إلى

العود إلى ما نصبو إليه هو التمسك بهذا الكتاب والعمل به كما فعل قدماؤنا صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، عمر بن الخطاب ومن تبعه. واليوم المسلمون أكثر عددا وأكثر علما، وآيات الله تبارك وتعالى التي تظهر في هذا الزمان أكثر من كل زمان، كان سليمان سخر الله له الريح "غدوها شهر ورواحها شهر" والآن سخر الله الجو لأمة محمد جميعا كلهم يطيرون ويذهبون إلى حيث شاءوا، كان من حق الإيمان أن يزداد بهذا فلم يزدد. وداود لين له الحديد وأمة محمد لان لهم كل شيء الحديد والنار والبحر والجو وكل شيء يتصرفون فيه كما يحبون الآن، ولكن الإيمان لم يترق، لم يزدد، ركبوا البحار، وركبوا الجو، وركبوا البر، ووجدوا الطيبات، وفتحت لهم خزائن الأرض، كل هذا كان من حقه أن يدعوهم إلى الهداية وإلى زيادة الإيمان ولكن هذا لم يكن، المادة قضت على الروح. وإني أدعو إلى الرجوع إلى كتاب الله وإلى التمسك به، نتفهمه ونمتثل أمره ونجتنب نهيه، فنكون كمن سبقنا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

الدرس الثامن عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

سورة الأعراف

مكية إلا "واسألهم عن القرية.." الثمان أو الخمس آيات، مائتان وخمس أو ست آيات.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آلَمِّصِّ﴾ الله أعلم بمراده بذلك، أسرار ألقاها الله في كتابه لا يعلم أحد معناها إلا من استحق علمه، يلهمه الله ولا يكتب في الأوراق ولا ينظر بالأحداق. هذه أربعة حروف "المص" ومنهم من يقول: ألف الله، لام جبريل، ميم محمد، صاد جسد محمد، لحديث ابن عباس سئل ما هو صاد؟ قال: جبل كان بمكة قبل أن يخلق الله الليل والنهار أي قبل وجود الكائنات، وهذا إشارة إلى جسد محمد صلى الله عليه وسلم فإن تربته من مكة، الله إذا أراد أن يُكوِّن إنسانا في بطن أمه يأمر الملك يأخذ قبضة من الأرض ويجمعها مع المني فيتخلق جسد الإنسان من تلك التربة، فمحل دفنه هو المحل الذي أخذ منه تربته أصلا، لأن الأرض شكت إلى ربها قالت: أُخذت مني أجزاء، فأوحى الله إليها سأرد إليك ما أخذ منك بأطيب وأحسن مما كان، فلهذا يغسل الميت ويكفن قبل أن يدفن، فلهذا فالتربة التي ضمت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة هي أفضل

أجزاء الأرض، لأن منها تكونت خلقة محمد صلى الله عليه وسلم، وبعدها الكعبة، وبعدها بيت المقدس، وبعدها الكوفة هي الحرم الرابع ويستغرق بغداد، هذه أفضل بقاع الأرض. فكيف تكون تربة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وأصلا ورد أنها في مكة؟ قيل إنه لما جاء الطوفان أخذ تربة المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة فلهذا صارت المدينة محل دفنه صلى الله عليه وسلم[1] ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هذا كتاب أنزله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أن تبلغه مخافة أن تكذّب، لا يضق صدرك بتبليغ هذا الذي نزل عليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعض العلماء يقول: في هذا تقديم وتأخير ولكن ليس كذلك - كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه - بل قدّم نهيه أولا لا يكن في صدرك حرج من تبليغ هذا الذي نزل عليك، لأنه أنزله عليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين. لما كان الإنذار والذكرى والتبليغ يقتضي هدايته صلى الله عليه وسلم للخلق قدم له أن لا يكون في صدره حرج فإن الله تبارك وتعالى ناصره ومتمم أمره ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ خطاب للأمة، هذا الذي أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي أنزل إلينا يجب علينا اتباعه، كيف قال أنزل إليكم وهو أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم؟ فهو أنزل إلى محمد ليبلغه إلينا فكأنه لما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وهو بلغ لنا، كأنه أنزله إلينا، والقرآن يأمرنا باتباع القرآن، وليس اتباع القرآن إلا العمل بمقتضاه أو بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي وكل إليه

1- انتقال تربة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ذكره في روح البيان ج237/8. وكذا ذكره محمد بن إسحاق الخوارزمي في كتابه: إنارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق عازيا للعوارف.

تبيين القرآن "لتبين للناس ما نزل إليهم" ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ﴾ تتخذوا ﴿مِن دُونِهِ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ تطيعوهم في معصية الله ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قليل تذكر الناس أي قبولهم للذكرى ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ أريد أهلها ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا إهلاكها ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ ليلا ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أو ظهيرة وهم قائلون، كثيرا ما يأتي الهلاك إلى جمع من الكفار ولا يأتيهم إلا بغتة إما ليلا وهم نائمون أو ظهيرة وهم نائمون القيلولة أيضا، المعنى العذاب يأتيهم مرة ليلا ومرة نهارا وعلى كل حال فهم غافلون ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ قولهم ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿إِلاَّ أَنْ قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أقروا بالظلم عند ظهور الآيات ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى أنه سيسأل الأمم عن إجابتهم للرسل ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أقسم أنه سيسأل الأنبياء عن الإبلاغ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لنخبرهم عن علم بما فعلوه ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عن إبلاغ الرسل والأمم الخالية فيما عملوا. ذكر في هذه الآية أنه سيسأل سؤالين: سؤال موجه إلى الأمم وسؤال موجه إلى الرسل. ومرة أخرى قال "ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون" أنه لا يسألهم وهنا قال إنه يسألهم، لا يسألهم سؤال تعلم منهم بل هو أعلم بما يسأل ولكن يسألهم سؤال توبيخ: كيف أجبتم رسلكم؟ والأنبياء يسألهم ليقروا بإبلاغهم فتقع الحجة على قومهم؛ تارة يقول القرآن إنه لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم وتارة يقول يسألهم معناه سؤال توبيخ، ويقول عن الكفار أنفسهم أنهم يتساءلون "يومئذ يتساءلون" ومرة يقول "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" يتساءلون في البداية عما يشاهدون ما هو؟ وإذا اشتد عليهم الخوف لا يتساءلون سؤال قرابة "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" في الدنيا، إذا وقع إنسان في شدة أو بلاء تجد أقاربه كلا يسألون عنه سؤال اهتمام مريدين تخليصه، ذلك السؤال هو الذي

نفى يوم القيامة "فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون" كلهم يهتم بأمر نفسه "لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه" ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ سيخبرهم بكل ما يجري ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ هذا دليل أهل المعية بالذات، أهل المعية بالعلم يقولون الله معنا بعلمه لا بذاته، وهو قال «فلنقصن عليهم بعلم» هذه في المعية بالعلم «وما كنا غائبين» هذه في المعية بالذات ﴿وَالْوَزْنُ﴾ للأعمال أو لصحائفها بميزان له لسان وكفتان ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم السؤال ﴿الْحَقُّ﴾ والوزن الحق يومئذ، يقع في ذلك اليوم، أو «والوزن يومئذ الحق» العدل. الله تبارك وتعالى يجمع الخلائق أولهم وآخرهم وينصب موازين لوزن أعمال العباد، كل ميزان كفتاه أكبر من السماوات السبع والأرضين السبع، ويقف ملكان حول الميزان إذا أوتي بعبد يوزن لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالرجل الطويل العريض الأكول الشروب فيوزن فلا يزن عند الله جناح بعوضة)[1] هذا الحديث يدل على أن الأشخاص يوزنون، والأعمال كذلك توزن لحديث يؤتى بتسع وتسعين سجلا كل سجل أطول من السماوات السبع والأرضين السبع من السيئات، فتوضع في كفة عبد فترجح سيئاته فتنزل بطاقة من السماء ورقة صغيرة ترجح بتلك السجلات كلا، قيل وما هذه الورقة يا رسول الله؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله[2]. وورد

---

1 – روى الشيخان بإسناد عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرءوا إن شئتم "فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا". صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب أولئك الذين حبطت أعمالهم (4729)، وفي صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ (4991). ولفظ (الأكول الشروب) ورد في رواية لابن مردويه كما جاء في شرح ابن حجر للحديث (4729) من صحيح البخاري.

2 – أخرج الترمذي وابن ماجه واللفظ للترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين

أن رجلا وضعت سيئاته فرجحت فنزلت صرة صغيرة من السماء فوقعت في الكفة فرجحت حسناته، قالوا: وما تلك الصرة؟ قال: تربة ألقاها عند الدفن في قبر مسلم. ويؤتى برجل فتوزن أعماله فرجحت حسناته فجاءت كلمة أف قالها مرة لأبيه فرجحت سيئاته فأمر به إلى النار، فذهب إلى النار وطلب من الملائكة أن يردوه إلى الله تبارك وتعالى: ردوني إلى ربي، ردوني إلى ربي، فيقول الرب: ولم تطلب أن تُرد إلي؟ فيقول: يا رب أنا سائر إلى النار وأبي هاهو سائر إلى النار معي، أطلب منك أن تضاعف علي سيئات أبي مع سيئاتي فأذهب إلى النار وتنجي أبي من النار، فيضحك الرب يقول: عققته في الدنيا وبررته في الآخرة خذ بيد أبيك وادخلا الجنة. وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة فبكى الناس وبكت عائشة وقالوا: يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أما في ثلاثة مواطن فلا: عندما يوزن عمل العبد قبل أن يعرف هل سيئاته ترجح أم حسناته لا يتذكر أحدا، وعندما تعرض الكتب إلى الناس منهم من يأخذ كتابه بيمينه ومنهم من يأخذ بشماله، قبل أن يعلم الإنسان هل يأخذ كتابه بيمينه أو بشماله فلا يتذكر أحدا، وعندما يوضع الصراط على

سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء) سنن الترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (2563) وفي سنن ابن ماجه: كتاب الزهد/ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (4290).

جهنم، قال صلى الله عليه وسلم إن في هذه المواضع الثلاثة لا يتذكر أحد أحدا[1] ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إن الله يخلق الثقل على الأعمال الطيبة والخفة على الأعمال السيئة فلذلك فمن ثقلت موازينه معناه رجحت حسناته فأولئك هم المفلحون ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالسيئات ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتصييرها إلى النار ﴿بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ يجحدون ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ مكنا أباكم آدم ﴿فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أسباب المعيشة ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ خلقنا أباكم آدم ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ ثم صورناه ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ الله تبارك وتعالى خلق آدم وصوره وأمر الملائكة بالسجود له. أولنا الآية: خلقناكم: خلقنا أباكم لأن ظاهر الآية يقتضي أنه خلقنا نحن أولاد آدم وصورنا قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم، وهذا مخالف للواقع، إنما هذا الخلق خلق آدم المتضمن لخلقنا، وهذا التصوير تصوير آدم المتضمن لتصويرنا، خلقنا آدم وصورناه «ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ» سجود تحية «فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ» أبا الجن «لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ» أبى. الله خلق آدم لما أكمل خلقته ما أمر

1- أخرج أبو داود عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا، عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل وعند الكتاب حين يقال "هاؤم اقرءوا كتابيه" حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم). سنن أبي داود: كتاب السنة/ باب في ذكر الميزان (4128) ولأحمد مختصرا حدثنا عفان حدثنا القاسم بن الفضل قال: قال الحسن: قالت عائشة (يا رسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال أما في مواطن ثلاثة فلا الكتاب والميزان والصراط) مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث السيدة عائشة (23555).

الملائكة بالسجود له حتى نفخ فيه الروح "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين" ما استحق السجود إلا بعد أن نفخ فيه الروح، وذلك الروح عرفتموه. السجود للروح الذي نفخ في آدم. أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس لم يكن من الساجدين تعلل بأنه أفضل من آدم، فلا ينبغي لفاضل أن يخدم مفضولا، لو أمر شيخ كبير أن يخدم تلميذا له صغيرا لكان هذا غير مناسب فرأى إبليس نفسه في تلك المرتبة، وفضليته رآها من أنه خلق من نار، والنار من نور، والنور أفضل من الظلمة، والطين ظلمة وأصل آدم من الطين، وليس كما رأى، فسوف نبين لكم إن شاء الله أن التراب أفضل من النار، فلو كانت النار أفضل من التراب فهذا لا يقتضي بالضرورة أن من كان أصله أفضل يكن أفضل، بل الله تبارك وتعالى يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن "لا يسأل عما يفعل" ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ أن تسجد ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ مخالفة واحدة تضمنت ثلاثا فلهذا خوطب هنا «ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك» خالف أمر الله تبارك وتعالى، في هذه الآية بين له أنه خالف أمر الله هذه كبيرة. مرة أخرى "ما لك ألا تكون مع الساجدين" أي خرج من الجماعة أيضا وهذه كبيرة. مرة أخرى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي" ترك تعظيم ما عظم الله تبارك وتعالى فلهذا باين السؤال في الصور الثلاث. هنا قال: «إذ أمرتك»، مرة يقول: "ما لك ألا تكون مع الساجدين"[1] مرة أخرى: "ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي"[2] ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من الجنة، وقيل من السماوات ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ ينبغي ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا

1 – سورة الحجر الآية 32.

2 – سورة ص، الآية 75

فَاخْرُجْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الذليلين ﴿قَالَ أَنظِرْنِي﴾ أخرني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ طلب من الله تبارك وتعالى أن يؤخره إلى يوم القيامة فيموت في ذلك اليوم ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أنظره الله "إلى يوم الوقت المعلوم" أي وقت النفخة الأولى فهو باق في قيد الحياة إلى يومنا هذا، كلما مر عليه الزمان حتى هرم وبلغ الغاية في الهرم رده الله ابن ثلاثين سنة، وهذا ليكون بلاء في الخلق، من أراد الله به خيرا يخالف إبليس ومن أراد الله به شقاوة يتبع إبليس، أو هذا التأخير جزاء لما تقدم من عباداته، تقدم أنه عبد الله تبارك وتعالى في كل شبر من الأرض ألف سنة وتولى خزانة الجنة أربعين ألف سنة وجاهد ستين ألف سنة[1]، لما عبد الله تبارك وتعالى هذه المدة كافأه الله بأن أبقاه إلى آخر الدهر جزاء له[2].

والله تبارك وتعالى ليس بظلام للعبيد، ومستجيب لكل من دعاه، حتى إبليس الكافر طلب منه الإنظار فأنظره، ما أعطاه كل مطلوبه، هو كان يطلب أن يبقى حيا إلى يوم القيامة وذلك لأمرين: إذا بقي إلى يوم القيامة لا يموت بعد أو إذا مات في ذلك اليوم لا يحاسب وإن لم يحاسب فلا يدخل النار، لم يعط هذا ولكن أعطي البقاء إلى آخر الدهر ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ بإغوائك لي ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لبني آدم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ على الطريق الموصل إليك ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من كل جهة فأمنعهم عن سلوكه، قال ابن عباس ولا يستطيع أن يأتي فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله. أقسم إبليس أنه يقعد لبني آدم صراط الله المستقيم وسيأتيهم من جهة اليمين والشمال والأمام والخلف ولكن لا يأتيهم من فوق ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مؤمنين ﴿قَالَ

1- تقدم في الدرس الثالث.

2- ذكر هذا القول في روح البيان ج142/3.

اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ أي معيبا أو ممقوتا ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعدا عن الرحمة ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من الناس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ منك بذريتك ومن الناس من اتبعك منهم ﴿وَ﴾ قال ﴿يَاءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بالأكل منها ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إبليس ﴿لِيُبْدِيَ﴾ ليظهر ﴿لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ من المواراة ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ عوراتهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ هذه شجرة الخلد وملك لا يبلى كما قال في سورة أخرى[1] ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ في ذلك ﴿فَدَلاَّهُمَا﴾ حطهما عن منزلتهما ﴿بِغُرُورٍ﴾ منه ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أكلا منها ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ ظهر لكل منهما قُبله وقُبل الآخر ودبره ودبر الآخر ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أخذا يلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ليستترا به ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بمعصيتنا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُواْ﴾ آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بعض الذرية ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ من ظلم بعضهم بعضا ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مكان استقرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع ﴿إِلَى حِينٍ﴾ تنقضي فيه آجالكم ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فِيهَا﴾ الأرض ﴿تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ بالبعث ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ خلقنا لكم لباسا ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ هو ما يتجمل به من الثياب ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ العمل الصالح أو السمت

1 – سورة طه، الآية 120.

الحسن ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ لكم ﴿ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيؤمنون به. إن الله تبارك وتعالى أنزل لبني آدم لباسا يواري سوءاهم، وأنزل لهم لباسا يتجملون به في أيام أعيادهم، ولباس التقوى هو العمل الصالح «ذلك خير ذلك من آيات الله» الله تبارك وتعالى كسا عباده الصالحين لباسا، لباس النفس ولباس القلب ولباس الروح ولباس السر، لباس النفس: العمل بالشريعة، امتثال الأمر واجتناب النهي يستر عورة مخالفة أمر الله. ولباس القلب التقوى أيضا وهو تقوى يمنع العبد من الاشتغال بغير الله. ولباس الروح التقوى أيضا ولكن لباس يمنعه من الالتفات إلى غير الله تبارك وتعالى. ولباس السر التقوى ولكن تقوى يحجزه عن رؤية ما سوى الله تبارك وتعالى، ذلك خير أفضل اللباس ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ﴾ يضلنكم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ لا تتبعوه فتفتنوا ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ﴾ الشيطان ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ جنوده ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ لِلَطافة أجسادهم وعدم ألوانهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أعوانا وقرناء ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾ كالشرك وطوافهم بالبيت عراة قائلين لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها فنهوا عنها ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ فاقتدينا بهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ لقي الرسول صلى الله عليه وسلم إبليس سأله إلى أين؟ قال: إليك لتسألني، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: من أبغض أبناء آدم إليك؟ قال له: أنت والإمام العادل، والغني المتواضع، والتاجر الصادق، والعالم المتخشع، والمؤمن الصحيح التوبة، والمؤمن الحليم، والمؤمن السخي، والمؤمن المتورع عن الحلال، وحامل القرآن، والمصلي بالليل والناس نيام. قال له: ومن رفقاؤك من الناس؟ قال: مِلك متكبر، وغني بخيل، ومن يأكل الربا ومن يأكل أموال اليتامى، ومن يشرب

الخمر، ومدمن الزنا، ومدمن الخمر والقتّال للنفس، هؤلاء هم رفقائي إذا وجدهم من بني آدم أتخذهم[1]. الشياطين أشد منا. ولقي يحيى بن زكريا قال له: يا عدو الله من أحب الناس إليك؟ قال: المؤمن البخيل. قال له: ومن أبغض الناس إليك؟ قال: الفاسق السخي، قال له: ولِمَ؟ قال: المؤمن البخيل يكفينا منه بخله لأن البخيل في النار، والفاسق السخي نخشى أن ينظر الله إلى سخائه فيغفر له ويدخله الجنة، قال له: هل أفسدت علي شيئا قط؟ قال: لا، إلا مرة واحدة، قُدّم إليك طعام فأشهيته إليك، فأكلت حتى أكلت أكثر من الحاجة، فنمت الليل كله لم تصل ركعة واحدة، فأقسم يحيى أنه لا يشبع مدة حياته فيما بعد، وأقسم له هو أنه لا ينصح آدميا مدة الدنيا ما بقي[2]. «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء». تراءى إبليس للجيلي بعد كماله وتمكنه يريد أن يفسد عليه طريقه، قال له: يا عبد القادر أنا ربك ورضيت عنك وأسقطت عنك الصلاة لا تُصلّ بعد. قال له: اخسأ يا لعين فأنت إبليس لست ربي، خجل وقال له: بمَ عرفتني؟ قال: عرفتك بالعلم «إن الله لا يأمر بالفحشاء» وأنت الذي أمرتني به فحشاء. قال له: لا أحاربك بعد. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ العدل ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ لله ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أخلصوا له سجودكم ﴿وَادْعُوهُ﴾ اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ خلقكم ولم تكونوا شيئا ﴿تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى﴾ منكم ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ما يستر عورتكم عند الصلاة والطواف بأن

1- هذه المحاورة ذكرها صاحب روح البيان عن وهب بن منبه، روح البيان ج3/151.

2- روح البيان ج7/ 121.

تلبسوا وتعمموا ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ ما شئتم ﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ كلوا ما شئتم واشربوا ما شئتم ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين. كان نصراني طبيب في زمن هارون سأل العلماء: ما بال كتابكم ليس فيه شيء من علم الطب؟ أجابه الحسين بن علي الواقدي قال له: إن الله جمع لنا الطب في نصف آية، قال له: وما تلك الآية؟ قال له: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»، قال له: وهل نبيكم صلى الله عليه وسلم نطق بشيء من علم الطب؟ قال نعم، في كلمات يسيرة جمع لنا الطب كله. قال: ما قال رسولكم؟ قال: (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد) قال: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئا[1]. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من اللباس ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات ﴿مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالاستحقاق وإن شاركهم فيها غيرهم ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة بهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2]، إذا آمن العبد واتقى فكل ما شاء من اللباس سواء خشن أو حسن فلا يضره، وكل ما تناول من الطعام فلا يضره، وإن كان الإيمان غير صحيح أو العمل غير مستقيم فلا ينفعه التقشف في اللباس ولا في المعاش «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون» كان الرسول صلى

1- انظر القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج192/7.

2- أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (4651).

الله عليه وسلم يلبس كل ما وجد تارة كساء وتارة يلبس لباسا لا تجد لباسا مثله عند الملوك. لبس يوما عباءة قوّمت بخمسمائة دينار تبيينا منه صلى الله عليه وسلم أن المدار ليس على ذلك، المدار على القلب ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ الكبائر كالزنا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ المعصية ﴿وَالْبَغْيَ﴾ على الناس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الظلم ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذكر في هذه الآية الكبائر، كلها كبائر ولكن أخر أكبرها، حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن هي الزنا، والإثم: جميع المعاصي، والبغي ظلم الناس، أكبر من هذا كلا «وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا»، الشرك أعظم من ذلك كلا، وأعظم من هذا كلا «أن تقولوا على الله ما لا تعلمون». في هذه الآية الأشياء في الترقي، الفواحش أعظم منها الإثم وأعظم منها البغي وأعظم منها الشرك وأعظم منها التقول على الله ما لم يقل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة ﴿فَإِذَا جَا أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى﴾ الشرك ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ تكبروا ﴿عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ القرآن ﴿أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرزق والأجل وغير ذلك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ الملائكة ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ﴾ لهم تبكيتا ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ غابوا ﴿عَنَّا﴾ فلم نرهم ﴿وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ عند الموت ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ قَالَ﴾ تعالى يوم القيامة ﴿ادْخُلُواْ فِي﴾ جملة ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النار

﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي قبلها لضلالها بها ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ﴾ تلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ وهم الأتباع ﴿لِأُولاَهُمْ﴾ وهم المتبوعون ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مضعفا ﴿مِنَ النَّارِ قَالَ﴾ تعالى ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ عذاب مضعف ﴿وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ ما لكل فريق ﴿وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ المتبوعون أجابوا ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم لم تكفروا بسببنا فنحن وأنتم سواء قال تعالى ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ تكبروا ﴿عَنْهَا﴾ فلم يؤمنوا بها ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ إذا عُرج بأرواحهم إليها بعد الموت فيهبط بها إلى سجين بخلاف المؤمن فتفتح له ويصعد بروحه إلى السماء السابعة كما ورد في الحديث[1] ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ﴾ يدخل ﴿الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ في ثقب الإبرة وهو غير ممكن فكذا دخولهم ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الكفار لا يدخلون الجنة أبدا حتى يدخل الجمل في سم الخياط وهذا غير ممكن، والكفار قسمان: الكفار بالحس والكفار بالمعنى، الكفار بالمعنى هم الذين تركوا السير إلى الله تبارك وتعالى، أولئك لا يدخلون جنة المعرفة حتى يلج الجمل حتى يفنى وجود العبد وجمل وجوده حتى لم يبق فيه شيء عندها يمكنه الدخول في سم الخياط، لعله لم يبق شيء إذاً يدخل «وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ» ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من النار ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ جملة اعتراض ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حقد بينهم في الدنيا قال علي:

1- أخرجه أحمد في مسنده عن البراء بن عازب وهو حديث طويل، مسند أحمد: أول مسند الكوفيين/ حديث البراء بن عازب (17803).

نزلت فينا أهل بدر[1]. الله ينزع ما بينهم من العداوة حتى يبقوا إخوان الصفاء ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ تحت قصورهم ﴿الْأَنْهَارُ وَقَالُواْ﴾ عند الاستقرار في منازلهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ العمل الذي هذا جزاؤه ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ﴾ دعوا ﴿أَنْ﴾ أنه ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ تقريرا أو تبكيتا ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب ﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾ معوجة ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا﴾ أصحاب الجنة والنار ﴿حِجَابٌ﴾ حاجز قيل هو سور الأعراف ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وهو سور الجنة ﴿رِجَالٌ﴾ استوت حسناهم وسيئاهم كما في الحديث[2]. أهل الأعراف الذين قلّت حسناهم وكثرت سيئاهم، فسيئاهم منعتهم من دخول الجنة وحسناهم – وإن قلّت – منعتهم من دخول النار فبقوا في الأعراف؛ وقيل الذين استشهدوا وقد ذهبوا إلى الجهاد بغير إذن الأبوين[3]؛ وقيل من رضي عنه أبوه دون أمه أو رضيت عنه أمه

---

1 – قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت "ونزعنا ما في صدورهم من غل". تفسير ابن كثير ج216/2.

2– ذكره القرطبي قال: قال ابن عطية: وفي مسند خيثمة بن سليمان (في آخر الجزء الخامس عشر) حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار، قيل: يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف "لم يدخلوها وهم يطمعون") القرطبي ج211/7.

3– نقله القرطبي عن شرحبيل بن سعد. ج212/7.

دون أبيه؛ وقيل العبد الذي يعبد الله تبارك وتعالى ويعق سادته؛ وقيل أولاد الزنا الذين تخلقوا بالحرام إذا عبدوا الله تبارك وتعالى؛ وقيل أولاد المشركين ويمكن أن يكون الجميع، أولئك رجال استوت حسناهم وسيئاهم أو غلبت سيئاهم على حسناهم، فالحسنات ولو قلت تمنعهم من دخول النار والسيئات تكاثرت حتى منعتهم من دخول الجنة فكانوا في السور سور الجنة ﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماهم وهي بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكفار ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أهل الأعراف ينادون أهل الجنة السلام عليكم، السلام عليكم، يحبون أن يدخلوا ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ ما دخلوا الجنة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ولكن طمعوا في دخول الجنة، قال الحسن: لم يطمعهم إلا لكرامة يريدها بهم، لولا أنه أراد أن يدخلهم الجنة ما أطمعهم فيها، (أنا عند ظن عبدي بي)[1]، قال حذيفة: بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم[2] ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أصحاب الأعراف ﴿تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ﴾ جهة أصحاب النار ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً﴾ من أصحاب النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ﴾ من النار ﴿جَمْعُكُمْ﴾ المال أو كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

---

1 – متفق عليه واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه (7405)، وفي صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله (4832).

2– نقله جلال الدين السيوطي في الجلالين عن الحاكم. ج76/2.

استكباركم عن الإيمان فيقولون لهم مشيرين إلى ضعفاء المسلمين ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قد قيل لهم ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وقُرئ أُدخلوا بالبناء ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام ﴿قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أهل النار مع شدة العذاب اشتد عليهم الجوع والعطش حتى طلبوا من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو شيء من الأكل ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ كما تركوا ﴿لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ بترك العمل له ﴿وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكما جحدوا ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ أهل مكة ﴿بِكِتَابٍ﴾ قرآن ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ بيناه بالإخبار والوعد والوعيد ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ عالمين بما فُصّل فيه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون ﴿إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ عاقبة ما فيه ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ هو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَا﴾ كما للمسلمين ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نوحد الله ونترك الشرك فيقال لهم ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ صاروا إلى الهلاك ﴿وَضَلَّ﴾ ذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من دعوى الشرك ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الله تبارك وتعالى خلق الخلق في أوقات ستة، ستة أيام هذا قبل أيام الدنيا، لأنه لم يكن شمس ولا قمر، ولكن قدر أنه خلق السماوات والأرض وما فيهما في ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والحكمة في ذلك - هو إنما يقول كن فيكون - تعليمنا نحن التأني، فإننا نعمل

بالقوة ونعمل بالآلة فنحتاج للتأني، نصنع شيئا فشيئا حتى نستكمل عملنا، وأما هو فإنما يقول كن فيكون، فلهذا ورد (التأني من الرحمن والعجلة من الشيطان)[1] إلا في أشياء العجلة فيها ليست من الشيطان: تعجيل التوبة بعدما أذنب العبد، هذا من الرحمن، وتعجيل قضاء الدين بعدما حان وقته، وتعجيل قرى الضيف، وتعجيل تزويج البكر، وتعجيل دفن الميت، هذا ليس من الشيطان[2]، وكل عجلة غير هذا فهي من الشيطان وهذه من الرحمن. «في ستة أيام» بدأ الخلق يوم الأحد وختم يوم الجمعة، ثم استوى على العرش استواء يليق به ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يغطي كل واحد منهما بالآخر ﴿يَطْلُبُهُ﴾ يطلب كل منهما الآخر طلبا ﴿حَثِيثًا﴾ سريعا إذا كنا في النهار فالليل يطلب النهار أن ينقضي حتى يأتي هو والنهار كذلك، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بقدرته ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ﴾ جميعا ﴿وَالْأَمْرُ﴾ كله ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم ﴿اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الخلق ما ظهر من الخلائق، والأمر ما لم يظهر، الخلق ما خلق من شيء "وما خلق الله من شيء"، كل ما في هذا الخلق فهو من شيء، والأمر ما خلق من لا شيء، فلهذا قال: الروح من أمر ربي، الروح من عالم الأمر، الخلق والأمر هو الملك والملكوت، هو الغيب والشهادة، هو الحس والمعنى والدنيا والآخرة، هو الظاهر والباطن، «تبارك الله رب العالمين» ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ تذللا ﴿وَخُفْيَةً﴾ سرا ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء بالتشدق كثرة الكلام ورفع الصوت، (اربعوا على

1- أخرج الترمذي عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الأناة من الله والعجلة من الشيطان) سنن الترمذي: كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في التأني والعجلة (1935).

2- روح البيان ج9/ 138.

أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا بل تدعون سميعا قريبا مجيبا)[1] ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ ببعث الرسل ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا﴾ من عقابه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ المطيعين، يرجوه المحسنون، فالرجاء ما قارنه عمل وإلا فأمنية، من بذر بستانا وحرث وحصد ودرس وقال أرجو أن أجد كذا أردبا هذا رجاء، ومن لم يبذر شيئا و لم يحرث و لم يزرع شيئا وتمنى أن يجد كذا أردبا فهذه أمنية ليست رجاء. الله تبارك وتعالى دعا إلى الإحسان فقال «إن رحمة الله قريب من المحسنين» ليجتهد الناس كلا في تحصيل رحمته وعلمهم أنه هو المعطي وهو المتفضل لقوله: "كتب على نفسه الرحمة" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا حتى يتغمدني الله برحمته)[2] نعم العمل الصالح تقدم في الآية "تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون" وهذا الحديث دل على أن الجنة فضل من الله تبارك

---

[1] – أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنه معكم إنه سميع قريب تبارك اسمه وتعالى جده) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (2992) وفي صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب استحباب خفض الصوت بالذكر (4873).

[2] – متفق عليه واللفظ للبخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لن يُدخل أحدا عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فلعله أن يستعتب) صحيح البخاري: كتاب المرضى/ باب تمني المريض الموت (5673)، وفي صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله (5037).

وتعالى، سأل سيدنا علي كرم الله وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال: (رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1] الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه، والأم حقيقة أم الكتاب قال علي: أفلا نتكل حيث رفعت الأقلام وجفت الصحف؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له[2]. العمل علامة نعرف بها لم خلق الإنسان؟ من خلقه الله للسعادة يوفقه لعمل الخير، ومن خلقه للشقاوة يضله ويخذله فيعمل بعمل أهل الشقاء. الناس على أربعة أقسام: سعيد في لباس السعادة، وشقي في لباس الشقاوة، وسعيد في لباس الشقاوة وشقي في لباس السعادة. سعيد في لباس السعادة كالأنبياء خلقوا سعداء ولم يعملوا إلا عمل السعادة، وشقي في لباس الشقاوة: الكفار الذين ماتوا على الكفر، خلقوا أشقياء وعاشوا يعملون عمل الأشقياء، وشقي في لباس السعادة كمثل إبليس وبلعام بن باعوراء وبرصيصا وكل

---

1 – أخرج الترمذي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام وجفت الصحف). سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع/ (2440) وجاء في مسند أحمد: مسند الشاميين/ بداية مسند عبد الله بن عباس (2537).

2– أخرج الشيخان واللفظ للبخاري عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض فقال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى" الآية) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب فسنيسره للعسرى (4949)، وفي صحيح مسلم: كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (4787).

من حصلت منه ردة، سبقت لهم أعمال حسنة وفي ذلك الوقت هم أشقياء ولكن في لباس السعادة. وسعيد في لباس الشقاوة كمسلم كان كافرا في بداية الأمر، في بداية أمره لبس لباس الشقاوة وهو سعيد لابد أن يرجع سعيدا كأبي بكر وعمر وكل من تبعهما ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالاً﴾ بالمطر ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لا نبات به ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ بالبلد ﴿الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ بالماء ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ﴾ الإخراج ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم بالإحياء ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنون ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ العذب ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ حسنا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ هذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ ترابه ﴿لاَ يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلاَّ نَكِدًا﴾ عسرا بمشقة وهذا مثل الكافر ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ﴾ نبين ﴿الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ فيؤمنون. إذا كانت السورة مكية لابد أن يرد فيها الوعيد الشديد وذكر أحوال الآخرة، ولابد من قصص الأنبياء ليتفكروا، يعلمون أن الذين كذبوا بالأنبياء هلكوا فيعرفون أنهم إذا كذبوا هذا النبي فهم سيهلكون، والرسول أيضا يعلم أن الأنبياء قبله كذبوهم وأنكروا عليهم ومكروا بهم والنصر لهم ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه كلمتهم جميعا، فلهذا من كذب بواحد منهم فقد كذب بالجميع ﴿إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ بين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ﴾ هي أعم من الضلال، فنفيها أبلغ من نفيه ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ﴾ أريد الخير ﴿لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أكذبتم وعجبتم ﴿أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ موعظة ﴿مِن رَّبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ الله

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من الغرق ﴿فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أول الأنبياء مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الحق فرموه بالضلالة، عادة الكفار يعكسون القضية، ضلوا حتى أن الهادي المرشد يصفونه بالضلالة، لأنهم يرون الفساد صلاحا والصلاح فسادا، أهلكهم الله، ستأتي قصتهم. ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ تخافون ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ جهالة ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في رسالتك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ مأمون على الرسالة ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أكذبتم وعجبتم ﴿أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء﴾ في الأرض ﴿مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ قوة وطولا وكان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين ذراعا هذا من أذرعهم ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالاَءَ اللَّهِ﴾ نعمه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ﴾ نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قولك ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب ﴿وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ سميتم بها ﴿أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ﴾ أصناما تعبدونها ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا﴾ بعبادتها ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَانتَظِرُواْ﴾ العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ذلك بتكذيبكم لي، فأرسلت عليهم الريح العقيم ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ هودا ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ استأصلناهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ معجزة

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ على صدقي ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ قالوا له إنهم لا يؤمنون به حتى تتمخض تلك الهضبة وتلد ناقة مرضعة، فتمخضت الهضبة وهم ينظرون حتى نفست كما تنفس النساء ناقة عشراء خرجت وخرج فصيلها معها[1]، قال لهم هذه ناقة الله آية لكم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ في الأرض ﴿مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم ﴿فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ تسكنونها في الصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ تسكنونها في الشتاء ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ تكبروا عن الإيمان به ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ من قومه ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إليكم حقا رسول؟ ﴿قَالُواْ﴾ نعم ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وكانت الناقة لها يوم في الماء ولهم يوم فملوا من ذلك، إذا كان يومها تقف على رأس البئر فتشرب جميع ما فيها حتى لم يبق فيها قطرة، ثم تقف فيحلبون كلهم ما يكفيه، وإذا جاء يومهم وردوا الآبار وبقيت هي، فلما طال بهم الزمن ملوا من ذلك ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ﴾ وكانت امرأة عندها كثير من الحيوان استاءت من هذا، وكانت تبغض صالحا وتبغض الناقة جدا، فطلبت من يعقر لها الناقة فأتاها قدار رجل ولد زنى ولكن ولد على فراش سالف، قدار بن سالف فصار يقال له ابن سالف وهو وُلد على فراش سالف فقط وليس ولده فهو ولد حرام كان أحمر أزرق العينين قصيرا أتى للمرأة يطلب منها السوء، فطلبت منه عقر الناقة فخرج إلى الناقة فعقرها فقتلوها وجزروها وتقاسموا

1- انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج83/2.

لحمها كلهم حمل قسما إلى بيته ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أتوا لصالح وقالوا له: أنت قلت إذا عقرنا الناقة نزل العذاب، عقرناها وتقاسمنا لحمها، قال لهم: ماذا فعلت؟، قالوا: صرخت ثلاث مرات، قال لهم: بقي لكم ثلاثة أيام ستهلكون بعدها، قالوا: آتنا بعلامة، عقروها يوم الأربعاء، قال لهم: غدا يوم الخميس تصبحون مصفرة وجوهكم، ويوم الجمعة محمرة وجوهكم، ويوم السبت مسودة وجوهكم، وصبيحة يوم الأحد سيأتيكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فلما أصبحوا يوم الخميس كلهم يقول لصاحبه: ما أشد صفرة وجهك! يقول له صاحبه: أنت أشد مني صفرة. لما جاء يوم الجمعة كلهم يقول: ما أشد حمرة وجهك، يوم السبت: ما أشد سواد وجهك، فعلموا أن الحق ما قال لهم رسول الله، فكلهم غسل نفسه وتكفن وخرجوا إلى خارج البلدة ينتظرون الهلاك، فأتت سحابة من السماء أضرمها جبريل عليهم نارا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ هذه الناقة من الحيوانات التي تدخل الجنة. عشرة من الحيوانات من أهل الجنة: براق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقرة بني إسرائيل، وناقة صالح، وحمار عزير، وكلب أهل الكهف، كذلك هدهد بلقيس ونملة سليمان، وعجل إبراهيم الذي أضاف به الملائكة وكبش إسماعيل، وحوت يونس بن متى[1] ﴿فَتَوَلَّى﴾ أعرض صالح ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ وَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أدبار الرجال هم أول من فعل هذه

---

1 – ذكر العلامة الصفوري في كتابه نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص75: ذكر كلب أهل الكهف قال ويدخل معهم الجنة، وكذلك ناقة صالح وعجل إبراهيم، وكبش إسماعيل، وبقرة بني إسرائيل، وحوت يونس، ونملة سليمان، وهدهد بلقيس، وناقة محمد صلى الله عليه وسلم، وحمار عزير.

الفاحشة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن. قال ابن عباس: إن من وطئ غلاما أمرد أو قبل غلاما شهوة فكأنما زنى بأمه سبعين مرة ومن زنى بأمه مرة فكأنما زنى ببكر سبعين مرة ومن زنى ببكر مرة فكأنما زنى بثيب سبعين مرة[1] ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُمْ﴾ لوطا وأتباعه أخرجوهم من البلدة ﴿مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ هو حجارة السجيل فأهلكتهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوتهم واحدة فلهذا من كفر بواحد فقد كفر بالجميع ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ معجزة ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ على صدقي ﴿فَأَوْفُواْ﴾ أتموا ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ﴾ تنقصوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ ببعث الرسل ﴿ذَلِكُمْ﴾ المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مريدي الإيمان فبادروا إليه ﴿ وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تخوفون الناس بأخذ ثيابهم أو المكس منهم ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ تصرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ بتوعدكم إياه بالقتل ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ تطلبون الطريق ﴿عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قبلكم بتكذيبهم رسلهم، آخر أمرهم من الهلاك ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ

1- روح البيان ج197/3.

يُؤْمِنُواْ﴾ به ﴿فَاصْبِرُواْ﴾ انتظروا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم بإنجاء المحق وإهلاك المبطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أعدلهم. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس التاسع عشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري	لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة	تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ عن الإيمان لما سمعوا تذكرة شعيب أجابوا بهذا الجواب ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ ترجعُن ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ جواب المستكبرين هكذا «لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا» أي لتصيرن، العود بمعنى الصيرورة لأنهم ما كانوا في ملتهم قط ﴿قَالَ أَ﴾نعود فيها، أنصير إلى دينكم ﴿وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ استفهام إنكار ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ عادة المتكبرين أنهم يكرهون أهل الحق ويقمعونهم، ولسان حالهم دائما يقول كما قال المنافقون "ليخرجن الأعز منها الأذل"، لما بلّغ لهم شعيب رسالة ربه كان جوابهم أنهم يخرجونه من البلدة هو ومن اتبعه. قال تعالى "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" عادتهم يتجبرون على أهل الله تبارك وتعالى ويرون الحق باطلا والباطل حقا ويحاولون أن يرجع أهل الله من حقهم إلى باطلهم، وذلك ما لا يكون أبدا، فهددوهم بأنهم يخرجونهم من القرية أو يرجعون إلى دينهم، ما قالوا؟ لنخرجنك يا شعيب أو لنعيدنك في ملتنا

لأنهم يحبون أن يعذبوهم ويقهروهم حتى يعودوا إلى دينهم باختيارهم صورة، فلهذا أسندوا الإخراج إلى أنفسهم «لنخرجنك يا شعيب» والعود أسندوه إلى شعيب وقومه «أو لتعودن في ملتنا»، وكان من حقهم أن يقولوا أو لنعيدنكم إلى ملتنا ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَّشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ صرح شعيب أن العود إلى دينهم لا يكون إلا بمشيئة الله تبارك وتعالى إلا إذا خذلهم الله ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل شيء ومنه حالي وحالكم ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ﴾ احكم ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ قطعوا طمعهم في عودهم إلى دينهم بأن قالوا لهم إنهم لا يعودون إلى دينهم أبدا، اللهم إلا إذا كان ذلك بمشيئة الله، فبهذا تعلم أن الكفر والإيمان كلا بمشيئة الله ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ كأنهم لم يقيموا في ديارهم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ تأكيد بإعادة الرد عليهم في قولهم السابق، أخبر تبارك وتعالى أنهم شاهدوا الربح خسرانا والخسران ربحا؛ إتباع شعيب هو الربح في الدارين، ومخالفة شعيب هي الخسران، ولكن العبد إذا أضله الله وطمس بصيرته يرى الخسران ربحا ويرى الربح خسرانا، ولكن طريقة الربح هي طريقة المتابعة أي متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء[1]، على أن متابعة العلماء لا ينبغي أن تكون موافقة لهوى النفس فقط أو لمن

1- (العلماء ورثة الأنبياء) طرف من حديث أخرجه الترمذي وأبو داود. سنن الترمذي: كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (2606)، سنن أبي داود: كتاب العلم/ باب الحث على طلب العلم (3157).

اشتهر صيته وكان مقبولا عند السلاطين والملوك، لا عبرة بهذا، بل تعرف الحق وتعرف المتمسك بالحق فتكون تابعا لذلك، فبهذا تكون تابعا للنبي صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال علي: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال[1]. إذا عرفت الحق عرفت من تمسك بالحق، وإذا اتبعته على ذلك تكون تابعا للمصطفى صلى الله عليه وسلم. على أن المتابعة أفضل من اتباع الهوى على كل حال، حتى قال الصوفية إن من قيد نفسه على أثر كلب ويمتثل أمره ويجتنب نهيه، أفضل ممن استرسل مع نفسه ويفعل كل ما شاء، لأن المتابعة على كل حال فيها تربية للنفس.
قوم شعيب رأوا أن متابعة شعيب خسران والربح هو مخالفة شعيب، وقد تقدم أنهم هددوا شعيبا والقوم الذين آمنوا معه أنهم يخرجونهم من البلدة. الله تبارك وتعالى إذا عاقب أعداءه يعاقبهم بحسب نواياهم في أهل الله، لما كانوا عزموا على إخراج شعيب من البلدة وكل من اتبعه، أخرجهم الله تبارك وتعالى من البلدة جميعا «كأن لم يغنوا فيها» وذلك بأن فتح الله كوة من النار أرسل عليهم حرا شديدا فصار ماؤهم يغلي دائما والحرارة تطبخهم في بيوتهم وخارج بيوتهم، مكثوا في هذا ثلاثة أيام لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يجدوا راحة، وبعد ثلاثة أيام عرضت سحابة هبت منها ريح طيبة باردة، فتنادوا اجتمعوا تحت تلك السحابة حتى اجتمعوا عن آخرهم، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم وكبراؤهم جميعا، اجتمعوا تحت السحابة فأوقدها جبريل نارا عليهم ورجفت بهم الأرض مع ذلك، وماتوا خارج البلدة كأنهم لم يغنوا في البلدة لأنهم كانوا ينوون إخراج شعيب من البلدة، فأخرجوا تماما موافقة لنواياهم، «الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين» الخسران حق الخسران

1- نقل الإمام الغزالي في مجموع رسائله عن علي رضي الله عنه قوله: لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله. ص201.

هو الذي وقع لهؤلاء ﴿فَتَوَلَّى﴾ أعرض شعيب ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم تؤمنوا ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾ لا أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ لا ينبغي أن أحزن على قوم كافرين، ما علي حزن، بلغت رسالة ربي وكفرتم والله أهلككم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فكذبوه ﴿إِلاَّ أَخَذْنَا﴾ عاقبنا ﴿أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ شدة الفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذللون فيؤمنون. تلك ابتلاءات من الحق تبارك وتعالى يمتحن بها عباده، فالموفق منهم يتضرع إلى الله تبارك وتعالى ويؤمن به ويرجع إليه، ومن خذله الله لا يتعظ بشيء ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أعطيناهم ﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ العذاب ﴿الْحَسَنَةَ﴾ الغنى، بدل الله محل الفقر غنى ومحل المرض صحة ﴿حَتَّى عَفَواْ﴾ حتى كثروا ﴿وَقَالُواْ﴾ كفرا للنعمة ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ هذه عادة الله، مسنا كما مس آباءنا من قبل فقط، وهذه عادة الدهر وليست بعقوبة من الله فكونوا على ما أنتم عليه، قال تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ أي عذبناهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بوقت مجيئه ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ المكذبين ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسلهم ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بالمطر جمع بركة وهي زيادة الخير ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ذكر تبارك وتعالى في هذه الآية أن أهل القرى المكذبين لو آمنوا إيمانا صحيحا واتقوا امتثلوا أمر الله تبارك وتعالى لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض الخيرات والأرزاق حتى يجدوا السعة في الرزق والكفاية في معايشهم، ولكن كذبوا، لما كذبوا الرسل عاقبهم الله تبارك وتعالى بما يعتريهم من الفقر والجدب وقلة الأشياء. هذه الآية تدل على أن وجدان الكفاية والسعة في الرزق من سعادة المرء حيث أن الإيمان يكون سببا لذلك، هذا في حق من يشكر الله تبارك وتعالى، فمن

نال كفاية في رزقه وسعة في عيشه وشكر الله تبارك وتعالى فهذه سعادة له، (نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح)[1]. وإذا كان يحمل على البطر والتكبر ومنع الحق عن أهله فتلك مصيبة، فالنعمة كريمة قليل أكفاؤها ليس لها أكفاء إلا من يشكر الله تبارك وتعالى ويرجع إلى طاعته. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ المكذبون ﴿أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ ليلا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ غافلون ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهارا ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ﴾ استدراجه إياهم بالنعمة وأخذهم بغتة ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. الأمن أمنان أمن أهل القهر، وهذا الأمن للخاسرين، وأمن أهل اللطف، وهذا الأمن للمهتدين "الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون"، هذا الأمن أمن أهل اللطف؛ «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» هذا الأمن أمن أهل القهر. الأنبياء يعرفون أنهم آمنون من عذاب الله لأنهم يجدون البشرى، وأولياء الله يجدون البشرى بسلامتهم، يعلمون أنهم بُشروا بالسلامة في الدنيا والآخرة وهذا ليس خسرانا، بل لطف من الله تبارك وتعالى "لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة"، والأنبياء لهم أن يخبروا بذلك والأولياء لا يخبرون بذلك ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ بالسكنى ﴿مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ من بعد هلاك أهلها ﴿أَنْ﴾ أنه ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ لو شئنا عذبناهم كلا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا من قبلهم، ألم يتحققوا ذلك؟ ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ الموعظة سماع تدبر ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ التي مر ذكرها ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا محمد صلى الله عليك وسلم ﴿مِنْ أَنبَائِهَا﴾ من أخبار أهلها

1- (نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح) طرف من حديث أخرجه أحمد في مسنده: مسند الشاميين/ حديث عمرو بن العاص (17096).

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الظاهرات ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ عند مجيئهم ﴿بِمَا كَذَّبُواْ﴾ بسبب كفرهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيئهم بل استمروا على الكفر ﴿كَذَلِكَ﴾ الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وفاء بعهدهم يوم أخذ الميثاق ﴿وَإِنْ وَّجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أكثرهم فاسقون ناقضون للعهد. كان الرسول صلى الله عليه وسلم في ركب من أصحابه فقال: بايعوني بايعوني، قالوا: علام نبايعك يا رسول الله؟ قال: تبايعوني على الصلوات الخمس وصيام رمضان والزكاة والحج، وأخفى كلمة، قال: وأن لا تسألوا الناس شيئا فبايعوه على ذلك، فوالله لترى بعض أولئك يسقط سوط أحدهم وهو على بعيره فلا يطلب أحدا يناوله إياه وفاء بالعهد[1]. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بعد تلك الرسل التي قصصنا عليك نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، أرسل الله موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون بآياتنا التسع. أرسل الله موسى وأعطاه تسع آيات هي: العصا واليد البيضاء والسنون المجدبة والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس، وكلها مسطورة في هذه السورة إلا

1- أخرج مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ قال فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا، وأسر كلمة خفية، ولا تسألوا الناس شيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه. صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب كراهة المسألة للناس (1729).

الطمس في سورة يونس[1]. هذه آيات موسى التسع، العصا ستذكر الآن واليد ستذكر الآن والسنون المجدبة ستأتي في الربع الثاني، والجراد والقمل والضفادع والدم، والطمس ستأتي في سورة يونس. هذه آيات موسى عليه الصلاة والسلام. موسى بن عمران أرسله الله إلى فرعون: الوليد بن مصعب بن الريان، ملَك مصر أكثر من أربعمائة سنة، وفرعون لقب لكل من ملك مصر كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس، وكما أن قيصر لقب لمن ملك الروم، وخاقان لمن ملك الصين، وتُبَّع لمن ملك اليمن، هذه ألقاب للملوك، فرعون هذا فرعون موسى، الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ كفروا بجميع الآيات ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ بالكفر من إهلاكهم. فرعون ملك مصر أربعمائة سنة، وكان يأكل كل يوم جملا ويبقى أربعين يوما لا يأتي بيت الخلاء، وما ابتلي بألم رأس قط فأحرى غيره من الأمراض، فطغى وادعى الربوبية، أتاه رسول الله موسى ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك، فكذبه قال له هذا كذب، فقال موسى أنا ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير ﴿عَلَيَّ﴾ بـــ﴿أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ بآية ﴿مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ﴾ إلى الشام ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كان استعبدهم، دعا موسى فرعون إلى الإيمان بالله والتخلي عن استرقاق بني إسرائيل قبيلته وإرسالها معه إلى موطن آبائهم الشام ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ على دعواك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ آت بالآية ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ كان

---

[1] – وهي قوله تعالى: "وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" يونس 88.

موسى بيده عصا أخذها من شعيب وهي عصا آدم التي نزل بها من الجنة[1]، طولها ثلاثون ذراعا على قدر قامة موسى، وكان إذا سار بالحيوان إلى المرعى ينام وتبقى العصا راعيا، وإذا أتى لبئر يدخل رأس العصا فتكون دلوا وحبلا حتى يسقي غنمه، وإذا جاء الليل تكون مصباحا في بيته حتى يصبح. لما سأله الله تبارك وتعالى "وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي" أضاف العصا إلى نفسه فأمر بإلقائها فألقاها «فإذا هي ثعبان مبين» فعلى هذا كل ما أضافه العبد إلى نفسه فليتحقق أنه ثعبان ويجب إلقاؤه. فلما ألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ارتفع وفتح فاه، ما بين لحييه ثمانون ذراعا، فابتلع جبالا من هذا الجانب وجبالا من هذا الجانب، وحمل على فرعون، فازدحم الناس فمات منهم خمسة وعشرون ألفا[2]، فصار فرعون يقول: يا موسى أناشدك بالله الذي أرسلك أمسكها وأنا أومن بك، فتبعت فرعون وفر حتى دخل في قصره، ففتح الثعبان فاه فجعل قصر فرعون بين فكيه، فناشد فرعون موسى أن يأخذه، فأخذه فكان عصا في يده، فقال له: أريك آية أخرى؟ قال: نعم، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ مدّ موسى يده قال له: ما هذا؟ قال: يدك، أدخلَها في الجيب وأخرجها ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ ذات شعاع ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ أشد بياضا وأشد شعاعا من الشمس خلاف ما كانت عليه من الأدمة، بهذا تفهم أن اليد إذا لابست سوى الله تبارك وتعالى تكون مظلمة، وإذا نزعت من كل ما سوى الله تبقى «بيضاء للناظرين» ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ خاطب فرعون جماعته على سبيل التشاور: ماذا تأمرون؟ ﴿قَالُواْ أَرْجِهِ وَأَخَاهُ﴾

1- ذكر ذلك القرطبي عن الترمذي في نوادر الأصول. تفسير القرطبي ج7/ 323.

2- ابن كثير ج2/ 237.

أخر أمرهما ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يَفْضل موسى في علم السحر، فجمعوا سحرهم ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ أتوا بستمائة ساحر، كلهم عنده عصا إذا ألقاها تكون ثعبانا، أو حبل إذا ألقاه يكون ثعبانا ﴿قَالُواْ﴾ دخلوا على فرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ سألوا فرعون هل يجدون أجرا؟ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أنطقه الله تبارك وتعالى بالحق، تجدون أجرا وتكونون من المقربين، هو يظن أن المقربين عنده هو، ولكن المقربين عند الله تبارك وتعالى ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ما معنا ﴿قَالَ أَلْقُوْاْ﴾ تقدموا للإلقاء، ليس أمرا بالسحر لأن الأمر بالمعصية معصية ولكن خيروه في أن يتقدم أو يتقدموا هم، والوسيلة لإظهار الحق أن يتقدموا هم بإلقاء ما عندهم فيأتي الحق فيدمغ الباطل ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْاْ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ صرفوها عن حقيقة إدراكها، السحر لا يقلب الحقيقة، إنما يخيل للأبصار أنها ترى شبه كذا وليس كذلك ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خوفوهم حيث خيلوها حيات تسعى، ألقوا ما عندهم من العصي والحبال فصارت حيات تسعى، امتلأ الوادي من الحيات ﴿وَجَاءُواْ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ سحرهم كبير حيث عظمه الله تبارك وتعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ خاف موسى بعض الخوف ليس أن يَغلب الباطلُ الحق، هذا لا يكون أبدا، ولكن أن يقع التباس للحاضرين حيث أن معجزته عصا تتقلب ثعبانا، فأتوا بسحر يشاكل معجزته، هذا هو الذي دخل في نفس موسى، أمره الله تبارك وتعالى أن يلقي عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ ثبت وظهر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلما ألقى موسى عصاه ابتلعت جميع تلك الحيات فأعدمها الحق تبارك وتعالى في الحين، صارت لا وجود لها أصلا، انطوت في عصا موسى، فعلم السحرة أن هذا

ليس بسحر، فالسحر لا يمكن أن يعدم الموجود أو يقلب الحقائق، إنما غاية السحر أن يري شيئا، ولما ابتلعت عصا موسى عصيهم فصارت عدما، فهموا جميعا أن هذا آية من آيات الله، وكانوا فائقين في السحر ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ غُلِب فرعون وقومه ورجعوا ذليلين ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ سجد السحرة وهم ستمائة سجدوا لله تبارك وتعالى ﴿قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آمنوا كلا، قال فرعون: رب العالمين أنا؟ قالوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ قدّموا موسى لأن موسى ما ملكه فرعون قط، أما هارون كان سبق له عبودية لفرعون، وأما موسى فما مر عليه يوم كان عبدا لفرعون فلهذا قدّموا موسى وهو أصغر من هارون «رب موسى وهارون» فعلم فرعون أنهم لا يعنونه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنتُم بِهِ﴾ بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ﴾ أنا ﴿لَكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الذي صنعتموه ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينالكم مني، هو فرعون بالأمس مر بالسحرة وكان موسى دخل عليهم وسألهم: إذا غلبتكم تكونون مسلمين؟ قالوا: نعم، قال فرعون: إن هذا مكر مكروه قبل هذا المجلس[1] ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ﴾ يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ إذا فعلت هذا غاية هذا أن نموت ونحن إذا متنا نرجع إلى الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ تنكر منا ﴿إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا

1- قال السدي في تفسيره بإسناده المشهود عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى "إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة" قال التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر فوالله لئن غلبتني لأومنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال. تفسير ابن كثير ج2/ 239.

لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ صب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ عند فعل ما يوعدنا به لئلا نرجع كفارا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ هؤلاء آمنوا سجدوا لله فجذبوا إلى حضرة الله تبارك وتعالى، ما رفعوا رؤوسهم من السجود إلا وكلهم فانٍ في الحق تبارك وتعالى، فجاء تهديد فرعون كضرب في حديد بارد. قال: نقتلكم، قالوا: إذا قتلتنا ما يكون؟ نرجع إلى الله تبارك وتعالى، يضحكون عليه ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ لما وقع هذا تراخى فرعون وضعف أمره وجلس في بيته لم يفعل شيئا، لم يأمر في شأن موسى بشيء، فبقي الناس يعلنون ولاءهم لموسى ويؤمنون به ويتابعونه حتى اجتمع ملأ من قوم فرعون يلومونه: أتذر موسى تتركه وقومه ليفسدوا في الأرض بالدعوة إلى مخالفتك ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ تركوك وآلهتك، كان فرعون صنع أصناما صغارا يعبدونها وقال "أنا ربكم الأعلى" ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ المولودين ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ نستبقي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ كفعلنا بهم من قبل ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ كان فرعون رأى نارا خرجت من دور بني إسرائيل وحرقت قصره حتى صيرته كَلاَ شيء فسأل الكهنة والمنجمين، قالوا له: إن مولودا يولد من بني إسرائيل يكون سببا لذهاب ملكك[1]. فصار يذبح كل مولود ذكر حتى ذبح تسعين ألف وليد، وذبح عشرين ألف صبي وجدوا قبل هذه الرؤيا، فعدو الله سعى في طلب موسى حتى قتل بسبب موسى مائة وعشرة آلاف غلام[2]، فأبى الله إلا أن يأتي موسى ويتربى على فراشه في بيته وفي نفقته كما سيأتي، فلما كبر موسى وبعثه الله رسولا ووقعت قصة موسى مع السحرة وآمن السحرة

1- راجع قصص الأنبياء ص97 وتفسير القرطبي ج1/ 386.

2- جاء في تفسير روح البيان: قيل إن فرعون قتل في طلب موسى اثني عشر ألف صبي وتسعين ألف وليد. روح البيان ج129/1.

وآمن كثير من بني إسرائيل والقبط، هددهم أنه سيرجع إلى حالته الأولى بذبح الأبناء واستبقاء النساء، وتكبر «وإنا فوقهم قاهرون» قادرون على فعل ذلك. فشكا بنو إسرائيل إلى موسى أيضا ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ﴾ على أذاهم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾ يعطيها ﴿مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ اللّهَ ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ قبل أن تأتينا قتل منا كذا غلاما ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ والآن أراد فرعون أن يعود إلى تلك الحالة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيها، فلما لم يؤمن فرعون وبقي على تكبره ابتلاهم الله بالسنين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ سني القحط، فقحطوا حتى لم يبق عندهم شيء من الثمار والزرع فجاعوا ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الخصب والغنى ﴿قَالُواْ لَنَا هَذِهِ﴾ نستحقها و لم يشكروا عليها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتشاءموا ﴿بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ﴾ شؤمهم ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ يأتيهم به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من عنده تبارك وتعالى، فكانوا كلما أتاهم جدب قالوا: هذا بشؤم موسى، وكلما وجدوا خيرا قالوا: هذا نستحقه، والطير هو الشؤم. كانت العرب تتشاءم بالطير، إذا أراد إنسان سفرا طرد الطيور، فإذا عرض طائر من جانب اليمين، قالوا: هذا سانح أن السفر يكون مباركا، وإذا عرض على جانب اليسار قالوا: هذا بارح أن السفر يكون مشئوما[1]، لما كان أصل التشاؤم بالطير صاروا يطلقون الطير ويعنون الشؤم. وقد نفى صلى الله عليه وسلم هذه المختلقات قال: لا شؤم ولا

1- قال القرطبي في تفسيره: كانت العرب تيمن بالسانح وهو الذي يأتي من ناحية اليمين وتتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من ناحية الشمال. القرطبي ج7/ 265.

طير، فمن تشاءم فرجع عن سفره فقد كفر[1]، ومن تشاءم فمضى على سفره رجاء فيما يفهم من أحوال الطير فذلك كفر بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن كان الشؤم في شيء، ففي الدار والمرأة والفرس)[2] فشؤم المرأة غلاؤها وعقمها، وشؤم الدار ضيقها ومجاورتها لجيران السوء، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليه أو يراهن به، فيكون من خيل الشيطان. هذا وإن اتفق أن رجلا تزوج امرأة فكثر خيره فينبغي إمساكها، وإن تزوج امرأة فنقصت خيراته ووقع في قلبه أن ذلك بسبب مقارنته للمرأة فينبغي فراقها. جاء رجل إلى مالك فقال: كنت في دار كثير مالي وكثير أهلي وضيعتي، فانتقلت إلى دار فذهب كل ما أجد فلم يبق عندي شيء. قال مالك: اتركها ذميمة، انتقل عن تلك الدار فهي ذميمة، ليس أن الأرض تضر أو تنفع ولكن إذا وقع في نفس الإنسان تشاؤم بشيء فينبغي أن يبعد منه تطهيرا لإيمانه. وكانوا يتطيرون، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: إذا وقع في نفس الإنسان شيء من التطير فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يذهب بالسيئات

1- أخرج أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من ردته الطيرة من حاجة فقد أشرك قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة/ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (6748)

2 - أخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظ البخاري (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس) صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب ما يتقى من شؤم المرأة (5094)، صحيح مسلم: كتاب السلام/ باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (4129).

إلا الله[1]، فلا يضره ما وقع في نفسه من تشاؤم أو تطير ﴿وَقَالُواْ﴾ لموسى ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ كلما وقعت آية رجعوا إلى موسى أن يدعو الله لهم أن يكشف عنهم العذاب فإذا كشفه فإنهم مؤمنون، فإذا كشفه الله يرجعون على حالتهم فقط. وقالوا هذه الكلمة «مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» فدعا عليهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ لما مضت السنون المجدبة وجاءت سنون مخصبة كثرت الأمطار وكثر النبات وكثر كل خير قالوا: الدنيا هكذا فقط تارة خصب وتارة جدب وليس هذا بآية لله فما نؤمن، دعا عليهم موسى فوقع لهم طوفان دخلت المياه أراضيهم فامتلأت البيوت من المياه، سبعة أيام هم غرقون في الماء كلهم يأتي الماء إلى ترقوته إذا وقف لا يمكن أن يجلس ولا يمكن أن يضطجع بقوا وقوفا والماء في تراقيهم فهلكت جميع أموالهم ومواشيهم، فطلبوا من موسى أن يدعو الله أن يكشف هذا فإذا كشفه يؤمنون، فلما كشف الله هذا بقوا شهرا نبت العشب وكثرت النباتات وكثر الخير، قالوا هذا خير جاءنا فقط ليس بآية لله فأرسل الله الجراد ﴿وَالْجَرَادَ﴾ فأتى الجراد فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم فأكل كل ما عندهم، حتى لم يبق شيء، فكلما اضطجع إنسان وقع الجراد عليه حتى لا يقدر على القيام، وإذا أراد أحد أن يتكلم دخل الجراد في فيه، فمكثوا هكذا سبعة أيام أيضا، فطلب فرعون من موسى أن يكشف

1- جاء في سنن أبي داود حدثنا أحمد بن حنبل وأبو بكر بن شيبة المعنى قالا حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن عروة بن عامر قال أحمد القرشي قال: ذكرت الطيرة عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك) سنن أبي داود: كتاب الطب/ باب في الطيرة (3418).

الله هذا الرجز ويؤمن، فلما كشفه الله بقوا شهرا في عافية قالوا هذا ليس بآية لله[1]، والجراد يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: جند الله الأكبر[2]، أكبر جند لله تبارك وتعالى وهو أول ما يفقد من الأمم، إذا فقد الجراد حتى لم يبق في الدنيا جراد يتبعه البقر، بعد ذلك تتتابع الأمم كعقد انقطع سلكه. هكذا كان عمر بن الخطاب إذا مضى زمن لم ير الجراد يرسل إلى جميع البلدان يسأل عن الجراد، حتى إذا قيل وجد الجراد في أرض كذا قال الحمد لله، يستدل بذلك على بقاء الدنيا[3]، والجراد هو الذي يقول صلى الله عليه وسلم فيه: (أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال)[4]

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو على الجراد: اللهم اقتل كباره وأهلك صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره لئلا يضر بزرع المسلمين[5]. فلما مضى الجراد بقوا

1- انظر تفسير القرطبي 268/7.

2 - ذكره ابن كثير عن أبي زهير النميري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تقاتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم" ابن كثير ج241/2. وجاء في تفسير القرطبي بلفظ: لا تقتلوا.. الحديث. القرطبي ج7/ 268.

3 - سبق عزو هذا الحديث. راجع الدرس السادس عشر أو تفسير ابن كثير ج132/2.

4 - أخرجه ابن ماجه وأحمد ولفظ ابن ماجه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أحلت لكم ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال) سنن ابن ماجه: كتاب الأطعمة/ باب الكبد والطحال (3305)، وفي مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة/ (5465)

5- أخرجه الترمذي عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك قالا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا على الجراد قال: (اللهم أهلك الجراد اقتل كباره وأهلك صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواههم عن معاشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء) قال فقال رجل يا رسول الله كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنها نثرة حوت في البحر) سنن الترمذي:

على كفرهم قالوا هذا ليس بشيء، أمهلوا شهرا كلما مرت آية بقوا شهرا في عافية ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ وجاء القمل السوس نوع من القراد، فتتبع ما تركه الجراد، أكل كل ما عندهم دخل فيهم السوس حتى لم يبق عندهم شيء، فلما اشتد هذا طلبوا من موسى أن يصرفه الله فيؤمنوا فصرفه الله فبقوا في عافية شهرا ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ ملأت الضفادع بيوتهم وطعامهم كلما أراد أحدهم أن ينطق دخل ضفدع في فمه، والطعام والشراب، كل أوانيهم امتلأت بالضفادع، مكثوا في هذا سبعة أيام أيضا، والضفدع أكثر الحيوانات تسبيحا لله[1]، قال سليمان بن داود يوما: لأسبحن الليلة تسبيحا ما سبح مثله مخلوق قط، تكلم له ضفدع من تحت سريره: يا سليمان تعجب بنفسك أنا عندي سبعون لسانا كل لسان يسبح ليلا ونهارا لا يفتر، ومضى علي الآن ثلاثة أيام ما أكلت وما شربت من أجل التسبيح[2] ﴿وَالدَّمَ﴾ بعد ذلك جاء الدم انقلبت مياههم دما عبيطا، كلما أرادوا أن يشربوا ماء صار دما عبيطا، إذا أخذ الإسرائيلي دلوا من البئر يكون ماء زلالا وإذا أخرج القبطي دلوا يكون دما عبيطا، فقال فرعون: هذا عندي دواؤه كل إسرائيلي يكون مع قبطي في قلة واحدة محل شربهم يكون واحدا ففعلوا ذلك، إذا تناول الإسرائيلي يخرج ماء صاف وإذا تناول القبطي يكون دما، فقال يأخذ الإسرائيلي الماء ويجعله في فيه ويصبه في فم القبطي، فإذا فعل يكون دما، فعطش فرعون عطشا شديدا وطلب أوراق الشجر فأتوه بورق الشجر أكل ورق الشجر حتى أراد أن يمص الماء بقي دما في

كتاب الأطعمة/ باب ما جاء في الدعاء على الجراد (1746) وفي سنن ابن ماجه: كتاب الصيد/ باب صيد الحيتان والجراد (3212).

1- القرطبي 270/7.

2- جاء في تفسير روح البيان عن داود عليه السلام. روح البيان ج221/3.

فمه[1]، فطلب من موسى أن يكشف الله هذا ويؤمن، قال تعالى ﴿ءايَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ﴾ مبينات ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ العذاب ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذه قولتهم عند كل آية ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بدعاء موسى ﴿عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم ويصرون على كفرهم ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فانتقم الله منهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ في البحر المِلْح ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ لا يتدبروها، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل فسرى بهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا فلما خرجوا دخل جبريل كل بيت من بيوت القبط وذبح فيه جارية، فلما أصبحوا اشتغلوا بدفن أمواتهم حتى ارتفع النهار، فتأملوا فلم يجدوا إسرائيليا من بينهم، فقالوا: حدث أمر، لم يبق أحد من بني إسرائيل معنا، فنظر فرعون فإذا الأمر كذلك، فأرسل في المدائن حاشرين فجمع ألف ألف وسبعمائة ألف وسبعين ألفا كلهم يركب جوادا كميتا، كلهم مراكبهم متشابهة، فلهذا يقول "إن هؤلاء لشرذمة قليلون" قال إن بني إسرائيل قليلون وهم ستمائة وسبعون ألفا، ولكن بالنسبة إلى جيشه هم قليلون، فركب فرعون وهامان وجنوده وأرادوا درك موسى، وكان يوشع بن نون على مقدمة الجماعة قال لموسى: وصلنا إلى بحر لا ينفع فيه إلا السفن، وكان كالب في مؤخرة الجيش قال له: أدركنا فرعون بجنود لا قبل لنا بهم، قال موسى "كلا إن معي ربي سيهدين" فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وكان لهم اثنا

1- انظره في حاشية الصاوي على الجلالين ج93/2.

عشر طريقا، فتجاوز بنو إسرائيل وجاء فرعون وجيشه «فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين» ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالاستعباد وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر صفة للأرض وهي الشام ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ وهي قوله "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض" الخ ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ على أذى عدوهم رفع الله قوم موسى بسبب أي خصلة؟ بالصبر، لم يقل بعلمهم ولا بعملهم بل «بما صبروا» ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمارة ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ من الأبنية ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ عبرنا ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ﴾ مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون ﴿عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ على عبادة أصنام لهم، لما فلق الله البحر لبني إسرائيل وتجاوزوا مروا بقوم يعبدون الأصنام ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ صنما نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ مكافأتهم لله لما أهلك عدوهم وفلق لهم البحر ونجاهم أن يطلبوا إلها غيره، ما أشد حماقتهم، قال موسى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ﴾ هالك ﴿مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ قَالَ﴾ موسى ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾ أأطلب لكم ﴿إِلَهًا﴾ غير الله ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على عالمي زمانكم بما ذكر. قال يهودي لسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أنتم أمة محمد ما أشد خلافكم ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم. قال له علي: إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكن أنتم ما جفت أقدامكم حين فلق لكم البحر حتى قلتم "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة" فبهت الذي كفر[1]. ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أنجينا آباءكم ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾

1- أوردها البروسوي في روح البيان ج9/ 106.

يكلفونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده. هذا موسى يذكرهم بإنجائهم من فرعون وقومه ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ﴾ الإنجاء ﴿بَلاَءٌ﴾ إنعام ﴿مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أو في ذلكم العذاب بلاء ابتلاء عظيم من ربكم ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً﴾ طلب موسى أن يعطيه الله كتابا يهدي به بني إسرائيل يبين لهم الحلال والحرام، أمره الله أن يصوم ثلاثين ليلة، ذكر ليلة لنعلم أن الصوم كان ليلا ونهارا، ليس كصومنا، صومنا نهارا فقط وهو يصوم ليلا ونهارا إلى ثلاثين يوما، هذا ستون يوما وهي ذو القعدة، فصامها فلما تمت أنكر موسى خلوف فمه فاستاك بعود خرنوب، قال جبريل: كنا نشم في فم موسى رائحة المسك وقد زالت تلك الرائحة، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يصوم عشرة أيام بعد ذلك، أخبره (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك)[1]. ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة[2] ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ وقت وعده بكلامه إياه ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ موسى صام ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة فصار أربعين ليلة، فوفى الله له بما وعده، هذا هو الأصل في خلوة أربعين ليلة. والأربعون أكمل عدد من الأعداد سواء في باب الآحاد أو في باب العشرات أو في باب المئين أو في باب الآلاف لأن سر الأربع ظاهر في كل شيء: الدنيا أربعة أركان والكتب المنزلة: التوراة والزبور والإنجيل

---

[1] – أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ولفظ البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين، والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها) صحيح البخاري: كتاب الصوم/ باب فضل الصوم (1894)، وفي صحيح مسلم: كتاب الصيام/ باب فضل الصيام (1944).

[2] – قال ابن كثير: قال كثيرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروي عن ابن عباس وغيره. ج244/2.

والفرقان أربعة كتب، والأركان أربعة جبريل ميكائيل إسرافيل عزرائيل أربعة حتى المذاهب أربعة، إذا تفكرت تجد الأشياء أربعة أربعة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (خير الصحابة أربعة، وخير السرية أربعون وخير الجيش أربعمائة)[1] هذا سر الأربعين (من أخلص لله أربعين ليلة تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه ونطق بها لسانه)[2]. فلما صام موسى أربعين ليلة بأيامها ولياليها ولم يحس بالجوع لأنه متوجه إلى الحضرة، استأنس بالله تبارك وتعالى حتى لم يحس بالجوع ولا بالعطش، بخلاف خروجه إلى الخضر، في نصف يوم قال: "آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" لأن ذلك سفر ابتلاء أحس بالجوع في نصف يوم. خرج موسى إلى الميقات ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ عند ذهابه إلى الجبل للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي﴾ كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ أمرهم ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لِمَ يحتاج لأن يخلفه هارون في القوم وهما رسولان إلى القوم؟ لأن الرسول الأصلي هو موسى طلب من الله أن يرسل هارون وزيرا له، اشتركا في الرسالة بسبب موسى، فكأن الرئيس هو موسى واشتركا فإذا تخلف واحد منهما يحتاج الآخر لأن ينص له بالخلافة، قال له «اخلفني في قومي وأصلح» ولما قال له «اخلفني في قومي وأصلح» عبدوا العجل من بعده، فلهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الله خليفتي فيكم)[3] فبقيت أمته

---

1 – أخرجه الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربع مائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة) وأخرجه أبو داود وأحمد. سنن الترمذي: كتاب السير/ باب ما جاء في السرايا (1476).

2 – (من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) لابن نعيم في الحلية عن أبي أيوب. الجامع الصغير 8361. وقد تقدم في الدرس3.

3 – هذا طرف من حديث طويل في الدجال ونعته أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب ذكر الدجال وصفته وما معه (5228) عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله

على الصراط المستقيم وهلم جرا، هذا أسند الخلافة إلى أخيه ففسدت، وهذا أسند الخلافة إلى ربه فصلحت، على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن في أمته من يأخذ العلم من الله بلا واسطة فلهذا قال: الله خليفتي فيكم، فكما أن الأنبياء تلقوا العلم من الله بلا واسطة، فكذلك الأولياء من أمة محمد يتلقون العلم من الله بلا واسطة تبعا للنبي صلى الله عليه وسلم. النبي مستقل والولي تابع فافهم ما بين المرتبتين ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ للوقت الذي وعدناه بالكلام فيه ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بلا واسطة كلاما سمعه من كل جهة. جاء موسى للميقات فطهر الله تسعة فراسخ في تسعة فراسخ، نحى الظلام عنها، وطرد الوحوش والشياطين عنها فملأها بالنور[1] فتجلى الحق فصار يكلم موسى بذاته العلية كلاما لا يسمع له موسى صوتا ولا حرفا ولا أولا ولا آخرا ولا لغة ولا بداية ولا نهاية، هذا كلام الله، صفة ذاته، سئل موسى عن صفة هذا الكلام، قال: أشد من الرعود المتراكمة علي بعشرة آلاف درجة، وألذ من لذة الجماع بعشرة آلاف درجة، فلست موسى ولا أعرف موسى. ولما كان موسى في تلك الحالة وبقي أربعين ليلة أخرى غير الماضية يكلمه ربه في تلك المدة أتاه إبليس ولما قرب منه قال له: ألا تشك في هذا الذي يكلمك

صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل فقال: "غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم... إلى آخر الحديث.

1 - روى القاضي عياض في أوائل كتابه الشفا بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ". الشفا ج68/1.

هل هو الله تبارك وتعالى أم ليس هو؟[1] قال له الملائكة: اخسأ يا لعين أتطمع في موسى بعد ما كان في هذه المرتبة؟ قال: ولِم لا كان أبوه في الجنة وطمعت فيه حتى أخرجته من الجنة؟ - عدو - فلما كلمه ربه بتلك الصفة اشتاق إلى ما هو أعظم من ذلك ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ نفسك ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ طلب الرؤية، لِم قال: انظر إليك؟ والنظر والرؤية ليسا واحدا، إنما النظر طلب الرؤية ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ فهمنا أنه يريد الرؤية بجواب الحق تبارك وتعالى «لن تراني» لم يقل لن تنظر إلي، النظر فتح الحدقة فقط لطلب الرؤية والرؤية هي الرؤية حقيقة، أنظر إليك يعني أراك فقط، أجاب الحق: «لن تراني» لا تقدر على رؤيتي. كن موسويا، موسى لما كان في مرتبة الطفولة واحتاج إلى رغيف يأكله لم يرفع حاجته إلى مخلوق "قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير" طلب الرغيف من الله تبارك وتعالى، ولما بلغ مرتبة الرجولة واحتاج إلى رؤية الله تبارك وتعالى وهي أكبر حاجة، ما رفع حاجته إلى مخلوق «قال رب أرني أنظر إليك». الحاجة الصغيرة ارفعها إلى الله تبارك وتعالى والكبيرة ارفعها إلى الله تبارك وتعالى، لا تقل هذه صغيرة أرفعها إلى مخلوق أو هذه كبيرة لا بد أن أرفعها إلى مخلوق، كل صغير وكبير ارفعه إلى الله تبارك وتعالى فهو القادر على قضاء الحوائج. «أرني أنظر إليك» طلب موسى الرؤية، أجابه الحق «لن تراني» قطعا لطمع قومه "أرنا الله جهرة" إن كان هذا الجواب لموسى فمن باب أولى هم، لن تقدر على رؤيتي، والتعبير به دون لن أُرَى يفيد إمكان رؤيته تعالى، وكون موسى يطلب رؤية الله تبارك وتعالى دليل على أن رؤية الله جائزة، لأن طلب المحال جهل والجهل مستحيل في حق الأنبياء، لما طلب موسى الرؤية علمنا أن

1- جاء في قصص الأنبياء ما نصه: قال السدي لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين قدمي موسى فوسوس في قلبه وقال: إن مكلمك الشيطان. قصص الأنبياء ص114

رؤية الله جائزة خلافا للمعتزلة[1] ﴿وَلَكِنُ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي هو أقوى منك على تعبير جلال ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾ ثبت ﴿مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ ظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما في الحديث[2] ﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مدكوكا مستويا بالأرض ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مغشيا عليه لهول ما رأى. طلب موسى رؤية الله تبارك وتعالى فلما طلب رؤية الله كشف له عن مائة وأربعة وعشرين ألف نبي كلهم يقول: أرني أنظر إليك[3]، فخوطب بلن تراني، وكُلف أشد شيء على العارف أن ينظر إلى غير الله تبارك وتعالى «انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني» فموسى نصيبه "لن" في بدايته، قال لشيخه وهو في طريق السلوك أنه يعلمه مما علمه الله، فقال: "لن تستطيع معي صبرا" شيخه أجابه بلن، فلما بلغ مقام الكمال وبلغ مقام الرجولة والفحول «قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني» فعلم أن نصيبه لن من شيخه ومن ربه، ولن نفي، فنفي موسى وانتفاء موسى بالكلية هو السبيل الوحيد لنيل المقصود. وقوله «لن تراني» وقوله «فسوف تراني» لا معارضة بينهما، فإنه أرشده أنه عندما ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه، إن فني الجبل عن نفسه وبقي بالله فسوف يجد موسى الرؤية التي طلب «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا» عدما محضا

1- انظره في الخازن ج128/2.

2- أخرجه الترمذي في السنن وأحمد في مسنده ولفظ الترمذي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية "فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا" قال حماد هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى قال فساخ الجبل وخر موسى صعقا. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة الأعراف (3000)، وفي مسند أحمد: مسند المكثرين/ حديث أنس بن مالك (11812).

3- انظر تفسير روح البيان ج231/3.

لم يبق إلا الله «وخر موسى صعقا» مغشيا عليه أو ميتا أو فانيا، لم يبق إلا الله على كل حال ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال ما لم أومر به ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في زمانه. هذا اشتد به الشوق حتى طلب أن يكشف الله عن ذاته فينظر إليه بعينه، فأجيب بلن تراني، لن تراني بوجودك لن تراني بعينك ببصرك ببقائك، إذا أردت أن تراني فلا بد أن تموت عن وجودك وعن موتك وعن بقائك فسوف تراني في تلك الحالة. والعارفون يرون الحق تبارك وتعالى ليس بعين البصر ولا بعين البصيرة ولكن بعين الحق تبارك وتعالى، يفنون عن أفعالهم ويفنون عن صفاتهم ويفنون عن وجودهم فلم يبق إلا الله، ينظرون إلى الله بالله، وهذه طريقة المعرفة لا سبيل إلى إنكار هذا، فلهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (موتوا قبل أن تموتوا)[1]، وقال: (من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى الصديق)[2] يعني أبا بكر ويعني كل صدّيق، «فلما أفاق قال سبحانك» تنزيها لك «تبت إليك وأنا أول المؤمنين» في زماني. هذه مناجاة موسى عليه الصلاة والسلام وطلب أشياء في تلك المناجاة: رب إني أجد في التوراة أمة جعلت أناجيلهم في صدورهم أي يحفظون كلام الله، اجعل ذلك لأمتي، قال: ذلك لأمة أحمد. رأيت أمة يصلون خمس صلوات في اليوم والليلة، وتثبت لهم ثواب خمسين صلاة، اجعل ذلك لأمتي، قال: ذلك لأمة أحمد. رأيت أمة يصومون في العام شهرا واحدا وأنت تثبت لهم أنهم يصومون الدهر، قال: تلك أمة أحمد. رأيت أمة هونت عليهم حتى يتطهرون بالماء لا بالقرض كما يفعل بنو إسرائيل، قال: تلك أمة أحمد. رأيت أمة رحمتهم حتى أخرتهم إذا انقرضوا تقوم الساعة لئلا يمكثوا

1- روح البيان ج139/2.

2- أورده الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ج260/5.

في الأرض طويلا، اجعل ذلك لأمتي، قال: ذلك لأمة أحمد. رأيت أمة إذا أخرجوا عشر أموالهم كتبت لهم ثواب أنهم أنفقوا جميع أموالهم، قال: تلك أمة أحمد. رأيت أمة يسمون بالحمادين اجعل ذلك في أمة بني إسرائيل، قال: تلك أمة أحمد يا موسى لا تقرب مال اليتيم هذا لأمة أحمد. قال موسى: يا رب كل شيء أعطيته لأحمد ولأمة أحمد خذ نبوتك ورسالتك وكلامك واجعلني واحدا من أمة أحمد[1]. ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ قال يا رب إن كنت لا أكون من أمة أحمد فأرنيهم حتى أراهم، قال: لم يخرجوا بعد، هم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، قال: أسمعني صوتهم،

---

1 - أخرج البيهقي في الدلائل قال أنبأنا أبو ذر بن أبي الحسين بن أبي القاسم المذكر وأبو الحسن علي بن محمد المقري قال أنبأنا الحسن بن محمد بن إسحاق الأسفرايني قال حدثنا محمد بن أحمد بن البراء قال أنبأنا عبد المنعم بن إدريس عن أبيه قال وذكر وهب بن منبه "إن الله عز وجل لما قرب موسى نجيا قال: رب إني أجد في التوراة أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة هم الآخرون من الأمم السابقون يوم القيامة فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون كتبهم نظرا ولا يحفظونها فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة يؤمنون بالكتاب الأول والآخر يقاتلون رؤوس الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة يأكلون صدقاتهم في بطونهم وكان من قبلهم إذا أخرج صدقته بعث الله عليها نارا فأكلتها فإن لم يقبل لم تقبلها النار فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة إذا هم أحدهم بسيئة لم يكتب عليه فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة وإذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر حسنات أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إني أجد في التوراة أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد". دلائل النبوة للبيهقي ج1 ص281 ـ 282.

قال ادعهم، فدعاهم فكلهم أجاب حتى سمع موسى. هذا موسى على عظمة قدره عند الله تبارك وتعالى تمنى أن يكون واحدا من أمة أحمد، وعيسى وجد تلك الأمنية، سيأتي في آخر الزمان واحدا من أمة أحمد. موسى عليه الصلاة والسلام ناجاه الحق تبارك وتعالى، فلما رجع أخذ برقعا وستر وجهه ما ريئ وجهه حتى مات. كلمته زوجته يوما: منذ كلمتَ ربك ما نظرتُ إلى وجهك، فكشف موسى عن بعض وجهه فخرت مغشيا عليها لشدة النور، فلما أفاقت قالت: سل الله لي أن يجعلني من نسائك في الجنة، قال: نعم بشرط أن لا تتزوجي بعدي[1] ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ ألواح التوراة وكانت من سدر الجنة أو زبرجدها أو زمردها سبعة أو عشرة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً﴾ تبيينا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قلنا مقدرا ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فرعون وأتباعه هي مصر لتعتبروا بها، باريس كما قال الصبي[2] ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بأن أخذلهم فلا يتفكرون فيها. لما قال: بجد واجتهاد دون تراخ وكسل علمنا أن العلم لا يأتي إلا للمجد بمشقة سواء كسبي أو وهبي:

1- حاشية الصاوي على الجلالين ج96/2.

2- حكى الشيخ خلال تفسيره في الدرس 16 حكاية ذكر فيها أن سائلا سأله قال له: القرآن قال "ما فرطنا في الكتاب من شيء" وأنا رأيت شيئا كبيرا ما ذكره القرآن قال له الشيخ ما هو؟ قال: باريس ما ذكرها القرآن، فأجابه صبي في مجلس الشيخ قائلا: بل ذكرها "سأريكم دار الفاسقين". والصبي يقال إنه السيد محمد الأمين بن الشيخ.

بقدر الجد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي

قال الشاعر[1].

من أراد أن يحصد لابد له أن يبذر، الرجاء ما قارنه العمل وإلا فأمنية وحديث نفس، لابد من الجد والاجتهاد «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق» ﴿وَإِنْ يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ طريق الرشد الهدى الذي جاء من عند الله ﴿لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ يسلكوه ﴿وَإِنْ يَرَوْاْ سَبِيلَ الغَيِّ﴾ الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ﴾ الصرف ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ تقدم مثله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ البعث وغيره ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ ما عملوه في الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم فيه لعدم شرطه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ ما يجزون ﴿إِلاَّ﴾ جزاء ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من التكذيب والمعاصي ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى المناجاة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الذي استعاروه من قوم فرعون بعلة عرس فبقي عندهم ﴿عِجْلاً﴾ صاغه لهم منه السامري ﴿جَسَدًا﴾ لحما ودما ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ صوت يسمع، انقلب كذلك بوضع التراب الذي أخذه من حافر فرس جبريل في فمه فإن أثره الحياة وما يوضع في شيء إلا وحيي. كان بنو إسرائيل لا يملكون شيئا، وكانوا إذا وقع لهم عرس استعاروا من القبط الحلي والحلل، فاستعاروا من حلي القبط لعرس كان بهم، فلما مضى العرس أهلك الله القبط فبقي الحلي في أيديهم، فلما ذهب موسى إلى الميقات جاء السامري وكان مولودا ولد من زنى فخافت أمه من أن يعيروها فذهبت به إلى الفلاة وألقته في مغارة فأرسل الله جبريل يرضعه في

1- يعزى هذا البيت للإمام الشافعي رحمه الله ويشفعه بالبيت التالي:

ومن طلب العلا في غير عز أضاع العمر في طلب المحال

المغارة فصار جبريل يرضعه حتى كبر، اسمه موسى هو السامري[1]، فلما كبر كان كافرا، فلما ذهب موسى إلى الميقات أتى إلى النساء وقال لهن الحلي الذي أخذتن من القبط ليس حلالا عليكن، أجمعه عندي أصنع لكن به ما هو أنفع لكُنّ، فجمعه فصاغه على صورة العجل وأخذ ترابا من حافر فرس جبريل. جبريل كان يركب فرس الحياة[2]، إن الله خلق الموت على صورة كبش[3] والحياة على صورة فرس، فكان جبريل كلما أراد السفر يركب الفرس الذي هو الحياة نفس الحياة، وفهم السامري من تربية جبريل له أن هذا الفرس أثره لا يجعل في شيء إلا وسرت فيه الحياة. فأخذ تراب حافر ذلك الفرس فلما صاغ العجل جعله فيه فصار عجلا له خوار كما قال الله تبارك وتعالى، فقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى وصاروا يعبدونه، يطوفون حوله بالرقص، هو عبادتهم، فلهذا حرم الرقص. إذا كان موسى الذي رباه جبريل كافرا هكذا، وموسى الذي رباه فرعون نبيا مرسلا هكذا، علمنا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. مكثوا يعبدون هذا العجل أربعين يوما، مدة الأربعين التي قضى موسى في الميقات يكلمه ربه، بقوا يعبدون هذا العجل بسبب أن له جسدا له خوار فقط ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ فكيف يتخذ إلها ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها ﴿وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ باتخاذه، وضعوا الشيء في غير محله

1- قصص الأنبياء للنيسابوري 117، وفي حاشية الصاوي على الجلالين ج2/98.

2- تفسير القرطبي ج11/ 239.

3- في الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح... الحديث) أخرجه الشيخان، صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (5087)، وفي صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب قوله "وأنذرهم يوم الحسرة" (4730).

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على عبادته سُقِط في أيديهم من الأفعال التي تأتي هكذا، معناه الندامة ﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ﴾ بعد رجوع موسى ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾ غضب من جهلهم ﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا﴾ بيس خلافة ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ها ﴿مِن بَعْدِيَ﴾ بئست الخلافة خلافتكم تعبدون غير الله؟ ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ غضب موسى وكان شديد الغضب ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ ألواح التوراة غضبا لربه فتكسرت ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعره بيمينه ولحيته بشماله ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ غضبا ﴿قَالَ﴾ يا ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ناداه هارون تلطفا يا ابن أم ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ﴾ قاربوا ﴿يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ﴾ تفرح ﴿بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بإهانتك إياي ﴿وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل في المؤاخذة. هذا دليل على أن صفاء القلب في جانب الله تبارك وتعالى لا ينافي الغضب لله تبارك وتعالى، موسى غضب غضبا شديدا وهو راجع من الميقات في أصفى أوقاته «ولا تجعلني مع القوم الظالمين» ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صنعت بأخي ﴿وَلِأَخِي﴾ شاركه في الدعاء إرضاء له ودفعا لشماتة الأعداء به ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عذاب ﴿مِن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعذبوا بالأمر بقتل أنفسهم وضربت عليهم الذلة إلى يوم القيامة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما جزيناهم ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ﴾ رجعوا عنها ﴿مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُواْ﴾ بالله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى﴾ سكن عن موسى ﴿الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ ما نسخ فيها أي كتب

﴿هُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ فصار يأخذ الألواح ويبلغ لهم ما أمرهم به ربهم. أوحى الله إلى موسى أنه يختار سبعين من قومه من صلحائهم يذهبون إلى الميقات بأن يختار من كل سبط ستة أنفار[1] فاختار فلم يجد سبعين كهلا، فأوحى الله إليه أن يأخذ من الصغار المتصفين بصفات الكبار اثنين تكميلا لهم فأخذ يوشع وكالب، وكانا صغيرين ولكن متشبهان بالشيوخ في العمل الصالح، فلما أصبحا أصبحا شيبا ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ ستة أنفار من كل سبط فكان أكثر من سبعين باثنين فقال موسى إذا تأخر رجلان يكون لهما ما للحاضرين فرضي كالب ويوشع التخلف فجعلهما الله خليفتي موسى بعد موته ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ أتوا للميقات ليعتذروا عن عبادة أصحابهم العجل فخرج بهم ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ لما وصلوا إلى محل الميقات فصار الأمر والنهي يخرج من الحضرة إلى موسى عليه الصلاة والسلام طلبوا الرؤية فأخذهم الصاعقة فماتوا كلا فالتفت موسى فوجدهم أمواتا فظن موسى أن الله أهلكهم بسبب عبادة العجل ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ لو شئت أهلكتهم قبل خروجي بهم ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني ﴿وَإِيَّايَ﴾ تهلكني معهم ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وهي عبادة العجل ﴿إِنْ هِيَ﴾ هذه الفعلة إلا فتنة وقع فيها السفهاء ﴿إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ إضلاله ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ هدايته ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ متولي أمورنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ﴾ أوجب ﴿لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَا﴾ تبنا ﴿إِلَيْكَ قَالَ﴾ تعالى ﴿عَذَابِيَ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه

1- انظره في روح البيان ج250/3.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ عمت كل شيء في الدنيا. تطاول إبليس فقال أنا شيء ورحمة الله وسعت كل شيء، إذاً أنال رحمة الله تبارك وتعالى[1]، قال تعالى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ خرج إبليس لأن التقوى امتثال الأمر واجتناب النهي وهو امتنع، فتطاول اليهود بنو إسرائيل والنصارى أهم يدخلون في هذا، فقال «للذين يتقون» ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ فخرجت اليهود والنصارى، وبقيت أمة محمد صلى الله عليه وسلم، النبي الأمي هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الوصف سب بالنسبة إلى كل إنسان، مدح في حقه صلى الله عليه وسلم، لأن الأمي من لا يقرأ شيئا ولا يكتب، نسب إلى أمه كأنه بقي على حالته التي ولدته عليها أمه، فهذا سب في غير محمد، وأما في حق محمد صلى الله عليه وسلم فهو مدح، لأنه لما كان أميا ما منعه ذلك من أن يكون أعلم الأولين والآخرين ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ النبي الذي كتب في التوراة وكتب في الإنجيل باسمه وصفته، التوراة والإنجيل كلهما بشر بمجيء البارقليط مولده فاران، البارقليط معناه روح الحق[2]، أو معناه أحمد أو محمد، وفاران معناه مكة ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما حرم في شرعهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من الميتة ونحوها ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ثقلهم، الثقل الذي كان في

1- انظر القرطبي ج7/ 296، وحاشية الصاوي على الجلالين ج2/ 101. وأورد ابن كثير في تفسيره عن الطبراني حديثا فيه (... والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه) ج2/252.

2- قال القاضي عياض في الشفا ج1/234: ومن أسمائه في الكتب المتوكل والمختار ومقيم السنة والمقدس وروح القدس وروح الحق وهو معنى البارقليط في الإنجيل.

تكاليف التوراة والإنجيل وضعه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْأَغْلاَلَ﴾ الشدائد ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ كقتل النفس في التوبة وقطع أثر النجاسة، أتى بملة إبراهيم سمحة بيضاء ليلها كنهارها ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقروه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ هو القرآن ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ووقره ونصره، نصره نصر دينه، واتبعوا القرآن الذي جاء به وسنته المبينة للقرآن «أولئك هم المفلحون». الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي بشرت به الكتب السماوية ووصفته بهذه الأوصاف التي نتلوها الآن، فلما جاء ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيءِ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ خاطبهم بوجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم. الخير كل الخير في اتباعه والشر كل الشر في الابتداع. قال واحد من السلف إن ثلاث كلمات تسعها ظفَرَة كل أحد وفيها علوم الدنيا والآخرة: اتبع ولا تبتدع، اترع ولا تتسع، اتضع ولا ترتفع يعني تواضع ولا تتكبر. ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ من بعض أمة موسى جماعة بقوا على الهداية والعدالة هم قوم جابلق[1]. أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مر بهم ليلة أسري به فرآهم يدفنون أمواتهم بين أيديهم قال لهم: ما لكم تدفنون الأموات بين أيديكم؟ قالوا: ذلك لنذكر الموت دائما ولا ننسه. قال: ما رأيت لكم أسواقا، قالوا: ليس عندنا أسواق إذا زرعنا وحصدنا زرْعنا كلنا يأخذ منه ما يكفيه قوت سنته، والباقي كل من أراد أن يأخذ شيئا يأخذه فاستغنينا

1- روح البيان ج5/293.

عن الأسواق. قال لهم: ما لي لم أر لكم ملوكا؟ قالوا: لأننا لا يظلم بعضنا بعضا فاستغنينا عن الملوك، الملوك لا ينفعون إلا أنهم يرفعون الظلم فقط ونحن لا يظلم بعضنا بعضا. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما لي أرى ثيابكم لا تتسخ ولا تبلى؟ قالوا: تلك ثياب أمتك يعصون الله فتتسخ أثوابهم وتبلى سريعا، أما نحن فلا نخالف أمر الله ولا نعصيه فبقيت ثيابنا كما هي إلى الآن لا وسخ ولا بِلى. قال: ما لي رأيت جماعة منكم يضحكون؟ قالوا: يضحكون لأنه مات أحدهم على الإيمان فيضحكون فرحا له. قال: رأيت بعضكم يبكون؟ قالوا: ولد فيهم مولود لم يعرفوا على أي دين يموت فلهذا يبكون خوفا عليه. فدعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فاستجابوا فعلمهم الفاتحة وعشر سور من القرآن، وأوجب عليهم الصلاة، إذ ذاك ما فرض من الفرائض إلا الصلاة وبعد ذلك يمكن أنه استكمل لهم أحكام الشريعة على وجه آخر، لأن هذا في ليلة الإسراء قبل وجوب باقي الأركان. أولئك الذين وصفهم القرآن «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[1] ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرقنا بني إسرائيل ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ قبائل ﴿أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التيه طلبوا منه السقيا ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضربه ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ أي انفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد الأسباط، أشد اختصارا. قلت لكم السورة إذا كانت مكية تكون أوجز من غيرها أتت في البقرة بأبسط من هذا لأن المخاطبين اليهود لا فهْمَ عندهم، وهؤلاء قريش «فانبجست منه اثنتا عشرة عينا» ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ في التيه من حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ الترنجبين والطير

1- انظر تفسير القرطبي ج302/7.

السمانى ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لا تدخروا فادَّخَروا فقطعت ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ﴾ أمرنا ﴿حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا﴾ سجود انحناء، حطة كلمة حط الذنوب وهي لا إله إلا الله[1] وادخلوا سجدا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة ثوابا ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا حبة في شعرة ودخلوا يزحفون على أستاههم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ عذابا ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم في اليوم سبعون ألفا[2] ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ يا محمد توبيخا ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ مجاورة بحر القلزوم وهي أيلة قرية قوم داود عليه الصلاة والسلام ما وقع بأهلها ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يعتدون ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بصيد السمك المأمورين بتركه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على الماء ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ﴾ يوم لا يدخلون في السبت لا يعظمون السبت أي في سائر الأيام ﴿لاَ تَأْتِيهِمْ﴾ ابتلاء من الله تبارك وتعالى. لما أمروا أن يتفرغوا يوم الجمعة، قالوا لا، لا نتفرغ إلا في اليوم الذي تفرغ فيه الله تبارك وتعالى وهو يوم السبت، فشدد عليهم حتى صيد السمك لا تشتغلوا به فيه. فإذا جاء يوم السبت جاءت الحيتان ودخلت في البيوت تزور الحوت الذي ابتلع يونس بن متى[3]، فإذا انقضى يوم السبت لا يرون شيئا من الحيتان ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب

1- نقل عن ابن عباس أنه قال: (قيل لهم قولوا لا إله إلا الله) وقال الحسن وعكرمة: "حطة" بمعنى حط ذنوبنا، أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم. القرطبي ج410/1 – 411.

2- حاشية الصاوي على الجلالين ج103/2.

3- نقله صاحب روح البيان ج156/1.

فسقهم، فعزموا على الصيد بأن وسوس لهم الشيطان: إن الله ما منعكم أن تحتالوا للسمك في يوم السبت، إنما منعكم من أن تصيدوا في يوم السبت. فلما جاء يوم السبت فاضت المياه في البيوت والدور ومعها الحيتان فحفر أحدهم حفرة في داره فلما انكشف الماء بقي السمك في الحفرة حتى غدا فأخذه وطبخ وأكل وباع حتى ربح مالا كثيرا فتتابع الناس على ذلك العمل وبعد ذلك تجرأوا وصاروا يصطادون السمك يوم السبت جهارا، فلما فعلوا ذلك افترقت القرية ثلاثا: ثلث صادوا وثلث نهوهم وثلث أمسكوا عن الصيد والنهي ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لما وعظهم الأمة التي لم تصطد خاطبهم الآخرون: ولِم تعظونهم؟ ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ نعتذر بها إلى الله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الصيد ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ وعظوا ﴿بِهِ﴾ فلم يرجعوا ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاعتداء ﴿بِعَذَابٍ بِيسٍ﴾ شديد ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ﴾ تكبروا ﴿عَنْ﴾ ترك ﴿مَا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ صاغرين فكانوها، وهذا تفصيل لما قبله قال ابن عباس: ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة، وقال عكرمة: لم تهلك لأنها كرهت ما فعلوه وقالت «لم تعظون» الخ وروى الحاكم عن ابن عباس أنه رجع إليه وأعجبه، والصحيح أنها هلكت مع الهالكين، فالفرقة التي اصطادت هلكت والفرقة التي سكتت هلكت والفرقة الناجية هي التي لم تصطد ونهت[1] ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أعلمَ ﴿رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ﴾ يبعث ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بالذل وأخذ الجزية، فبعث عليهم سليمان وبعده بختنصر

---

1 – روى ابن كثير: قال ابن عباس كانوا ثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا: "لم تعظون قوما الله مهلكهم" وثلث أصاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا بإسناد جيد عن ابن عباس. ج260/2.

فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية فكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث نبينا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقا ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ الكفار ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ بالنعم ﴿وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾ التوراة عن آبائهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ صفة خلف «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب» عن آبائهم «يأخذون عرض هذا الأدنى» حطام هذا الشيء الدني من حلال أو حرام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ما فعلناه ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ يرجون المغفرة وهم عائدون إلى ما فعلوه مصرون عليه وليس في التوراة وعد المغفرة مع الإصرار ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ استفهام تقرير ﴿عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ﴾ قرأوا ﴿مَا فِيهِ﴾ فلِمَ كذبوا عليه بنسبة المغفرة إليه مع الإصرار؟ ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الحرام ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أنها خير فتؤثروها. الله تبارك وتعالى قال إن الآخرة خير وأبقى، جذب أبناء الآخرة من الدنيا بهذه الآية وقال: "والله خير وأبقى" جذب أهل الحضرة عن الآخرة إليه سبحانه وتعالى «أفلا تعقلون» ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ يتمسكون ﴿بِالْكِتَابِ﴾ بالتوراة منهم ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾ الصلوات الخمس كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أي أجرهم. اللهم صل على سيدنا محمد.

---

1 – هنالك قال الشيخ: اللهم إني أسألك أن ترسل عليهم جمال عبد الناصر فيهلكهم أيضا.

الدرس العشرون

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري		لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة		تأتي لنا بالظفر

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ رفعناه من أصله ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فوق اليهود ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ كأنه غمامة فوقهم ﴿وَظَنُّواْ﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم بوعد الله إياهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة كأهم أبَوْها لثقلها، فقبلوا وقلنا لهم ﴿خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد. أمرهم الله تبارك وتعالى أن يقبلوا التوراة ويعملوا بما فيها بقوة واجتهاد ﴿وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعمل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تتقون الله تبارك وتعالى، أمر بالجد والقوة فعلمنا أن سلوك طريق الحق لا يتأتى إلا بجد واجتهاد وقوة، فبالهوينا لا يدرك، لابد من اجتهاد ولابد من قوة، والقوة قوتان: أهل العبادات يسلكون الطريق بقوقم، وأهل المحبة فانون عن أنفسهم يسلكون الطريق بقوة الحق ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ ذكر الله العهد القديم، أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياقم ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾ هذا الميثاق وقع يوم عرفة بمحل يقال له

نعمان[1]، أخذ الله العهد على أولاد آدم قبل وجودهم، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر: (إن الله مسح ظهر آدم فخرج ذر بيض ومسح ظهره فخرج سود، فقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وبعمل أهل الجنة يعملون حتى يموتوا على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخلون الجنة، وهؤلاء إلى النار وبأعمال أهل النار يعملون حتى يختموا بعمل من أعمال النار فيدخلون النار)[2]، قال قائل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (اعملوا فكل ميسر لما خلق

---

1 - عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال "ألست بربكم" الآية. ابن كثير في قصص الأنبياء ص46 ط3 دار الجيل، وقال إسناده جيد قوي على شرط مسلم، وقال الحاكم صحيح الإسناد. وذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج2/ ص106.

2 - أخرج الترمذي في سننه عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون) فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة الأعراف (3001) وكذلك رواه أبو داود في سننه وأحمد في مسنده ومالك في الموطأ. وورد في رواية للإمام أحمد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي، قال فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال على مواقع القدر) مسند أحمد: مسند الشاميين/ حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي (17000). وقد تقدم في الدرس 16

له)[1] فمن خلقه الله للجنة يوفقه لأعمال الجنة، ومن خلقه للنار يوفقه لعمل أهل النار، جف القلم[2]، رفعت الأقلام وجفت الصحف[3].

جعل الله هذا العهد حجة على بني آدم، قال العلماء كيف يكون حجة عليهم وهم ما تذكروه؟ كان حجة عليهم ولو لم يتذكروه، لأن الله أرسل الرسل فأخبرهم بهذا العهد، والإنسان إذا نسي شيئا وأخبره الثقات به يكون كأنه عرفه، مثلا لو صليت الظهر ونسيت ركعة وسلمت وذكرك الجماعة بأن قد بقيت عليك ركعة وأنت ما زلت ناسيا تجب عليك ركعة. فهذا العهد وإن كان قد تناساه كثير من البشر فهو حجة على جميع البشر، لما أخبر به الرسل وهم ثقات عن الله تبارك وتعالى. وهذا

---

1 - أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري: عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض فقال: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة) قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة) ثم قرأ "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى" الآية. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب فسنيسره للعسرى (4949)، وفي صحيح مسلم: كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (4787) تقدم في الدرس 18.

2 - أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر) صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب ما يكره من التبتل والخصاء (5076)، وقد بوب له البخاري في كتاب القدر/ باب جف القلم على علم الله وأورد فيه حديث أبي هريرة السابق.

3 - أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف) قال هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع/ (2440).

العهد هو الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة البهيمةَ هل تجدون فيها من جدعاء)[1] وهذا العهد وقع قبل وجود آدم، وبنو آدم الذين ذكروا في الآية غير موجودين وظهورهم التي ذكرت غير موجودة. الذي يمكن في حق المخلوق هو أن يستخرج شيئا موجودا من شيء موجود ويخاطب موجودا، والحق تبارك وتعالى أخرج الذريات وهم معدومون من ظهور البنين، والظهور معدومة، والبنون معدومون، وآدم معدوم فأخبرهم وكلمهم وأجابوه، وفي ذلك الوقت الأرواح كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم (جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[2] الأرواح جاءوا على ثلاثة صفوف، الصف الأول سمعوا خطاب الحق وشاهدوا جماله وأجابوا بمحبة وعيان: بلى، والصف الثاني سمعوا الخطاب وشاهدوا الجلال، بينهم صف مع الحق تبارك وتعالى، حجاب ولكنه حجاب رقيق فسمعوا الخطاب بالإيمان، وشاهدوا الجلال فقالوا: بلى، وصف ثالث ما شاهدوا شيئا، بينهم وبين الخطاب حجب، فسمعوا جواب الصفين بلى، فقالوا: بلى تقليدا[3]. الصف الأول خرجوا رسلا وأنبياء وأقطابا، والصف الثاني خرجوا مؤمنين

---

1 - متفق عليه عن أبي هريرة. صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين (1385)، وفي صحيح مسلم: كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (4803).

2 - أخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب الأرواح جنود مجندة (4773) ورواه البخاري في صحيحه من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها ترجمة لباب الأرواح جنود مجندة من كتاب أحاديث الأنبياء.

3 - روح البيان ج275/2.

وعلماء، والصف الثالث رجعوا كفارا، ارتدوا. فلما قالوا بلى جميعا، خلطهم الحق جعلهم شيئا واحدا، فصار كل واحد يبتلع ما قدر الله له، فكل من ابتلع واحدا يلد ولدا، ومن ابتلع أكثر يلد أكثر، ومن لم يبتلع شيئا فلا يولد له، وشخص أسود ابتلع شيئا أبيض كافر يلد مسلما، والعكس كذلك، فردهم الله تبارك وتعالى كما كانوا، فلا تزال الدنيا قائمة مستمرة حتى يخرج آخر ولد من أولئك الأولاد الذين خرجوا من سلسلة بني آدم من أصلاب آبائهم قرنا فقرنا حتى يولد آخرهم. والرسول صلى الله عليه وسلم كما قال حذيفة أخبر الصحابة بكل شيء حتى بآخر مولود يولد فتقوم الساعة[1]، فلهذا علمنا أن النبي كان يعرف قيام الساعة ولكنه سر مكتوم عنده.

قلنا إن الذرية عدم وظهور آبائهم عدم وآباؤهم عدم، فأظهرهم الحق أرواحا وخاطبهم وأجابوه، فبالجود وقع ما وقع لا بالوجود، فلهذا لا تكون النهاية إلا في البداية، إذا أحب الله عبده رده إلى بدايته فكان له سمعا وبصرا ولسانا ويدا[2]، فلهذا

---

1 - أخرج البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال: لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره علمه من علمه وجهله من جهله إن كنت لأرى الشيء قد نسيت فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه فعرفه. صحيح البخاري: كتاب القدر/ باب وكان أمر الله قدرا مقدورا (6604)، وفي صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب إخبار النبي بما يكون إلى قيام الساعة (5147).

2 - ورد بذلك حديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق/ باب التواضع (6502) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته).

سئل الجنيد عن النهاية فقال النهاية في البداية. فكما كانت البداية بالجود لا بالوجود، فكذلك النهاية بالجود لا بالوجود. سئل سهل التستري عن هذا العهد هل يتذكره قال: كأن الخطاب في أذني الآن، قال سهل إنه يعلم تلامذته من ذلك الوقت ويربيهم في أصلاب آبائهم إلى يومنا هذا. لما قص علينا قصة موسى مبسوطة، قص علينا قصة هذا العهد «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» لما قالوا بلى بسر هذا كل كتاب أنزله الله إلى القرآن الذي هو نهايتهم افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم بحرف الباء يذكرنا بجوابنا في الأزل، كلنا قال بلى، والرسول صلى الله عليه وسلم بحكم كونه إماما للأنبياء والمرسلين لما تجلى الحق فقال ألست بربكم غرقت الأرواح كلا في التوحيد، فصاروا عدما محضا فلم يطيقوا الجواب فقال صلى الله عليه وسلم: بلى، فقال الرسل والأنبياء بلى، فكلهم قالوا بلى، هو أول من أجاب بهذا الجواب ﴿شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ﴾ أن لا تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الحكمة في هذا الميثاق يوم القيامة شيئان: أن لا يقول الكفار يوم القيامة إنهم ما كانوا عارفين بالتوحيد، فكلهم أقروا بهذا التوحيد في ذلك الميثاق، وإن ادعوا أنهم نسوه فالرسل أخبروهم وهم ثقات فقامت الحجة عليهم ﴿أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ قبلنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ تعذبنا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا بتأسيس الشرك. لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد، والتذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس، تذكرة الأنبياء كتذكره في أنفسهم ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها مثلما بيَّنا الميثاق ليتدبروها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود ﴿نَبَأَ الَّذِي﴾ خبر الذي ﴿ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أعاذنا الله من ذلك، خرج بكفره

كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعام بن باعوراء من علماء بني إسرائيل، سئل أن يدعو على موسى وأهدي إليه شيء، فدعا، فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره[1] ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فأدركه فصار قرينه ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ قصة أخرى وهي قصة بلعام بن باعوراء، كان عالما إذا جلس للتدريس يحضر لمجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة[2] أي دواة ينقلون أحاديثه وكان إذا أشكل عليه شيء نظر إلى اللوح المحفوظ، فلما كان موسى عليه الصلاة والسلام يقاتل أهل بلده وهم كفار طلب منه أهل بلده أن يدعو على موسى فامتنع، قال كيف أدعو عليه وديننا واحد وهو نبي من أنبياء الله وأنا مؤمن؟ امتنع، فجمع أهل البلد كثيرا من الهدايا وأتوا بها إلى زوجته وكانت تملكه فقبلت الهدايا وجاءت إليه قالت له: هؤلاء لهم حق الجوار لا بد أن تدعو الله لهم، امتنع أولا فما زالت به حتى قبل أن يدعو على موسى، فخرج وكان له جبل إذا أراد الدعاء يذهب إليه، فركب حماره يريد أن يذهب إلى الجبل ليدعو على موسى فامتنع الحمار عن المشي، ضربه حتى كاد أن يقتله، فأنطق الله الحمار قال له: كيف أذهب وأنت تريد أن تدعو على نبي من الأنبياء، والملائكة وقوف أمامي يمنعونني من المشي؟ فنزل عن الحمار ومشى بأقدامه إلى المحل معه الجماعة الكفار، فصار يدعو كلما دعا بسوء دعا على قومه وكلما دعا بخير دعاه لموسى، فقالوا له: اسمع ما تقول، أنت تدعو علينا وتدعو لعدونا؟ قال لهم لا أملك إلا هذا، اللسان تصرف الحق فيه هكذا، فعند ذاك اندلع لسانه حتى وقع على ركبتيه وخرج من جوفه نور فقال لهم: الآن سُلبت جميع ما كان عندي لم يبق الآن شيء منه، الاسم الذي أدعو به نسيته والإيمان ذهب عني لم يبق إلا المكر

---

1 – تفسير ابن كثير ج265/2. وفي الجامع للقرطبي مج4/ ج319/7.

2– القرطبي في حديثه عن بلعام بن باعوراء عند تفسير الآية. مج4/ج319/7.

فقط، ولكن أدلكم على شيء إن فعلتموه ينفعكم أخرجوا نساءكم يتجردن ويدخلن في صفوف رجال جيش موسى ولا تمتنع امرأة عن رجل حاولها، فإذا زنوا أنزل الله عليهم العذاب، لا أعرف لكم حيلة إلا هذا، ففعلوا ذلك ووقع بنو إسرائيل في الفاحشة حتى جاء رجل إلى موسى يمسك أجنبية وقال: يا نبي الله لعلك تمنعني من هذا وتقول إنه حرام، قال موسى: نعم أمنعك من هذا وهو حرام، فوقع عليها بين يدي نبي الله موسى، فأنزل الله الطاعون فمات منهم سبعون ألفا في ساعة واحدة، فجاء شمعون كان من أنصار موسى فلما سمع بالقصة وكان عنده حربة من الحديد وهو قوي، جاء إلى الرجل والمرأة وهما في قبة والرجل عليها فضربهما بالحربة حتى جمعهما في الحربة ورفعهما إلى السماء وقال يا رب هكذا نفعل بمن يعصيك ويعصي نبيك، فكشف الله البلاء بعدما مات منهم سبعون ألفا[1]، فغلب المسلمون الكفار وأخذ بلعام وجيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى فأمر به فقتل. بلعام هذا هو الذي يحكي الله قصته، كان يعرف الاسم الأعظم، وكان يتصرف فيه كيف شاء، «فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ» ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل العلماء ﴿بِهَا﴾ بأن نوفقه للعمل ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾ سكن ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ الدنيا ومال إليها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في دعائه إليها فوضعناه ﴿فَمَثَلُهُ﴾ صفته ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالطرد والزجر ﴿يَلْهَثْ﴾ يدلع لسانه ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وليس غيره من الحيوان كذلك، فصار بلعام مثل الكلب، الكلب لا يميز بين الكرامة والإهانة، إنما نظره إلى كسرة يأكلها فقط، لو رفعت الكلب وجعلته على فراشك أو جعلته أسفل سافلين وألقيت إليه كسرة فنظره إلى الكسرة

1- راجع تفسير ابن كثير ج2/267-268.

فقط لا يميز بين الكرامة والإهانة، وبلعام كمثل الكلب كذلك لا يحب إلا الدنيا وهواه ولم يعرف الكرامة ولا الإهانة، فسلبه الله تبارك وتعالى ما أعطاه. هذا هو بلعام، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمَ سلبه الله بعدما أعطاه ما أعطاه؟ قال: ما شكر الله قط[1]؛ قيد النعمة الشكر. إنما تسلب النعم ممن لا يؤدي شكرها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ هذا تحذير من اتباع الهوى. فكل من كان تابعا لهواه وتحدثه نفسه أن ذلك لا يضره فلينظر إلى خطاب الله لأنبيائه، قال لداود "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله" أوعد الأنبياء أنهم إن اتبعوا الهوى ضلوا فمن باب أولى غيرهم. الإنسان يعرف قدر نعمة الله تبارك وتعالى ويؤدي شكرها باللسان وبالعمل وبالحال ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ على اليهود ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتدبرون فيها فيؤمنون ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ مثل القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتكذيب ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الله تبارك وتعالى خلق خلقا كثيرا لجهنم من الجن والإنس ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله تبارك وتعالى بصر اعتبار ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ﴿أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والبصر والاستماع ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل الأنعام خير منهم ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ غفلوا عن الله تبارك وتعالى. أخبر في هذه الآية أنه خلق كثيرا من الجن والإنس للنار فقط، الجن والإنس أكثرهم في النار بدليل حديث: يا آدم أخرج

1- ذكره القرطبي عازيا لأبي حامد الغزالي. مج4/ج320/7.

بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[1]. فعلى هذا تعلم أن الكفار من بني آدم أكثر من المسلمين، والحكمة في ذلك ظهور استغناء الله تبارك وتعالى عن كل ما سواه وعزة الإيمان. الشيء إذا قل يكون عزيزا، وقدرة الله تبارك وتعالى على حفظ المسلمين وإن قلوا وإن ضعفوا، وقوة رجاء المسلمين حيث أن لكل مسلم كافرا يفديه من النار، فكثرة الكفار تقوي رجاءنا أن كلنا عنده ما يكفيه من الفدية من النار، وإن قلنا إن هذا يقتضي أن الغضب غلب الرحمة والله يقول إنه كتب على نفسه الرحمة، وقال سبقت رحمتي غضبي[2]، جميع ما في الأرض من بني آدم عشر الجن وبنو آدم والجن عشر الملائكة الذين على الأرض فقط وجميع ذلك عشر ما في السماء الدنيا وهلم جرا. إذاً بالنظر إلى الملائكة والحور العين والولدان في الجنة فأهل الرحمة أكثر بكثير من أهل

---

1 - عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكرى وما هم بسكرى ولكن عذاب الله شديد فاشتد ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الرجل؟ قال أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجل، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة قال فحمدنا الله وكبرنا ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو الرقمة في ذراع الحمار. صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب قوله عز وجل إن زلزلة الساعة شيء عظيم (6530) وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب يقول الله عز وجل لآدم أخرج بعث النار (327).

2 - جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي. كتاب التوحيد/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم (7422) وفي صحيح مسلم بلفظ " إن رحمتي تغلب غضبي" كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه (4904). وقد تقدم في الدرس 16.

الغضب، ولكن في الجن والإنس أقل بكثير. ووصفهم بأنهم كالأنعام بل هم أضل، فإن الله تبارك وتعالى خلق المَلَك وجعله شيئا رفيعا وخلق الحيوانات فجعلها أدنى وخلق بني آدم فتارة يجاهدون أنفسهم وهواهم حتى يلحقوا بالمَلَك ويجدوا ثناء الله تبارك وتعالى "أولئك هم خير البرية"، وتارة يتبعون هوى أنفسهم حتى يلحقوا بالأنعام "أولئك هم شر البرية". الإنسان صالح لكل شيء، صالح لأن يكون ملَكا، وصالح لأن يكون شيطانا، وصالح لأن يكون سبعا، وصالح لأن يكون بهيمة؛ فإذا جاهد نفسه حتى طهرها من البهيمية والشيطانية والسبعية رجع إلى الملائكة وهو خير من الملائكة بدليل "أولئك هم خير البرية".

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التسعة والتسعون الوارد بها الحديث[1] سيأتي في آخر سورة الإسراء ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ سموه بهذه الأسماء، هي التسعة والتسعون اسما لله تبارك وتعالى كلها في القرآن، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لله ألفا إلا واحدا من الأسماء، ثلاثمائة في التوراة، وثلاثمائة في الإنجيل، وثلاثمائة في الزبور، وتسعة وتسعون ــ مائة إلا واحدا ــ في القرآن)، وهذه التسعة والتسعون ورد: (من أحصاها دخل الجنة)[2] والجنة كما علّمنا القرآن ثلاث مراتب: جنة الأعمال وجنة الميراث وجنة الامتنان، جنة الأعمال "ادخلوا الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون" وجنة الميراث كل مسلم ينال نصيبه من الجنة ونصيب كافر لو آمن وهذا

1 – جاء في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر". صحيح البخاري: كتاب الدعوات/ باب لله مائة اسم غير واحد (6410)، وفي صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (4835).

2 – نفس الإحالة

ميراث، وجنة الامتنان. والدين على ثلاث مراتب أيضا: الإسلام والإيمان والإحسان، من أحصى هذه الأسماء في مقام الإسلام دخل جنة الأعمال، ومن أحصاها في مقام الإيمان دخل جنة الميراث، ومن أحصاها في مقام الإحسان دخل جنة الامتنان. إحصاؤها في مقام الإسلام هو أن يؤمن بها ويذكرها ويدعو الله بها، وهذا الإحصاء يكسبه أن يدخل جنة الأعمال، فكثرة ذكر الله تبارك وتعالى تقلب العبد إلى شيء غير ما كان عليه لأن الاسم إذا أكثر العبد من ذكره لابد يؤثر فيه، والإحصاء في مقام الإيمان أن يتخلق العبد بمعاني أسماء الله تبارك وتعالى: الله كريم رحيم عفو تتكلف أنت التخلق بهذه الأخلاق. والإحصاء في مقام الإحسان التحقق بهذه الأسماء أن يجاهد العبد النفس حتى يمحوها من الوجود ويبقى الله تبارك وتعالى فصار مسمى بأسماء الله تبارك وتعالى عندما فني العبد وبقي بربه صار العبد مسمى باسم الله ومتصفا بصفات الله موجودا بوجود الله هذا هو التحقق، وهذه الأسماء أسماء الله تبارك وتعالى على جميع أعدادها لها كليات أو أمهات - عبارات العلماء - الشيخ التجاني يقول عسكرة الأسماء ومعنى ذلك أن أصل الأسماء أربعة: هو الحي لأن حياة الله تبارك وتعالى أول تجل، العالم، القادر، المريد، وهذه الأسماء هي نفس أسماء: هو الأول والآخر والظاهر والباطن. الحي تجلى في الأول أو هو الأول والعالم هو الآخر، والقادر هو الباطن، والمريد هو الظاهر. أصل أسماء الله كلها أربعة أسماء هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وإن شئت قلت هو الحي العالم القادر المريد. إذا قلنا إن لله أربعة أسماء فهذا مقام جمع الجمع خامس فصار له خمسة أسماء، فإن جعلنا لكل اسم ظهرا وبطنا يكون عشرة وبالإضافة إلى مقام جمع الجمع يكون أحد عشر، لله الآن أحد عشر اسما، فإذا ضربنا هذه الأسماء في الحضرات الثلاث الحقائق الثلاث التي تعرفونها جاءت ثلاثا وثلاثين - أحد عشر

ثلاث مرات ثلاث وثلاثون، فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: (تسبحون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وتكبرون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين والموفية المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له)[1] فإذا كان عند الله ثلاثة وثلاثون اسما الآن ضربنا تلك الأسماء كلا في الحضرات الثلاث جاءت تسعة وتسعين اسما وبالإضافة إلى مقام جمع الجمع هذه مائة اسم، فصار لنا مائة اسم كلها في القرآن، وإذا ضربنا هذه الأسماء في الحضرات الخمس جاءت خمسمائة اسم، وبالنظر إلى الظاهر والباطن أو إلى البطون والظهور جاءت ألفا، وبالإضافة إلى مقام جمع الجمع تكون ألفا وواحدا، وإذا تتبعنا هذا تكون الأسماء كلا هكذا، فلهذا «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» التسعة والتسعون «فَادْعُوهُ بِهَا» سموه بهذه الأسماء ﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ورد في تسبيح الصلاة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تسبحون دبر كل صلاة إحدى عشرة تسبيحة، إحدى عشرة حمدلة، إحدى عشرة تكبيرة[2]، فإذا نظرت إلى أحد عشر وإلى ثلاث وثلاثين تجدهما واحدا بالنظر إلى ما كنا نقرر، وهذه الأسماء أسماء الله الحسنى.

جاء رجلان إلى حكيم يطلبان منه الوصية أحدهما حسن الوجه والآخر دميم، خلا بالحسن فقال له: أنت حسن جميل الوجه جميل الصورة إياك أن تفعل شيئا قبيحا،

---

1 – طرف من حديث أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه. كتاب الأذان/ باب الذكر بعد الصلاة (843) وفي صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة (936).

2 – هذه الرواية حسبما ورد في صحيح مسلم قول في توزيع الثلاثة والثلاثين. انظر صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة (936).

الجميل لا ينبغي أن يصدر منه إلا جميل، لا تفعل إلا شيئا جميلا. ثم خلا بالدميم قال له أنت تعلم أنك قبيح الصورة إياك أن ترتكب شيئا قبيحا مع قبح صورتك لا تفعل إلا شيئا حسنا. كل منهما أوصاه بما يوافق حاله[1]. قلت والله يقول إن له الأسماء الحسنى وهو جميل وأسماؤه جميلة لا ينبغي أن يصدر لنا منه إلا شيء حسن. ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أخبر تبارك وتعالى أن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة المحمدية، فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)[2] وقال: (والذي نفسي بيده ليدركن عيسى بن مريم في أمتي خلفا من حوارييه) وهؤلاء لا يزالون أبدا لا تخلو منهم بقعة ولا زمان حتى ينزل عيسى. الحمد لله. «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» فيهم جماعة الأولياء ولذا قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله)[3]. وورد (إن لله ثلاثمائة رجل قلوبهم على قلب آدم، ولله أربعون رجلا قلوبهم على قلب موسى، ولله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم الخليل،

---

1 - روح البيان ج368/5.

2 - (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) رواه مسلم في صحيحه عن ثوبان، كتاب الإمارة/ باب قوله: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين (3544) وفي صحيح البخاري عن المغيرة بن شعبة: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب قول النبي لا تزال (7311) باختلاف يسير في اللفظ.

3 - جاء في صحيح مسلم: حدثني زهير بن حرب حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله). كتاب الإيمان/ باب ذهاب الإيمان آخر الزمان (211).

ولله خمسة قلوبهم على قلب جبريل، ولله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل، ولله واحد قلبه على قلب إسرافيل، والواحد في الحديث هو الذي يعبر عنه الصوفية بالقطب والغوث والخليفة، وبهؤلاء الجماعة ترزقون وتمطرون، ولا تزال الدنيا بخير ما دام هؤلاء موجودين[1]، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول إن عيسى سينزل على الأرض وأولئك موجودون[2]. الحمد لله.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراج أن نأخذهم قليلا قليلا ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ شديد لا يطاق. الله تبارك وتعالى أخبر أنه يستدرج بعض عباده، وأخبر أنه يملي للظالم ولكن لا يهمله، يُمهِل ولا يهمل. الاستدراج أن يكون العبد يعصي الله تبارك وتعالى ويوفر الله عليه نعمه فتحدثه نفسه أن هذا الذي يأتي به ليس به بأس، لو كان به بأس لما كانت نعم الله عليه هكذا، هذا استدراج حتى يأتيه الهلاك. والحكمة في إملاء الظالم هو تعليمنا نحن أن الله حليم لو شاء عاقب الجاني في أقل من طرفة العين، فإذا كان يمهله ويسبغ عليه نعمه وهو يظلمه - نشاهد الظلم من العبد ونشاهد نعم الله عليه - نتخلق بالحلم، ولكن هذا الإمهال ليس الإهمال (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[3] "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم

---

1 - انظر هذا التقسيم في روح البيان ج286/2.

2 - ورد في الصحيحين حديث دال عليه (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين (3544) وفي صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ قول النبي لا تزال (7311). وقد سبق ذكره في هامش الصفحة السابقة.

3 - صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة (4686). صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تحريم الظلم (4680). سبق في الدرس10.

شديد" "إن كيدي متين" شديد لا يطاق. ومن الاستدراج أن يكون العبد منتشر الصيت ولا يخاف من المكر في ذلك ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ فيعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ رموه صلى الله عليه وسلم بالجنون، لما رأوا حاله مخالفا لحالهم، هم مقبلون على الدنيا والتكاثر وحب الشهوات، وهو معرض عن هذا كلا قالوا: هذا لا عقل عنده، مجنون، وقيل نزلت لما قال الله تبارك وتعالى "وأنذر عشيرتك الأقربين" فصعد على جبل الصفا وصار ينذر الليل كلا: يا بني فلان، يا بني فلان إني أحذركم من عذاب يوم الآخرة، يدعوهم إلى الإيمان حتى أصبح الصبح، فلما أصبحوا قالوا لا شك عندنا الآن في جنون محمد[1]، بات الليل كله وهو يتكلم فهو مجنون بنظرهم إلى أعماله المخالفة لأعمالهم وهم يظنون أنهم عقلاء حيث تكالبوا على الدنيا وصاروا يكسبون ويدخرون ويتفاخرون ويتكاثرون وهو لا يبالي بشيء من ذلك، قالوا إنه مجنون، قال الله تبارك وتعالى «أو لم يتفكروا» هلا تفكروا؟ إذا استعملوا عقولهم ونظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم تبين لهم «ما بصاحبهم من جنة»، علموا أن هذا ليس تصرفات المجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الإنذار. كل عبد لله صالح بين السفهاء لابد أن يرموه بالجنون أولا لكونه يخالفهم في الأعمال والأقوال، وثانيا أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما يكابد الوحي كان يظهر منه أحوال من نظر إليه في تلك الحالة يَسِمه بالجنون. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الملكوت ما خفي من ملك الله تبارك وتعالى، الملك والملكوت تارة يعبر بهذا وتارة يقول الخلق والأمر، الغيب والشهادة، الحس والمعنى، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وينظروا فيما خلقه الله

---

1 – تفسير المراغي مج3/ج9/ 122. وفي حاشية الصاوي ج110/2.

من شيء بيان لـــ "ما"، فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته. الخلق خلقان: الخلق والأمر، الخلق ما خلقه الله من شيء، كل ما في هذا الكون إنما خرج من شيء، والأمر ما خلقه الله من لا شيء. عالم الأرواح لا شيء منه خرج من شيء، إذا تفكروا في ملكوت السماوات والأرض علموا أن من قدر على صنع هذا واحد وهو المستحق للعبادة ﴿وَأَنْ﴾ وأنه ﴿عَسَى أَنْ يَّكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ﴾ قرب ﴿أَجَلُهُمْ﴾ فيموتوا كفارا، فليتفكروا في شيء آخر وهو أن المرء سيموت من كان يكره أن يصير إلى النار فليحذر من الموت كافرا، إذاً فليتب من الكفر قبل أن يأتيه الموت فيصير إلى النار، فبادروا إلى الإيمان ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ بعد القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ من لم يصدق بهذا القرآن أي حديث يصدق؟ ﴿مَنْ يُّضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ الحق أن الله تبارك وتعالى هو الهادي وهو المضل من أضله الله فلا هادي له ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرا في طغيانهم ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أهل مكة ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى تكون الساعة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ متى تكون ﴿عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا﴾ يظهرها ﴿لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ وقت مجيء الساعة لا يعلمه إلا الله ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على أهلهما لهولها ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ مبالغ في السؤال أو مبالغ في العلم ﴿عَنْهَا﴾ حتى علمتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله تبارك وتعالى. القيامة ثلاث: موت الإنسان هو القيامة الصغرى، من مات فقد قامت قيامته، والوسطى موت جميع الخلائق، والكبرى حشر الأجساد إلى المحشر، وموت جميع الخلائق فناء هذا العالم هو الذي لا يعلم وقته إلا الله تبارك وتعالى. إن قيل إن الدنيا سبعة آلاف سنة وقد مرت ثلاثة آلاف سنة هل يعرف بهذا وقت قيام الساعة؟ لا، لأن الله تبارك وتعالى

نفى علم قيام الساعة عن كل نبي وملَك حتى الرسول صلى الله عليه وسلم أمره بأن يقول «قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو». نعم قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بعثت أنا والساعة كهتين وأشار بالسبابة والوسطى)[1]، لأنه آخر الأنبياء لا نبي بعده، علمنا أن بعثته من أشراط الساعة فلهذا قال: "فقد جاء أشراطها"، جاء أشراط الساعة. أشراط الساعة قسمان قسم أصغر وقسم أكبر، القسم الأصغر منه بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه آخر الأنبياء، وانشقاق القمر، كان يذكر في الكتب السابقة أن لا تقوم الساعة إلا بعد انشقاق القمر وقد وقع، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ستأتي عشر علامات[2]: الدخان وهو موجود في وقتنا الآن، ودابة الأرض، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وطلوع الشمس من مغربها، فهذه علامات بعضها ظهر وبعضها لم يظهر بعد، علمنا بهذا أن الأمر مخفي، الله تبارك وتعالى أخفاها ليكون العبد كامل الاستعداد في كل وقت وزمان ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أجلبه ﴿وَلاَ ضَرًّا﴾ أدفعه ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

---

1 - صحيح البخاري: كتاب الطلاق/ باب اللعان (5301) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة (5245).

2 - جاء في صحيح مسلم: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (5162). ورواه أهل السنن الأربعة من حديث فرات هكذا وقال الترمذي حسن صحيح.

كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما غاب عني ﴿لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ من فقر وغيره لاحترازي عنه باجتناب المضار. هذا لا ينافي أنه يعلمه ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ بالنار للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي آدم، الله تبارك وتعالى خلقنا كلنا من نفس واحدة وتلك النفس هي نفس آدم وخلق الأرواح كلا من روح واحد وذلك الروح روح محمد صلى الله عليه وسلم[1]. فآدم أبو البشر ومحمد أبو الأرواح ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليألفها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ هو النطفة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ ذهبت وجاءت لخفته ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ بكبر الولد في بطنها وأشفقا أن يكون بهيمة ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولدا ﴿صَالِحًا ﴾ سويا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك عليه ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا﴾ ولدا ﴿صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شِرْكًا﴾ «جعلا» جعل أولادهما «له» لله شركا ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أسندَ إلى آدم وحواء والمراد ذريتهما. لما نزل آدم إلى الأرض بزوجته حواء حملت حواء في أقل الروايات عشرين بطنا كل بطن فيه غلام وجارية[2] وورد أنها حملت خمسمائة بطن كل حمل فيه جارية وغلام، وولدت لآدم ألف ولد في خمسمائة بطن[3]، ما مات آدم حتى رأى من أولاده وأولاد أولاده مائة ألف[4]. ولما سكنا الأرض وليس معهما على وجه الأرض إلا البهائم والوحوش والحشرات وحملت حواء خافا أن يأتي الولد يشبه الوحوش أو الحيوان، فطلبا من الله تبارك وتعالى أن يجدا ولدا سويا

---

1 - انظر تفسير روح البيان ج157/7.

2- ذكره النبهاني في الأنوار المحمدية ص15.

3- البروسوي في روح البيان ج295/3.

4- راجع قصص الأنبياء لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ص54/ دار الجيل ط3.

كمثلهما يكون على خلقة البشر فاستجاب الله دعاءهما ورزقهما أولادا صلحاء، ولكن أولادهما جعلوا لله شركاء، الإسناد إليهما والمراد الأولاد، المراد قريش هم الذين أشركوا بالله وستفسره الآية التي تلي هذا. في تفسير جلال جعلا له شركا فيما آتاهما بتسمية عبد الحارث[1]، قيل إن إبليس أمر آدم أن يسمي ولده بعبد الحارث والحارث هو إبليس وهذا شرك ما كان يعلم هذا ولا ينبغي أن يكون عبدا إلا لله، وليس بإشراك في العبودية لعصمة آدم. وروى سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سمّه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان[2]، إلى الآن النساء يوسوس لهن الشيطان بمثل هذا ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أهل مكة من الأصنام ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ به في العبادة ﴿مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ لعابديهم ﴿نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ بمنعها ممن أراد بهم سوء من كسر أو غيره والاستفهام للتوبيخ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى لاَ يَتْبَعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إليه ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ عن دعائهم لا يتبعوه لعدم سماعهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ﴾ مملوكة ﴿أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ دعاءكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنها آلهة لو كانوا آلهة لاستجابوا الدعاء، ولكنهم عاجزون ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ هل الآلهة يقدرون

1- انظره في تفسير الجلالين ج112/2. مكتبة المنار – دكار.

2- أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة الأعراف (3003)، وفي مسند أحمد: مسند البصريين/ من حديث سمرة بن جندب (19258).

على المشي؟ لا، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ لا، ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ لا، ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ استفهام إنكار، ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم؟ فالعابدون أكمل من المعبود لأن العابدين لهم هذه الأشياء والأصنام ليس عندهم شيء من ذلك، كيف تعبدون إلها أنتم أكمل منه؟ ﴿قُلُ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ﴾ إلى هلاكي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ تمهلوني فإني لا أبالي بكم ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ متولي أموري هو الله ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ بحفظه ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فكيف أبالي بهم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ الأصنام ﴿إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ﴾ الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يقابلونك ﴿وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ تجد الأصنام كأنهم ينظرون وليس عندهم بصر لا يرون شيئا. ما أشد حماقة الكفار، محمد إنسان كامل، كامل الأخلاق، كامل الأفعال متصف بجميع صفات الكمال لا يستحق أن يكون نبيا، وحجر فقط يمكن أن يكون إلها؟ ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ المعروف ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أمره الله تبارك وتعالى أن يكون كثير العفو عن الناس ويأمرهم بالمعروف ويعرض عن الجاهلين فلا يقابلهم بسفههم. سألوا عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: أما تقرأون القرآن؟ كان خلقه القرآن[1]. إن الله أدبه بآداب القرآن «خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين». غضب عمر رضي الله عنه فقال له رجل: «خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» وكان عمر

1- (كان خلقه القرآن) طرف من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (1233).

وقافا عند كتاب الله فسكن غضبه[1]. هذه هي مكارم الأخلاق التي تخلق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرها بأن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك[2] ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ يصرفك عما أمرت به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يدفعه عنك ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للقول ﴿عَلِيمٌ﴾ بالفعل. أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ بالله من الشيطان. رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غضبان فقال إني أعلم كلمة لو قالها لسكن غضبه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[3]. قال إن السبب في الغضب أن الشيطان يأخذ جمرة من النار ويوقدها في

---

1 - أخرج البخاري في صحيحه: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا، فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم "خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل. انفرد بإخراجه البخاري في الصحيح: كتاب تفسير القرآن/ باب خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (4642).

2 - روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أُبي قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم "خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك. ابن كثير ج278/2. وفي الصاوي على الجلالين ج114/2.

3- جاء في الصحيحين عن سليمان بن صرد أنه قال استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ونحن عنده جلوس واحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول

قلب الإنسان يقول صلى الله عليه وسلم: ألا ترون إلى حمرة عينيه وإلى انتفاخ أوداجه[1]؟ لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لسكن عنه الغضب، والغضب من النار والنار تطفأ بالماء، فلهذا إذا غضب إنسان وتوضأ سكن غضبه وإذا كان واقفا فليجلس وإن كان جالسا فليضجع. الاستعاذة من الشيطان أمر بها الله تبارك وتعالى والصيغ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أو أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أو أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه سميع عليم، أو أعوذ بالله السميع البصير من الشيطان الرجيم[2]. قال سليمان الداراني: ما رأيت أهون عندي من الشيطان ولا أضعف والله لولا أن الله أمر بالاستعاذة منه ما استعذت. وقال آخر: إنا قوم لا نعرف الشيطان[3]. خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فلقيه الشيطان وبيده شعلة نار يريد أن يجعلها في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فسقطت، فكتفه النبي صلى الله عليه وسلم وجعل الوثاق في يديه وأراد أن يربطه إلى إحدى سواري المسجد حتى ينظره صبيان المدينة ويلعبوا به، فتذكر دعاء سليمان "وهب لي ملكا

النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: إني لست بمجنون. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب الحذر من الغضب (6115)، وفي صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والأدب/ فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب (4725).

1- هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي في سننه وأحمد في مسنده كلاهما عن أبي سعيد الخدري وفيه قال (..ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه).. الحديث ولفظ أحمد "ألا ترون". الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما أخبر به النبي أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة (2117)، وفي مسند أحمد: مسند المكثرين/ مسند أبي سعيد الخدري (10716)

2- راجع صيغ الاستعاذة في تفسير الخازن ج11/1.

3- انظرهما في روح البيان ج299/3.

لا ينبغي لأحد من بعدي" فحله صلى الله عليه وسلم وأطلق سراحه[1]. الشيطان أراد أن يتسلط على النبي صلى الله عليه وسلم، وأراد الله أن يظهر ذلك ويكفيه حتى يعلم الشيطان أنه لا يقدر له على شيء. والله تبارك وتعالى بحكمته ربما منع بالشيء ولا يمنع عنه، النهار به مُنع الليل والليل به منع النهار ولكن كلهما لا يمنع الآخر. وعيسى كان يحيي الموتى وما منعه ذلك من أن يموت هو. إحياؤه للأموات منع به، ولكن ما منعه من أن يموت هو. فكذلك الناس سلموا من الشيطان بالنبي صلى الله عليه وسلم والشيطان هاهو يريد أن يتعرض للنبي صلى الله عليه وسلم، «إنه سميع عليم» ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أصابهم ﴿طَائِفٌ﴾ شيء ألم بهم ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ﴾ عقاب الله ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الحق من غيره فيرجعون. الله تبارك وتعالى له عباد اتقوا الله تبارك وتعالى، إذا عرض لهم عارض من جهة الشيطان تذكروا عقاب الله فأبصروا الحق واتبعوه، أو تذكروا حضرة الله تبارك وتعالى فإذا هم مبصرون، فإذا بصروا الحق غاب عنهم الشيطان ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ إخوان الشياطين من الكفار ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ أي الشياطين ﴿فِي الْغَيِّ ثُمَّ﴾ هم ﴿لاَ يُقْصِرُونَ﴾ يكفون عنه بالتبصر كما تبصر المتقون ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ أهل مكة ﴿بِآيَةٍ﴾ مما اقترحوا ﴿قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾ أنشأتها من قبَل نفسك ﴿قُلْ﴾ لهم

---

1 - أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن عفريتا من الجن تفلت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان "رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي". صحيح البخاري: كتاب الصلاة/ باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (461) وفي صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة (843).

﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ وليس لي أن آتي من عند نفسي بشيء ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ﴾ حجج ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ﴾ عن الكلام ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في ترك الكلام في الخطبة أو في الصلاة، في بداية الإسلام كان المصلي يتكلم حتى نزلت هذه الآية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (إن في الصلاة شغلا)[1] عن الكلام فنهى عن الكلام في الصلاة أو في الخطبة أو عند تلاوة القرآن «وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون» استمعوا له بآذانكم الظاهرة وأنصتوا عن الكلام بألسنتكم الظاهرة لعلكم ترحمون بسماع القرآن سماع تدبر. فاستمعوا له بآذانكم الباطنة وأنصتوا عن الكلام بألسنتكم الباطنة لعلكم ترحمون بالوصول إلى حضرة الله تبارك وتعالى. المستمع إن استمع ظاهرا و أنصت ظاهرا سمع الكلام ظاهرا، وإن استمع باطنا وأنصت باطنا سمع الخطاب الحقيقي باطنا، فيسمع الخطاب من المتكلم يسمع القرآن من الجمعية العظمى من حضرة الله تبارك وتعالى، من المنزِّل، أو لا أقل من أن يسمعه من الرسول صلى الله عليه وسلم. القرآن وصفته آية أنه كتاب مبارك[2] من قرأه وجد ثوابا ومن استمع للقراءة وجد ثوابا كذلك، ويشفي الأمراض الظاهرة كما يشفي الأمراض الباطنة ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي

1 – أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قال كنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا وقال: (إن في الصلاة شغلا) واللفظ للبخاري. صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (1199) وفي صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (837).

2– "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب" سورة ص الآية رقم 28.

﴿نَفْسِكَ﴾ سرا ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللا ﴿وَخِيفَةً﴾ خوفا منه ﴿وَ﴾ فوق السر ﴿دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ متوسطا بينهما ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أوائل النهار وأواخره ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله. خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يدور في نواحي المدينة ليلا فمر بدار عمر فإذا هو يصلي بالليل ويقرأ بأعلى صوته، ومر بدار أبي بكر ووجده يصلي يسر القراءة حتى لا يسمع نفسه، فلما أصبحا دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر: ما لك ترفع صوتك جهرا بالقراءة في الليل؟ قال: أطرد النعاس وأوقظ الجيران وأطرد الشيطان. وقال لأبي بكر: وأنت لِم تسر؟ قال: أسمعتُ من ناجيتُ. قال الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر: أخفض من صوتك شيئا، وقال لأبي بكر: ارفع من صوتك شيئا[1]. هذا هو "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا" السبيل بين الجهر والسر ليس إلا الجهر فقط ولكن متوسط، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تبارك وتعالى: أنا جليس من ذكرني وأنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم)[2] على كل حال طريق الولاية ذكر الله تبارك وتعالى ولابد من البداية بالذكر باللسان

1- أخرجه الترمذي وأبو داود في سننهما. الترمذي: كتاب الصلاة/ باب ما جاء في قراءة الليل (409) ولأبي داود من كتاب الصلاة/ باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (1133).

2 - أخرجاه في الصحيحين ولفظ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة). صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى "ويحذركم الله نفسه" (7405)، وفي صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله (4832) وقد تقدم في الدرسين 5و18.

وهو أبسط الذكر، إذا استمر العبد على الذكر باللسان لعله يصل إلى الذكر مع الحضور، وإذا استمر يصل إلى ذكر القلب، ويصل إلى ذكر مع غيبة عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى فيصير الذكر هو الذاكر وهو المذكور وما ذلك على الله بعزيز، على كل حال ذكر الله نافع، فأي اسم من أسمائه داومت الذكر عليه تجد له أثرا في نفسك، كل اسم يؤثر في نفس العبد ما لا يؤثر الآخر فلذا أمر الله تبارك وتعالى بكثرة ذكر الله في القرآن «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» عن ذكر الله. فإن الأشياء ثلاثة: شيء ناقص لا يكمل أبدا، وشيء كامل لا ينتقص أبدا، وشيء تارة كامل وتارة ناقص. شيء تارة كامل وتارة ناقص ليس كماله من ذاته. فالكامل الذي ليس فيه نقص الملائكة "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون" والناقص الذي لا يكمل أبدا البهائم والحيوانات والجمادات. والإنسان بينهما تارة كامل وتارة ناقص، ليس كماله من ذاته إنما هو من مذكوره، إذا ذكر الله كان كاملا وإن غفل عن ذكر الله كان ناقصا. والإنسان كلُّ شيء فيه شرفه يردد ذكره دائما، تجده إذا انتسب إلى قبيلته أو إلى بلده أو إلى وطنه يفتخر بذلك، فالأولى أن يكثر من ذكر الله تبارك وتعالى فهو الشرف الحقيقي، وما سواه ليس بشيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ الملائكة ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يتكبرون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يخصونه بالخضوع والعبادة فكونوا مثلهم. العبد إذا كان غافلا عن الله تبارك وتعالى يكون متكبرا لأنه يرى ما سوى الله تبارك وتعالى، والإنسان جبل على أنه يتكبر في نفسه طبعا، وتكبر الإنسان غاية العجَب، بالأمس نطفة غدا يكون جيفة وهو فيما بينهما يحمل العذرة دائما في بطنه ويتكبر مع ذلك. وإذا عقل يرجع إلى الله تبارك

وتعالى ويداوم ذكر الله ويجاهد الجهاد الأكبر حتى يصير عند الله، إذا كان عند الله لا يستكبر لأنه لا يرى لنفسه وجودا ولاسيما قيمة، أولئك الذين وصفهم الله «إن الذين عند ربك» رجعوا إلى الله تبارك وتعالى بالفناء فيه والبقاء فيه «لا يستكبرون عن عبادته» يفتخرون بالعبودية لله ويسبحونه ويسجدون له السجود الدائم، هم دائما في سجدة لا يرفعون رؤوسهم إلى أبد الأبد. "الذين هم على صلاتهم دائمون".

سورة الأنفال

مدنية أو إلا "وإذ يمكر بك ..." الآيات السبع فمكية،
خمس أو ست أو سبع وسبعون آية.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ اختلف المسلمون في غنائم بدر فقال الشبان هي لنا لأنا باشرنا القتال، وقال الشيوخ كنا ردءا لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فلا تستأثروا بها عنا، تنازعوا في غنائم بدر وسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول نهاهم عن كثرة السؤال، خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنهاكم عن الشرك بالله وعن عقوق الأمهات وعن منعٍ وهات وكثرة القيل والقال، وعن كثرة السؤال[1] أي سؤال ما لا يعني أو سؤال الناس

---

1 – أخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. صحيح البخاري واللفظ له: كتاب الأدب/ عقوق الوالدين من الكبائر (5975) وفي صحيح مسلم: كتاب الأقضية/ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة (3237).

أموالهم، أما سؤال التعلم فعبادة، وقال: (ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم وكثرة اختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[1] لما سأل المسلمون عن غنائم بدر جاء الجواب على عكس مرادهم. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ الغنائم لمن هي ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ليست لكم ليست للشبان ولا للشيوخ، لله وللرسول يجعلاها حيث شاءا، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على السواء، يفسر تقسيم الغنائم في هذه السورة إن شاء الله "واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه" ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ وعيده ﴿وَجِلَتْ﴾ خافت ﴿قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ تصديقا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هؤلاء هم المؤمنون، وصفهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يأتون بها بحقوقها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله تبارك وتعالى ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صدقا بلا شك ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ منازل في الجنة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ إن

---

1 - أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ولفظ مسلم: عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه. صحيح مسلم: كتاب الحج/ باب فرض الحج مرة في العمر (2380) وفي صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة/ باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم (7288).

الله تبارك وتعالى أوجب علينا إقامة الصلاة والصيام والصدقات، فأفضل حركات العبد الصلاة، وأفضل سكنات العبد الصيام، وأفضل عبادة الأموال الصدقات[1].

ورد أن رجالا تسابقوا إلى باب الجنة أربعة كلهم يقول إنه يدخل الجنة قبل الآخرين ليس عليهم حساب ولا عقاب، بعث الله جبريل أن يحكم بينهم بالعدل فأتى جبريل، وهم مجاهد وسخي وعالم وزاهد. سأل جبريل المجاهد: لِم تقول إنك تدخل الجنة أولا؟ قال لأني قاتلت بالسيف في سبيل الله حتى قُتلت، قال له: من أين عرفت أن من استشهد في سبيل الله يدخل الجنة؟ قال: من العالم. وقال للزاهد: لِم قلت إنك تدخل الجنة أولا؟ قال: لأني زهدت في الدنيا ما ملكت شيئا، قال: من أين عرفت أن هذا يوجب الجنة؟ قال: من العالم. وقال للسخي: لِم تقول إنك تدخل الجنة أولاً؟ قال: لأني أنفقت مالي يمينا وشمالا رغبة في الجنة. قال: من أين علمت أن هذا يوجب الجنة؟ قال من العالم. قال: إذاً تأدبوا، العالم الذي تعلمتم منه لا تنازعوه. قالوا: قبلنا يدخل العالم أولا، قال العالم: يا رب إنما وجدت العلم والقدرة على التعليم بسخاوة هذا السخي فأدخلوه أولاً، فقال الله تبارك وتعالى: ادخلوا جميعا تسابقوا[2] ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وصف المؤمنين في هذه الآية بأوصاف جليلة: «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون» التوكل الثقة بالله تبارك وتعالى ولا ينافي الدخول في الأسباب «الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم

1- قال في روح البيان (قال بعض العارفين بالله الصلاة أفضل الحركات والصوم أفضل السكنات) ج305/3.

2- أورد الحكاية البروسوي في تفسيره روح البيان غير أنه ذكر فيمن ذكر الحاجَّ بدل الزاهد. روح البيان ج314/3.

المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» لابد من دوام ذكر الله تبارك وتعالى والزهد في هذه الدنيا والانقطاع إلى الله تبارك وتعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ هذه الآية نزلت في غزوة بدر الكبرى قد كان خيرا لهم فكذلك أيضا، وذلك أن أبا سفيان قدم بِعِير من الشام، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليغنموها فعلمت قريش، فخرج أبو جهل ومقاتلو مكة ليذبوا عنها وهم النفير، وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل فنجت، فقيل لأبي جهل ارجع فأبى وسار إلى بدر. فشاور صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال إن الله وعدني إحدى الطائفتين فوافقوه على قتال النفير وكره بعضهم ذلك وقالوا لم نستعد له، كما قال تعالى. هذه غزوة بدر في العام الثاني من الهجرة خرجت عير قريش من الشام وخرج النفير من مكة فوعد الله النبي صلى الله عليه وسلم إحدى الطائفتين فجمع المهاجرين والأنصار وقال: هذه قريش خرجت بخيلها ورجلها وعَددها وعُددها وسلاحها وهذا العير ليس معهم سلاح، إلى أيهما نخرج؟ وكان يحب صلى الله عليه وسلم الخروج إلى النفير، فقال جماعة نخرج إلى العير وإياك والنفير، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: أشيروا علي بالرأي أشيروا علي بالرأي. قال أبو بكر وعمر يا رسول الله مرنا بما شئت، مرنا بما شئت. فصار الرسول يردد هذه الكلمة: أشيروا علي بالرأي، أشيروا علي بالرأي. فقال المقداد بن الأسود: مرنا بما شئت فلو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه معك فلم يزل المصطفى صلى الله عليه وسلم يردد: أشيروا علي بالرأي حتى قال له سعد بن عبادة[1] كأنك تريد الجواب منا يا رسول الله نحن الأنصار؟ قال له: نعم، قال:

1 – هو قول ذكره القرطبي في الصفحة 374 من الجزء السابع.

اخرج بنا إلى برك الغماد في أرض الحبشة، خض بنا البحر إن شئت فوالله لا نقول ما قال بنو إسرائيل "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: كأني أنظر إلى مصارع القوم، اخرجوا على بركة الله[1]. فخرجوا إلى بدر فجاء أبو جهل بجيش زهاء ألف مدججين في السلاح وعندهم كل عدة وعدد، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم فعين مصارع القوم: أبو جهل يصرع هنا، شيبة هنا الوليد هنا، أراهم ذلك قبل أن يعين لهم المراكز، ولم يزل يدعو الله تبارك وتعالى: اللهم أعطني ما وعدتني من النصر، اللهم إن شئت أن لا تعبد بعد اليوم فلتهزم هذه العصابة[2]. يستغيث بالله تبارك وتعالى ويناشده حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر فوضعه على رأسه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من مناشدتك لربك إن الله ينصرك، فقال: صدقت، هذا جبريل آخذ بزمام فرسه معه ألفان من الملائكة، هذا ميكائيل معه ألف، هذا إسرافيل معه ألف، هذا ملك الموت ومعه ألف، خمسة

---

1 - راجع هذه المحاورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في سيرة ابن هشام ج266/2.

2 - أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين". صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (3309) وورد مثله في صحيح البخاري باختلاف في الألفاظ، صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قوله تعالى "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم (3953)

آلاف جاءوا للقتال فوقعت وقعة بدر فقتل الله الكفار، قتلوا سبعين رئيسا من رؤسائهم وأسروا سبعين، منهم العباس بن عبد المطلب، فلما كرهوا ما نزل في حكم الغنائم ضرب الله لهم مثلا: كراهيتكم لهذا الأمر في الأنفال ككراهيتكم الخروج يوم خروجكم من المدينة إلى مقابلة النفير «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون» في ذلك الوقت كثير من المؤمنين لا يحبون ذلك، لأنهم يحبون العير ليجدوا غنيمة باردة ليس فيها قتل ولا جرح والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب هزيمة الكفار وانتصار الإسلام في كل أنحاء العالم، فكان صلى الله عليه وسلم لا ينظر إلى الغنائم ولا إلى العير بل أراد مواجهة قوة العدو ليكسر شوكة الأعداء ليبقى الإسلام منتصرا أبدا ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في القتال ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر لهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ لما خرج الرسول إلى بدر كثير من الجبناء كأنهم يقادون إلى الموت فقط ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير أو النفير ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ﴾ تريدون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ البأس والسلاح وهي العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ كنتم تحبون مواجهة أبي سفيان لتغنموا ما في يده ولا قتال بخلاف النفير ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ ليظهره ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ السابقة بظهور الإسلام ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يستأصلهم ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ﴾ يمحق ﴿الْبَاطِلَ﴾ الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ الله كان مراده أن يحق الحق ويبطل الباطل، يحق الحق مع الأنبياء ويبطل الباطل مع الكفار، كذلك يحق الحق مع الأولياء أنصار الأنبياء، ويبطل الباطل مع الفجرة المنكرين للأولياء المعادين لهم «ولو كره المجرمون» المشركون حسا أو معنى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم، المستغيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم، أسنده إلى الجماعة لأن الأمير إذا فعل شيئا فكأنما فعله الجماعة كلا

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي﴾ بأني ﴿مُمِدُّكُمْ﴾ معينكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين يردف بعضهم بعضا وعدهم بها أولا ثم صارت ثلاثة آلاف ثم خمسة كما في آل عمران. ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الإمداد ﴿إِلاَّ بُشْرَى﴾ إنما أنزل الله الملائكة ليشرح قلوب المؤمنين فقط، ولكن ليس للنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ ليجدوا اطمئنانا ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ولكن النصر حقيقة لا يأتي إلا من الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واذكر ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ لما وقفوا في ميدان القتال ألقى الله الأمن في قلوب المسلمين حتى صاروا كلهم ينعس ويسقط في موقفه من شدة النعاس لما رأى الكفار هذا قالوا هؤلاء ليسوا من جنس البشر ﴿مِنْهُ﴾ منه تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ وسوس لهم الشيطان فقال لهم أرأيتم الكفار في محل صلب وأنتم في محل فيه الرمال لا تقدرون على الكر ولا الفر، فنزل المطر حتى سال الوادي فصار محل الكفار وحلا لا يقدرون على المشي ومحل المسلمين صار صلبا ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وسوسته لكم بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم ظمأى محدثين والمشركون على الماء ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ يحبس ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ويثبت الله تبارك وتعالى الأقدام، أقدامكم في الرمال وأقدامكم في الإيمان بالديانة والتمسك بأمر الله تبارك وتعالى، إن الله تبارك وتعالى يؤيد المسلمين بثبوت الأقدام فوفى لهم ما وعدهم.

حكى الزهري أنه رجع من الحج ونزل بعبد الملك بن مروان فقال له: يا زهري من أين أقبلت؟ قال له: من مكة. قال له: من يسود المسلمين فيها اليوم؟ قال له: عطاء بن رباح، قال له: عربي أم من الموالي؟ قال: بل هو من الموالي. قال: ومن يسود اليمن؟ قال له: طاووس بن كيسان. قال: من العرب أو من الموالي؟ قال: من

الموالى. قال: ومن يسود مصر؟ قال: يزيد بن عبيد. قال: من العرب أو من الموالى؟ قال: بل من الموالي. قال: ومن يسود الشام؟ قال له: مكحول الدمشقي؟ قال: من العرب أو من الموالي؟ قال: بل من الموالي كان عبدا أسود أعتقته امرأة فصار هو السيد. قال: كيف يسود هؤلاء؟ قال: بالرواية والديانة. قال: من كان كذلك حق له أن يسود، ومن يسود حرمنا؟ يعني بيت المقدس، قال له: حبيب بن مزاحم. قال: عربي أم مولى؟ قال: بل من الموالي. قال: ومن يسود البصرة؟ قال له: حسن بن أبي الحسن. عربي أو مولى؟ قال: مولى. قال: ومن يسود جزيرة العرب؟ قال: ميمون بن مهران. قال: عربي أم من الموالي؟ قال: بل من الموالي. قال: ويحك ومن يسود الكوفة؟ قال له: إبراهيم النخعي. قال: من الموالي أو من العرب؟ قال: من العرب. قال: كدت أن تقطع قلبي. كاد هذا الأمر أن يكون السود يخطبون على المنابر والعرب جلوس على الأرض. قال له: هذا الأمر ليس فيه عروبة ولا ولاء إنما هو بالديانة والتقى فقط، الرسول صلى الله عليه وسلم نفى هذا لا عربي ولا عجمي إلا هذا الدين، من حفظ هذا الدين وتمسك به فقط فهو الذي ينبغي له أن يرأس، قال له: صدقت[1]. والمولى في لغة الأقدمين ليس من باب المعتوق كان إذا أسلم سوداني على يد رجل عربي ينسب إلى تلك القبيلة ويقال مولى بني فلان. (..)[2]

---

1 – الحكاية أوردها إسماعيل حقي البروسوي في روح البيان ج321/3.

2 – جواب للشيخ قال فيه: الكوفة تعلمون أنها مقر الأنبياء، فيها قبر آدم وفيها قبر نوح وقبر علي وإبراهيم كلهم سكنها، وهي الحرم الرابع كما يقولون، أهل البيت (كاع) يفضلونها على..

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾ الذين أمد بهم المسلمين ﴿أَنِّي﴾ بأني ﴿مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ ءامَنُواْ﴾ بالإعانة والتبشير ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ الخوف ﴿فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ الرؤوس ﴿وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أطراف اليدين هكذا علمهم الله تبارك وتعالى كيفية القتال. إما أن يضربوا رقاب الكفار، من قطع رأسه يموت أو يضربوا منهم كل بنان، من سقطت أصابعه إن لم يمت لم يقاتل بعد ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الواقع بهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ﴾ خالفوا ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُّشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ﴾ العذاب ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أيها الكفار ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ النَّارِ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين. الفرار من الزحف من الكبائر ﴿وَمَنْ يُّوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ يوم لقائهم ﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفًا﴾ منعطفا ﴿لِقِتَالٍ﴾ بأن يريهم الفرة مكيدة وهو يريد الكرة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ منضما ﴿إِلَى فِئَةٍ﴾ جماعة من المسلمين يستنجد بها ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ رجع ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المرجع. وهذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف، من فر عن اثنين فقد فر ومن فر عن ثلاثة فلا يعد فارا[1] ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية لما قتل الكفار في وقعة بدر صار المسلمون يفتخرون كلهم يقول: أنا قتلت فلانا أنا قتلت فلانا، شابان من الأنصار قتلا أبا جهل، واحد وقف أمامه وطعنه برمحه في حلقه، والآخر طعنه برمحه في رقبته، فكلهم يقول إنه هو القاتل، قال تعالى «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» ببدر بقوتكم «وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ» بنصره إياكم ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد أعين القوم ﴿إِذْ

1 – انظره في تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج7/380.

رَمَيْتَ﴾ بالحصى لأن كفا من الحصى لا تملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بإيصال ذلك إليهم، فعل ذلك ليقهر الكافرين ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. نفى القتل من المسلمين وما نفى الرمي من النبي صلى الله عليه وسلم تفهم الفرق بين المقامين، «فلم تقتلوهم»، نفى القتل تماما ما فعلوا شيئا، «ولكن الله قتلهم». ومحمد صلى الله عليه وسلم «وما رميت إذ رميت» أثبت له الرمية وبين له أن الرامي ليس هو ولكن هو الله «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» أثبت رمية النبي صلى الله عليه وسلم ونفاها، وأما المسلمون فلم تقتلوهم قط، لم يقل فلم تقتلوهم إذ قتلتموهم بل فلم تقتلوهم. نحن ما فعلنا شيئا، والنبي فعل ولكن فعل بالله ﴿ذَلِكُمْ﴾ الإبلاء حق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوَهِّنٌ﴾ مضعف ﴿كَيْدَ الْكَافِرِينَ إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أيها الكفار تطلبوا الفتح أي القضاء، حيث قال أبو جهل اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة أي أهلكه[1]، كان هذا دعاء أبي جهل فاستجاب الله دعاءه ﴿فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾ القضاء الذي طلبتم هاهو وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن الكفر والحرب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لقتال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿نَعُدْ﴾ لنصره عليكم ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ تدفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ﴾ تعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ بمخالفة أمره ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواعظ ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ وهم المنافقون أو المشركون ﴿إِنَّ شَرَّ

1 – سيرة ابن هشام ج280/2.

الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن النطق به ﴿الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ ليس عندهم عقل ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ صلاحا بسماع الحق ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فرضا وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوْاْ﴾ عنه ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عنادا وجحودا. أخبر تبارك وتعالى أنه لو علم فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لانتفعوا، ولكن لما لم يعلم فيهم خيرا، أي لم يكن فيهم خير أصلا، منعهم من السماع، ولو سمعوا لفازوا حيث يقولون يوم القيامة "لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" لو علم الله فيهم خيرا أبلغ من لو كان فيهم خير لأن شيئا لم يعلمه الله لا وجود له. أخبر تبارك وتعالى أنه ما علم فيهم خيرا، فلهذا ما أسمعهم القرآن ولما لم يكن فيهم خير لو سمعوا القرآن لأعرضوا عنه لا يقبلونه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين لأنه سبب الحياة الأبدية ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فلا يستطيع أن يؤمن أو يكفر إلا بإرادته ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ إن أصابتكم ﴿لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تعمهم وغيرهم، واتقاؤها بإنكار موجبها من المنكر. هذا لا ينافي "ولا تزر وازرة وزر أخرى" سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث[1]، يهلكون

---

1 - أخرج البخاري في صحيحه من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمرا وجهه يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد سفيان تسعين أو مائة قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث) صحيح البخاري: كتاب الفتن/ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ويل للعرب من شر قد اقترب (7059).

ويبعثون على نياهم. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن خالفه ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَّتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يأخذكم الكفار بسرعة ﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾ قواكم ﴿بِنَصْرِهِ﴾ يوم بدر بالملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الغنائم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ هذه الآية نزلت في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر[1] بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة لينزلوا على حكمه فاستشاروه فأشار لهم قالوا له: كيف حكم النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال لهم هكذا. أشار لهم أن حكم النبي صلى الله عليه وسلم هو الذبح، لأن عياله وماله فيهم قال: ما أتممت الكلمة حتى شعرت أني خنت الله ورسوله، فجاء وربط نفسه بسوار المسجد وقال لا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت في حقه «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ» ﴿وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾ ما اؤتمنتم عليه من الدين ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فتنة لكم صادة عن أمور الآخرة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فلا تفوّتوه بمراعاة الأموال والأولاد والخيانة لأجلهم. ونزل في توبته ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ﴾ بالإنابة ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ بينكم وبين ما تخافون فتنجون ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلما نزلت جاءت فاطمة فحلته فقال: كنت أقسمت أن لا يحلني إلا النبي صلى الله عليه وسلم، قال الرسول:

---

1 – انظر القرطبي ج394/7.

فاطمة بضعة مني[1]. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يوثقوك ويحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أعلمهم به ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ القرآن ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قاله النضر بن الحارث[2] لأنه كان يأتي الحيرة يتجر فيشتري كتب أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا﴾ الذي يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ المنزل ﴿مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ما أشد حماقته «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» كان من حقه أن يقول: إن كان هذا هو الحق من عندك فاجعلنا نؤمن به، ولكن «إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إيتنا بعذاب أليم» طلبوا هذا من الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ برمي الحجارة ﴿وَأَنتَ﴾ الرسول ﴿فِيهِمْ﴾ ما دام النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة فلا ينزل عذاب لأن النبي إذا أُهلِك قومُه انتهى أمره والنبي صلى الله عليه وسلم أمره لا ينتهي إلى آخر الدنيا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ما داموا يستغفرون الله لا ينزل عليهم عذاب، قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

1 – (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني) طرف من حديث مطول أخرجه البخاري عن المسور صحيح البخاري: كتاب المناقب/ ذكر أصهار النبي منهم أبو العاص بن الربيع (3729). ولمسلم في صحيحه: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل فاطمة بنت النبي (4483).

2 – نص سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم أن القائل لذلك هو النضر بن الحارث. ابن كثير ج305/2.

أنزل الله أمانين لأمتي[1]. «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» قال: إذا مضيت تركت فيهم الاستغفار. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ بالسيف حيث أن العذاب لا يأتي من السماء، لابد أن يعذبهم الله بالسيف يوم بدر ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن يطوف به ﴿وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ كما زعموا ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم على البيت ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً﴾ صفيرا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقا، جعلوا ذلك موضع صلاتهم ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ ببدر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في حرب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أبو سفيان اكترى ألفين يوم أحد[2] ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾ في عاقبة الأمر ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منهم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يساقون ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ يفصل الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ يجمعه متراكما بعضه على بعض ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كأبي سفيان وأصحابه ﴿إِنْ يَّنتَهُواْ﴾ عن الكفر وقتال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من أعمالهم ﴿وَإِنْ يَّعُودُواْ﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ سنتنا فيهم بالإهلاك فكذا نفعل بهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ

---

1 – قال النبي صلى الله عليه وسلم (أنزل الله أمانين لأمتي: "وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون" فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة). رواه الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن /باب من سورة الأنفال (3007).

2 – قاله الخازن في تفسيره ج184/2.

تَكُونَ﴾ توجد ﴿فِتْنَةٌ﴾ شرك هذا غاية الجهاد ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم به ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هو ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الناصر لكم. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس الحادي والعشرون

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أخذتم من الكفار قهرا ﴿مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ يأمر فيه بما يشاء ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم وهم فقراء ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ ذوي الحاجة من المسلمين ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطع في سفره من المسلمين. حكم الغنيمة أن تخمس، والأصل في الغنيمة ما أخذ من الغنم من العدو قهرا فأطلق على كل مال يؤخذ من العدو قهرا ولو لم يكن غنما. إذا حارب المسلمون الكفار على سبيل إقامة الدين وقهروهم وأخذوا أموالهم فحكم الله في تلك الغنيمة أن تجعل خمسة أقسام: قسم لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والأربعة أخماس الباقية لجميع الغانمين، ونصيب الله هو نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لله وللرسول هذا للرسول فقط «ولذي القربى» قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب لهم قسم «واليتامى والمساكين وابن السبيل» أدخل اللام في ذي القربى بخلاف الأقسام الثلاثة الباقية لئلا يظن أنهم داخلون في قسم النبي صلى الله عليه وسلم، فالخُمس

لخمسة أصناف: للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم قال الحنفيون: سقط نصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الشافعي إنه بقي لذوي القربى من بني هاشم وبني المطلب، وقال مالك: يخير الإمام في ذلك، وهو مذهب مالك[1]. وذوي القربى بنو هاشم وبنو المطلب. رسول الله صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، قصي له أربعة أولاد: عبد مناف وعبد العزى وعبد الدار وعبد، وعبد مناف هو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهاشم من أولاده: أسد وعبد المطلب، وعبد المطلب له عشرة أولاد: عبد الله وأبو طالب وأبو لهب وعباس وحمزة والزبير ... إلى آخرهم[2] وكل من كان من بني المطلب ومن بني هاشم فهم الذين جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم هذا القسم. قال عثمان: ما بالنا نحن بني عبد شمس؟ أما بنو هاشم فقرابتك وبنو المطلب هم ونحن سواء فيك، قال هؤلاء بنو المطلب ما فارقونا في جاهلية ولا إسلام[3]

---

1 – ذكر هذه الأقوال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج8/ص11.

2 – تتمتهم حسب ابن هشام: الحارث وحجل والمقوم وضرار. سيرة ابن هشام ج113/1 دار القلم.

3 – أخرجه البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب. صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة خيبر (4229). وأخرجه كذلك أبو داود في سننه عنه قال: أخبرني جبير بن مطعم قال: لما كان يوم خيبر وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس، فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم، فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام، وإنما نحن وهم شيء واحد، وشبك بين أصابعه صلى الله عليه وسلم. سنن أبي داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة/ باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى (2587)

لمواصلتهم لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم في جاهلية وإسلام جعلهم الله بهذه المرتبة دون غيرهم من أولي القرابة. فالنسب الحقيقي هو نسب المواصلة والموافقة على الحق. أخبر تبارك وتعالى أن الغنيمة تقسم هكذا، والجهاد أصغر وأكبر (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[1] قالوا: وما هو الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس والهوى والشيطان. قتيل الجهاد الأصغر شهيد وقتيل الجهاد الأكبر صدّيق، والصدّيقون فوق الشهداء بدليل "من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين" كذلك ما غنمتم في الجهاد الأكبر فإن لله خمسه هذا بالنظر إلى الخواص فما غنموا من الدين، والدين على خمسة أركان التوحيد بالله تبارك وتعالى، والباقي الأقسام الأربعة عمل الجوارح فلذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وهذا في حق الخواص أما في حق خواص الخواص "واعلموا أنما غنمتم" عند الجهاد الأكبر بعد الفناء والوصول إلى الحضرة من المشاهدة والأسرار والحقائق فأن لله خمسه، خمس منه لله لا تفشيه أبدا، كشف أسرار الربوبية أشد عند الله من الحرام[2]، لا كلام في هذا القسم أبدا يعيش العبد بينه وبين ربه وبينه وبين نبيه ولا يتكلم بهذا أبدا. والأقسام الباقية لذوي القربى الإخوان في الله الصادقين تحدثهم بجزء من هذا العلم، واليتامى: الطلبة الذين مات مرشدهم قبل أن يصلوا إلى الكمال، هم اليتامى في طريق الجهاد الأكبر تعطيهم قسما، والمساكين المريدين الصادقين الذين رفضوا الدنيا وسلبوا الإرادة. وابن السبيل الإخوان في الله من شتى الطرق يجولون في

---

1 – عن جابر قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال (قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه) للديلمي في الجامع الصغير للسيوطي رقم 6107

2 – جاء في الإحياء للإمام الغزالي قوله: قال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر. الإحياء ج131/1 دار الجيل.

البلدان لزيارة أهل الله، لهم جزء من هذا، تلك هي الغنيمة «فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ﴾ فاعلموا ذلك ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد صلى الله عليه وسلم من الملائكة والآيات ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر الفارق بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ المسلمون والكفار ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه نصركم يوم بدر مع قلتكم وهزيمتهم مع كثرتهم ﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ كائنون ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ القربى من المدينة جانب الوادي ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ البعدى منها ﴿وَالرَّكْبُ﴾ العير بمكان ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مما يلي البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم والنفير للقتال ﴿لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ﴾ جمعكم الله بغير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ في علمه وهو نصر الإسلام ومحق الكفر فعل ذلك ﴿لِيَهْلِكَ﴾ يكفر ﴿مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي بعد حجة ظاهرة قامت عليه، وهو نصر المؤمنين مع قلتهم على الجيش الكثير ﴿وَيَحْيَى﴾ يؤمن ﴿مَنْ حَيِيَ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ نومك ﴿قَلِيلاً﴾ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم جيش الكفار وهم نحو سبعين فأخبر بذلك فسروا ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ جبنتم ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ سلمكم من الفشل والتنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ نحو سبعين أيضا أو مائة وهم ألف لتقدموا عليهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ ويقلل المؤمنين أيضا في أعين الكفار فلما التحما أراهم إياهم مثليهم كما في آل عمران، لما تقابلوا حقيقة رأى الكفار أن المسلمين ضعفا عددهم ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي تصير الأمور إلى الله تبارك وتعالى. هذه هي قصة بدر ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ جماعة كافرة ﴿فَاثْبُتُواْ﴾ لقتالهم

ولا تنهزموا ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا﴾ ادعوه بالنصر ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ﴾ تختلفوا فيما بينكم ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ تجبنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قوتكم ودولتكم أو ريحكم الصبا[1] ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والعون. أمر الله تبارك وتعالى نبيه والمؤمنين معه إذا لقوا الكفار أن يثبتوا ولا ينهزموا وأن يذكروا الله تبارك وتعالى كثيرا وأن يطيعوا الله ورسوله، وهاهم عن التنازع الذي يدعوهم إلى الفشل ويذهب بدولتهم وقوهم وريحهم وأوصاهم بالصبر «إن الله مع الصابرين» فالقوة بمعية الله ومعية الله تبارك وتعالى مع الصابرين. أمر بذكر الله تبارك وتعالى في موقف القتال وهذا يرشد العبد إلى أن الواجب عليه أن يدوم على ذكر الله تبارك وتعالى في كل أحواله، في حالة الخوف وحالة الأمن وحالة الضعف وحالة القوة وحالة العسر وحالة اليسر، فإنّ ذكر الله تبارك وتعالى به ينال العبد الدرجة الرفيعة عند الله تبارك وتعالى، وبذكر الله ينال العبد الانتصار على أعدائه فأمرهم بذكر الله في موقف القتال، وذِكر الله محمود على كل حال، وفي كل وقت وفي كل محل ولاسيما عند الغافلين، فلهذا ورد الأمر بالذكر في الأسواق لأن جل أهل الأسواق غافلون عن الذكر فمن ذكر الله في تلك الحالة بنية أن الناس غفلوا عن الله وأنت تذكر الله تبارك وتعالى فهذا ورد فيه وعد حسن[2]. إن الذاكر مع الغافلين كالكار بعد الفارين في الجهاد[1]. وذكْر الله تبارك

1 - ذكره القرطبي عازيا للحاكم ج25/8.

2 - أخرج الترمذي من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة. سنن الترمذي: كتاب الدعوات/ باب ما يقول إذا دخل السوق (3350).

وتعالى هو زاد العبد المبلغ إلى جميع آماله، ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا يلتمسون حلق الذكر، فإذا رأوا جماعة حلقوا للذكر تنادوا وأرسلوا رائدهم إلى الله تبارك وتعالى فيقول: رأينا أقواما مجتمعين على ذكرك وتسبيحك وتلاوة كتابك والصلاة على نبيك فيقول الله تبارك وتعالى: اغشوهم رحمتي فهم القوم لا يشقى جليسهم)[2] وورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله يقول: (أنا جليس من ذكرني، أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملئه)[3]. بهذه الآية علم الله نبيه أمر القتال وأمر الجيش وأمر العسكر «إذا

---

[1] – جاء في فيض القدير: روى الطبراني عن ابن مسعود قوله ذاكر الله في الغافلين بمنزلة الصابر في الفارين. فيض القدير ج106/1.

[2] – عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلا يتتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملئوا ما بينهم وبين السماء الدنيا فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء قال فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم بهم من أين جئتم فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك، قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك، قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا لا أي رب، قال فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك يا رب، قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك، قال فيقول: قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، قال فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم، قال فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم". رواه الشيخان وهذا لفظ مسلم. صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب فضل مجالس الذكر (4854) وفي صحيح البخاري: كتاب الدعوات/ باب فضل ذكر الله عز وجل (6408).

[3] – سبق تخريجه في الدرس العشرين وهو الحديث رقم (7405) من صحيح البخاري: كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه، وفي صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله تعالى (4832). تقدم في الدروس 5، 18، 20.

لقيتم فئة فاثبتوا» لا تفروا «واذكروا الله كثيرا» «وأطيعوا الله ورسوله» إياكم ومخالفة أمر الله تبارك وتعالى فإن العبد إذا أطاع الله تبارك وتعالى وأطاع رسوله ساعده العون من الله تبارك وتعالى، وإن خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فذلك مما يدعو إلى الفشل، وهى عن التنازع الداعي إلى الفشل والجبن وذهاب الدولة «وتذهب ريحكم» أي قوتكم أو دولتكم أو تذهب ريحكم ريح الصبا[1]، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[2] إذا تنازعوا ذهبت القوة وذهبت ريح الصبا التي كانت تهب لنصر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، واصبروا على كل حال «إن الله مع الصابرين». بهذه الآية عرف الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية القتال مع الأعداء لم يبق شيء من باب القتال إلا تضمنته هذه الآية، كما علمه كيفية الدولة والحكومة بآية آل عمران "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله" هذه الآية هي التي علمت الرسول صلى الله عليه وسلم كيفية الحكومة، وتلك هي التي علمته كيفية الحرب "ما فرطنا في الكتاب من شيء" ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ﴾ ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ حيث قالوا: لا نرجع حتى نشرب الخمور وننحر الجزور وتضرب علينا القيان ببدر فيتسامع بذلك الناس، هذا أبو جهل، لما خاف أبو سفيان من النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فر

---

1 – أورده القرطبي في الجامع نقلا عن الحاكم كما تقدم قريبا في هذا الدرس، القرطبي ج8/ 25.

2 – أخرجه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور. صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (4105)، وفي صحيح مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء/ باب في ريح الصبا والدبور (1498).

وسلك جانب البحر حتى نجا بِعيره، وقد خرج أبو جهل في ألف مقاتل ليتداركوا العير فلما خرجوا قالوا له: ارجع فإن العير قد وصلت إلى مكة قال: لا أرجع حتى آتي لبدر فأنحر الجزور وتضرب القيان لي الدفوف ونشرب الخمور حتى يتسامع الناس بذلك فلا يتعرض أحد لعيرنا بعد هذا العام[1]، فإذا هو لا ينحر جزورا إنما يُنحر هو وجماعته، ولا تضرب الدفوف إنما يسمع حسيس جهنم وتتباكى عليه القيان بدل أن تتغنين له، ووقع ذلك. فلما وصلوا إلى بدر وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم والتقوا، قتل الله عدو الله أبا جهل ومن معه من رؤساء قريش، قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين منهم العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم خرجوا بطرا ورئاء الناس، وعمل الرياء لا يأتي بنتيجة، على العبد أن يعمل عملا مخلصا فيه لله تبارك وتعالى لا يقصد أن يرائي للناس، فإن الرياء غير مقبول عند الله تبارك وتعالى وهو الشرك الأصغر، وإذا كان العبد يصلي إذا حضر عند الجماعة ويحسن صلاته، وإذا بقي وحده منفردا يصلي كيف شاء فهذا غير مراء في نفس الصلاة ولكن مراء في الإحسان. وإن دخل عبد الصلاة بنية الصلاة لله تبارك وتعالى وعرض له بعد ذلك حب مدح أو ثناء أو شيء آخر هذا لا يضر العمل إذا كان أصل النية لله تبارك وتعالى ولكن الصادق الذي يقوم إلى العمل لله ويكون مستمرا لله إلى آخر العمل ذلك أكمل. والرياء الشرك الأصغر، كان واحد من الصالحين جلس بعد صلاة الصبح وقرأ سورة طه ونعس ورأى ملكا عنده قائمة كتب فيها سورة طه، وكل حرف كتب للعبد تحته عشر حسنات وبلغ كلمة ومحيت الكلمة، فقال: هذه الكلمة محيت وأنا أتحقق أني قرأها، قال له الملك: أنا

---

1 – سيرة ابن هشام ج270/2.

كتبتها وأمرني الله تبارك وتعالى بمحوها فمحوتها، صار يبكي ويتضرع إلى الله تبارك وتعالى ثلاثة أيام فسمع قائلا يقول له: كنت تقرأ السورة لله سرا، فمر بك شخص فرفعت صوتك بهذه الكلمة ليسمع أنك قارئ، فلهذا محيت الكلمة[1]، لابد من الإخلاص لله تبارك وتعالى لاسيما في ذكر الله. وحلق الذكر التي ذكرت في الحديث دليل على الذكر جهرا لأن الحلقة لا تكون وكلهم يذكر سرا، إذا حلقوا لابد أن يرفعوا أصواتهم بالذكر وإلا لم يكن للحلقة معنى. خرجت سرية من سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نجد فعادوا سريعا وغنموا كثيرا، فتحدث الناس وقالوا: ما أسرع أوبة هذه السرية وما أكثر غنيمتهم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بمن هو أسرع أوبة من هؤلاء وأكثر غنيمة؟ من صلى صلاة الصبح في الجماعة ولازم مجلسه يذكر الله تبارك وتعالى حتى تطلع الشمس وصلى ركعتين فإن له أجر حجة وعمرة تامة تامة)[2] هذا أسرع أوبة وأكثر غنيمة. الصلاة أفضل مشروع وهي تمنع في بعض الأوقات، وذِكر الله مأمور به في كل وقت من الأوقات وعلى كل حال من الأحوال قياما وقعودا وعلى جنوبهم، فهو مفتاح الولاية، فمن أعطي الذكر لم يحرم الولاية، ولابد من الذكر باللسان أولا ثم بالقلب ثم بالروح والسر حتى يصل إلى المطلوب فيكون ذِكرا وذاكرا ومذكورا لم يبق إلا الله. ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ

---

1 - روح البيان ج355/3.

2 - أخرج الترمذي في سننه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى الغداة في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تامة تامة تامة. سنن الترمذي: كتاب الجمعة/ باب ذكر ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح وقد انفرد به الترمذي (535).

زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ شجعهم إبليس على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج إلى أعدائهم بني بكر ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ من كنانة وكان أتاهم في صورة سراقة بن مالك سيد تلك الناحية ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتْ﴾ التقت ﴿الْفِئَتَانِ﴾ المسلمة والكافرة ورأى إبليس الملائكة وكان يده في يد الحرث بن هشام ﴿نَكَصَ﴾ رجع ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ هربا ﴿وَقَالَ﴾ لما قالوا له: أتخذلنا على هذا الحال؟ ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾ من جواركم ﴿إِنِّيَ أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن يهلكني ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد ﴿غَرَّ هَؤُلاَءِ﴾ المسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾ إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير. عادة أعداء الله الاستهزاء بأولياء الله، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يثق به يغلب ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ دعاهم إلى التوكل، والعبد إذا توكل على الله تبارك وتعالى، جعل ثقته بالله يغلب عدوه لأن الله «عزيز» غالب على أمره «حكيم» في صنعه.

كلم الله تبارك وتعالى موسى بخمس كلمات، وقال له: هذه الكلمات هي عماد الدين: يا موسى ثق برزقي المضمون ما دامت خزائني مملوءة وخزائني مملوءة أبدا. يا موسى لا تخف صاحب سلطان ما دام سلطاني وسلطاني موجود أبدا. يا موسى لا تذكر عيب غيرك ما دام فيك عيب والعبد لا يخلو من عيب أبدا. يا موسى لا تترك محاربة إبليس ما دام يحاربك وهو يحاربك أبدا. يا موسى لا تأمن من مكر الله ما لم تر نفسك في الجنة وفي الجنة كان أبوك وخرج منها فلا تأمن من مكر الله أبدا. فالتوكل والثقة بالله تبارك وتعالى هو طريق القوة لأن الله غالب على أمره. ومن وثق بغير الله تبارك وتعالى أو تعزز بغير الله فمآله إلى الذل ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ بمقامع من حديد

﴿وَ﴾ يقولون لهم ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ النار، لرأيت أمرا عظيما ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ عبر بها دون غيرها لأن أكثر الأفعال تزاول باليد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ﴾ بذي ظلم ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب.

الله تبارك وتعالى ملك عدل، والعدل من يضع الأشياء في محلها، لا يضع شيئا في غير محله، لا يتأتى منه الظلم أبدا، إما فضل وإما عدل لأن الظلم التصرف في شيء الغير والله لا يتصرف إلا في مملوكه. قلنا إن العدل وضع الشيء في محله، كل الناس يقولون أمير عادل ولا يعرفون ما حقيقة العدل، يظنون أن الأمير إذا ترك الأذى وأعطى المنافع فقد عدل وليس كذلك، العدل وضع الأشياء في محلها. إذا جمع الملك أموالا كثيرة وأسلحة كثيرة وعنده كتب ومساجد، فأعطى الأموال للأغنياء وأعطى الأسلحة للعلماء وأعطى المساجد والكتب للجيش فهذا الملك ليس بعدل لأنه وضع الأشياء في غير محلها، فلهذا العدل يحتاج إلى نظر سديد، لابد من وضع كل شيء في محله وإلا كان ظالما ولو كان نافعا، ولو كف إذايته، الكتب للعساكر والمساجد للعساكر، والسلاح للعلماء، والأموال للأغنياء، هذا ليس بعدل نفع وليس بعدل. دأب هؤلاء ﴿كَدَأْبِ﴾ عادتهم كعادة ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ جملة كفروا وما بعدها مفسرة لما قبلها، دأب هؤلاء دأب آل فرعون، وتلك العادة هي كفرهم بآيات الله وإهلاك الله لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على ما يريده ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكَ﴾ تعذيب الكفرة ﴿بِأَنَّ﴾ بسبب أن ﴿اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ مبدلا لها بالنقمة ﴿حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يبدلوا نعمتهم كفرا كتبديل كفار مكة إذ "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فكفروا وصدوا عن سبيل الله، وقاتلوه والمسلمين، غيروا نعمة الله كفرا

فأهلكهم الله بأن سلط عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فدمرهم، كذلك كل عبد على حالته الصالحة فأجرى الله عليه نعمة فتلك النعمة باقية ما لم يغير العبد عادته مع الله تبارك وتعالى. قيد النعمة الشكر[1]. الشكر قيد النعمة، من شكر نعم الله تبارك وتعالى دامت، ومن كفر فقد عرضها للزوال قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة أحسني جوار نعم الله تبارك وتعالى فإنها قلما نفرت عن قوم فعادت إليهم)[2] والنعمة كريمة قليل أكفاؤها من الناس. من يتكبر ويتبختر بنعمة الله ويمنع الحق من أهله فليس بكفء لنعمة الله تبارك وتعالى. وأكبر النعم نعمة الإيمان، من رزقه الله الإيمان يجب عليه أن يشكر الله على نعمة الإيمان وأن يحترم أرباب الإيمان وأن يخاف من أن يسلب الإيمان، من عمل هذه الأشياء الثلاثة فلا يسلب منه الإيمان، ومن لم يشكر نعمة الإيمان واستخف بأهل الإيمان و لم يخف من سلب الإيمان، فلا يموت حتى يسلب الإيمان، وسلب الإيمان هو سوء الخاتمة نعوذ بالله، سوء الخاتمة ليس موت سوء ولا موت فجأة ولا مرضا ولا فقرا ولا أي شيء، إنما سوء الخاتمة أن يغلب عند خروج الروح إما الشك في الله تبارك وتعالى وإما الجحود، هذه هي المرتبة الكبرى من سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؛ والمرتبة الدنيا أن يغلب على قلب الميت عند موته حب شيء من الأشياء في الدنيا فيكون قلبه مستغرقا في حب ذلك الشيء حتى ينسى خالقه ويموت على تلك الحالة فيكون ذلك سببا للحجاب بينه وبين الله، ومهما حصل الحجاب حصل العذاب "كلا إنهم

---

1 – جاء في فيض القدير برواية أبي يعلى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحمد لله على النعمة أمان لزوالها. فيض القدير ج1/ص24.

2 – أخرجه السيوطي في الجامع الكبير عن عائشة بلفظ (يا عائشة أحسني لجوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم) الجامع الكبير ج974/1.

عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم" من ذاق الحجاب لا بد أن يذوق العذاب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأمم المكذبة ﴿كَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ وضعوا الشيء في غير محله[1]. نزل في قريظة. بنو قريظة وبنو النضير اليهود سكنوا المدينة مدة ينتظرون خروج النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فتعاهدوا معه ولم يدخلوا في الإسلام خوفا على رئاستهم وطمعا في ما يجدون من أتباعهم، فعاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم أنهم لا يحاربونه ولا يحاربهم، ويعينونه على كل نوبة من نوائب الدهر، فلما أتت غزوة بدر أكدوا العهد وقالوا هذا هو النبي الذي ذكر في التوراة فلما أتت غزوة أحد شكّوا في النبي صلى الله عليه وسلم وذهبوا وتصالحوا مع قريش وباقي الكفار، ونقضوا عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاءت جيوش قريش وغطفان وهوازن والأحابيش وقريظة والنضير، كلهم أتوا للخندق يحاربون النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ جعلهم من جنس الدواب لأنه تقدم بالأمس "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل" ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أن لا يعينوا المشركين ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عاهدوا فيها ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدهم ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ﴾ فرق ﴿بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ من المحاربين بالتنكيل بهم والعقوبة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون بهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ عاهدوك ﴿خِيَانَةً﴾ في عهد بأمارة تلوح لك ﴿فَانبِذْ﴾ اطرح عهدهم ﴿إِلَيْهِمْ عَلَى

---

1 – جاء في مختار الصحاح للرازي في مادة "ظلم": وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

سَوَاءٍ﴾ مستويا أنت وهم في العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ ونزل في من أفلت يوم بدر ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ﴾ أي فاتوا ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ لا يفوتون الله تبارك وتعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُمْ﴾ لقتالهم ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أمَر الله تبارك وتعالى رسوله أن يعد لقتال الكفار ما استطعتم من قوة. سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هذه القوة؟ قال: (ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)[1] ﴿مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ بهذا يعلم المسلم أن لابد أن يكون له أعداء يعلمهم وأعداء لا يعلمهم. أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعد قوة لمواجهة العدو قال القوة الرمي هو أكبر أسباب العون في الحرب «وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ» قال الرسول صلى الله عليه وسلم (كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق)[2] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[3] وقال: (الخيل ثلاثة: فرس للرحمن وفرس للإنسان وفرس

---

1 – أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: ("وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي) صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (3541)

2 – جاء في تفسير القرطبي ج35/8: قال صلى الله عليه وسلم (كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق).

3 – متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (2850)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (3480).

عباس هذا منسوخ بآية السيف، وقيل إنه ليس منسوخا بل مخصوص بأهل الكتاب أو نزلت في بني قريظة[1]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق بالله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لابد من التوكل ثقة القلب بالله تبارك وتعالى على كل حال «إنه هو السميع العليم» ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح ليستعدوا لك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ كافيك ﴿اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ﴾ جمع ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ المؤمنين بعد الإحن ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج شيء عن حكمته. وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين في هذه الآية بأنه ألّف بين قلوبهم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم (المؤمن مؤلف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف)[2] وقال: (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[3] وقال (مثل المؤمنين إذا التقيا كمثل اليدين إحداهما تغسل الأخرى)[4] وقال (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد

---

1 - تفسير الجلالين ج2/132.

2 - أخرج أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (المؤمن مؤلَف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) مسند أحمد: مسند المكثرين/ (8831) وانفرد به أحمد.

3 - أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب رحمة الناس والبهائم (6011) ولمسلم في صحيحه عنه: كتاب البر والصلة والآداب/ باب تراحم المسلمين وتعاطفهم وتعاضدهم (4685).

4 - قال عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين إذا التقيا كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا) أورده الإمام الغزالي بدون تخريج في إحياء علوم الدين ج5 ص153.

بعضه بعضا)[1] وكالجسد الواحد، وقال ما معناه: (ينصب منابر وكراسي يوم القيامة لأناس لا يفزعون إذا فزع الناس ولا يخافون إذا خاف الناس، فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أولياء الله المتحابون في الله)[2] (المتحابون في الله على كراسي من ياقوت حول العرش)[3]. (إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لقربهم من الحق تبارك وتعالى وهم المتحابون في الله)[4]. لهذا شرع مولانا تبارك وتعالى أن يجتمع المسلمون كل يوم خمس مرات للصلوات الخمس لأهل المحلة، ويجتمعوا في كل أسبوع لأهل البلد والقرى حولها، ويجتمعوا مرتين للفطر والأضحى ويجتمعوا مرة واحدة من سائر أقطار الدنيا يوم الحج الأكبر، كل هذا لتقع الموالفة بين المسلمين. الإئتلاف هو سر الإسلام إذا ائتلف المسلمون صلح

---

1 – (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) رواه الشيخان عن أبي موسى. صحيح مسلم: كتاب البر والصلة عن رسول الله/ باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (4684). وفي صحيح البخاري بلفظه وزاد وشبك بين أصابعه: كتاب الأدب/ باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا (6026).

2 – أخرج أبو داود في سننه أن عمر بن الخطاب قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى) قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ هذه الآية "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون") سنن أبي داود: كتاب البيوع/ باب في الرهن (3060). وورد في حديث أبي مالك الأشعري أخرجه أحمد في مسنده: مسند الأنصار/ حديث أبي مالك الأشعري (21832).

3 – (المتحابون في الله على كراسي من ياقوت حول العرش) رواه الطبراني. مختار الأحاديث النبوية ص141.

4 – تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

أمرهم، وإذا افترقوا فالفرقة عذاب كما قال صلى الله عليه وسلم[1]، وكل ذلك من فضل الله تبارك وتعالى «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم». الحمد لله الذي ألّف بيننا. ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية نزلت يوم إسلام عمر. عمر بن الخطاب إسلامه ذكروا له أسبابا منها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوما (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب)[2] أو بأحد العمرين كلاهما اسمه عمر، أبو جهل اسمه عمرو كنته قريش بأبي الحكم لكثرة علمه عندهم وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي جهل فغلب عليه[3]. دخل عمر بن الخطاب على أبي جهل يوما وهو خاله[4] قال له: من قتل محمدا أعطيته مائة ناقة حمراء ومائة ناقة بيضاء ومائة ناقة سوداء وألف أوقية – لعله قليل المال هذا في جانب النبي قليل – قال له عمر: ندخل على هبل إلههم حتى تقسم عنده وتعاهده على ذلك، فدخلا على هبل فأقسم أبو جهل وعاهد هبل أن عمر إذا قتل رسول الله صلى الله عليه

1 – طرف من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث النعمان بن بشير قال قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب) مسند أحمد: مسند الكوفيين/ حديث النعمان بن بشير (17721).

2 – أخرج الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر) سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في مناقب عمر بن الخطاب (3614) ولأحمد في مسنده: مسند المكثرين من الصحابة/ (5437).

3 – ذكره في روح البيان ج369/3.

4 – أم عمر بن الخطاب هي حنتمة بنت هشام بن المغيرة أخت أبي جهل. سيرة ابن هشام ج375/1.

وسلم يعطيه هذه المئات الثلاث من الإبل وألف أوقية من الفضة فخرج عمر متوشحا سيفه حتى وقف بباب النبي صلى الله عليه وسلم فنظر بعض المسلمين من شقوق الباب فإذا بعمر متوشحا بسيفه ففزع وقال: هذا عمر بن الخطاب متوشحا بسيفه وهو لم يأت هنا إلا لشر، قال حمزة بن عبد المطلب: ائذنوا له يدخل، إن أتى مسلما فذاك وإن أتى يريد غير ذلك نقتله بسيفه، فدخل عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتعرض له أحد، فخرج إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له (ما أنت بمنته حتى ينزل الله بك قارعة)[1] فارتعد عمر حتى سقط السيف من يده فجلس وقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، فكبر المسلمون كلا. فقال عمر يا رسول الله: ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا؟ قال: بلى، قال: فلمَ نعبد الله سرا؟ وكانت العبادة في ذلك الوقت شرعت سرا، وقد أسلم حمزة قبل إسلام عمر بثلاثة أيام وبإسلام عمر تكامل المسلمون أربعين رجلا[2]. قال عمر: والله لا نعبد الله سرا بعد اليوم. فخرجوا في صفين عمر يتقدم الصف الأول وحمزة يتقدم الصف الثاني، وخرجوا إلى البيت يعلنون الشهادة فقالت قريش: انتصر علينا أبو القاسم، لما صبأ عمر لتصبأن قريش جميعا، فأنزل الله ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ﴾ حسبك ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حسبك الله والمؤمنون الذين

---

1 - جاء في سيرة ابن هشام عند ذكر قصة إسلام عمر قوله صلى الله عليه وسلم (فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة) ج370/1 - 371. وأخرج البيهقي في دلائل النبوءة في حديث إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال: ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة، فهذا عمر بن الخطاب اللهم أعز الإسلام أو الدين بعمر بن الخطاب فقال عمر أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله وأسلم. دلائل النبوة ج2/ص8.

2 - ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن عباس ج42/8. وكذا في الصاوي على الجلالين ج133/2.

اتبعوك هذا معنى، أو حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين، أنت ومن اتبعك كلهم حسبكم الله هذا هو الصحيح. عمر قال له الرسول صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده ما سلكت فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجك)[1] وقال فيه (الحق مع عمر حيث كان)[2] عمر تجلى فيه الله باسمه الحق، هذا معنى قوله (ما ترك الحق لعمر صديقا)[3] (ولو كان نبي بعدي لكان عمر)[4] (إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون – أي ملهمون من يأخذون العلم من الله بلا واسطة على سبيل الإلهام – وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب)[5] رضي الله عنه. وخرج يوما إلى العمرة فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (أي أُخَيَّ أشركنا في دعائك ولا تنسنا). قال هذا أحب إلي من الدنيا وما فيها قول الرسول

---

1 – هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان عن سعد. صحيح البخاري: كتاب المناقب/ باب مناقب عمر بن الخطاب (3683) وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل عمر (4410).

2 – (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) للترمذي في سننه: كتاب المناقب/ في مناقب عمر (3615)، ولأبي داود (جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه) سنن أبي داود: كتاب الخراج والإمارة والفيء/ باب في تدوين العطاء (2572).

3 – ذكره في روح البيان ج2/359.

4 – أخرجه الترمذي في سننه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب) سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في مناقب عمر بن الخطاب (3619). ولأحمد كذلك في مسنده عن عقبة بن عامر بلفظ (لو كان من بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب) مسند أحمد: مسند الشاميين/ حديث عقبة بن عامر الجهني (16764).

5 – أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب حديث الغار (3469) وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضل عمر (4411).

لي: أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا[1]. وكان نقش خاتم أبي بكر: نعم القادر الله[2]، ونقش خاتم عمر: كفى بالموت واعظا يا عمر[3]، ونقش خاتم عثمان: آمنت بالله مخلصا، ونقش خاتم علي: الملك لله، ونقش خاتم أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة: الحمد لله، هذا نقشوه في خواتمهم وحقيقة نقشوه في قلوبهم.

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ حَرِّضْ﴾ حث ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ للكفار، قاتلوا الكفار ﴿إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ منهم في بداية الإسلام كل واحد من المسلمين يقاتل عشرة من الكفار وكل عشرة تقاتل مائة ﴿وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ العشرون يقاتلون المائتين والمائة تقاتل الألف ثم نسخ لما كثروا بقوله ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ الواحد من المسلمين يقاتل اثنين من الكفار ﴿وَإِنْ يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته لتقاتلوا مثليكم وتثبتوا لهما. من فر عن ثلاثة فليس بفار كما قال ابن عباس ومن فر عن اثنين فقد فر[4] ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه ﴿مَا كَانَ لِنَبِيءٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ سبب نزول هذه الآية لما وقعت وقعة بدر وأُسر من المشركين سبعون

---

1 – أخرج الترمذي عن ابن عمر عن عمر أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فقال: (أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: كتاب الدعوات/ باب في دعاء النبي (3485) ولأبي داود في سننه عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنه قال استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن لي وقال لا تنسنا يا أخي من دعائك فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا. سنن أبي داود: كتاب الصلاة/ باب الدعاء (1280).

2 – أورده البروسوي في تفسيره روح البيان ج370/3.

3 – "كفى بالموت واعظا" ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ج4 ص64 بلا تخريج.

4 – تفسير القرطبي ج380/7. وقد سبق ذكره في الدرس العشرين.

من رؤسائهم منهم العباس بن عبد المطلب والنضر بن الحارث[1]، رُبطوا بسواري المسجد، فلما أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم جمع الصحابة وشاور أبا بكر وعمر، كانا أهل مشورته كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أيدني الله بأربعة وزراء اثنين من السماء جبريل وميكائيل، واثنين من الأرض أبو بكر وعمر)[2]. فلما أصبح شاور على الأسرى قال: ما تقولون في هؤلاء النتْنى؟[3] قال أبو بكر: هؤلاء عيالك مع كفرهم وعنادهم عيالك فقط لا تقتلهم خل سبيلهم وخذ منهم شيئا من المال تستعين به على جهادك ولا تقتلهم. وقال لعمر: ما تقول؟ قال عمر: هؤلاء رأس الكفر إن قتل هؤلاء لا ترى على وجه الأرض من يكذبك بعد اليوم، مكنّي من آل عدي قربائي، ومكّن أبا بكر من آل تيم، ومكن عليا من بني هاشم نقتلهم عن آخرهم، إذا قتلنا هؤلاء لا يبقى على وجه الأرض

---

1 – من بني عبد الدار وأحد رؤساء الشرك في قريش، قال ابن هشام وهو كاتب الصحيفة على قول فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشل بعض أصابعه (سيرة ابن هشام ج376/1)، وكان صاحب لواء المشركين يوم بدر (سيرة ابن هشام ج300/2) فأسر ثم قتل صبرا قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه في الطريق بين بدر والمدينة بالصفراء وقيل بالأثيل (سيرة ابن هشام ج367/2).

2 – أخرجه الترمذي في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من نبي إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر) سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب مناقب أبي بكر وعمر كليهما (3613) وانفرد به الترمذي.

3 – ورد ذكر هذه الكلمة في الصحيح وصفا لأسارى بدر في حديث جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أسارى بدر (لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له) صحيح البخاري: كتاب فرض الخمس/ باب ما منَّ النبي على الأسارى من غير أن يخمس (3139) ولأبي داود في سننه: كتاب الجهاد/ باب في المن على الأسير بغير فداء (2314).

من يعاندك أو يكفر بك[1]. فدخل الرسول صلى الله عليه وسلم بيته فصار الناس يتقولون بعضهم يقول سيتبع رأي أبي بكر وبعضهم يقول سيتبع رأي عمر. فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: إن المؤمن ليلين قلبه حتى يكون ألين من اللبن فذلك أبو بكر، فمثلك مثل عيسى عليه الصلاة والسلام قال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم"، ومثلك مثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: "فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم"، وإن الإيمان ليقوي قلب المؤمن حتى يكون أشد من الحجارة، ذلك مثل عمر، مثلك من الأنبياء مثل نوح قال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا" وقال موسى: "ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم"[2] ولكن

---

1 – قصة أسارى بدر وردت مجملة في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (3309). ووردت مفصلة في مسند أحمد في حديث لعبد الله بن مسعود نقلناه في الهامش التالي

2 – أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال: لما كان يوم بدر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ قال فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم، قال وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم، قال وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارا، قال فقال العباس: قطعت رحمك، قال فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يرد عليهم شيئا، قال فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس يأخذ بقول عمر، وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، قال فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: "من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم" ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا" وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: "ربنا

أخذت برأي أبي بكر. ثم استقبل الكفار وقال: يا أيها النتنى لا يخرج أحد منكم إلا إذا دفع لي عشرين أوقية من الذهب إلا بني هاشم لا يخرجون إلا بعد أن يدفعوا أربعين أوقية من الذهب، قال له العباس: أنا علي فدائي وفداء من هنا من بني هاشم وقد أُخِذ مني مائتا دينار تحسب لي ذلك؟ قال له: لا، المال الذي كنت تنفقه على أعداء الله ليحاربوني لا أحسبه في فدائك، قال: تريد أن أبقى مسكينا أتكفف الناس في مكة، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم كيف تتكفف الناس مع الذهب الذي دفنت في الحجون ليلة خروجك وأشهدت زوجتك أم الفضل وقلت: إن رجعت فذاك وإلا فالمال لك وللفضل ولقثم؟ قال: سبحان الله من أخبرك بهذا وهذا في مكة ليلا ليس يحضره إلا أم الفضل؟ قال له: أخبرني ربي، قال: هذا الرب سوف يكون ربي اليوم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، ودخل في الإسلام[1]. غدا أتى عمر ووجد أبا بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكيان فسلم عليهما وقال ما يبكيكما؟ سكتا عنه، قال: أخبراني ما يبكيكما يا رسول الله أنت وصاحبك، إن أتاني بكاء بكيت معكما، وإلا تباكيت لبكائكما[2].

اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" أنتم عالة فلا ينفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضربة عنق قال عبد الله فقلت يا رسول الله: إلا سهيل بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال فسكت قال فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع علي حجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال إلا سهيل بن بيضاء، قال فأنزل الله عز وجل "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم إلى قوله لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) مسند الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصحابة/ حديث عبد الله بن مسعود (3452).

1 – مسند أحمد: مسند بني هاشم/ (3140).

2 – حديث الفداء عن عمر بن الخطاب وفيه قال: فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لو نزل عذاب ما نجا منه إلا أنت، الذي أشرت به بالأمس هو الذي كان يرضى الله تبارك وتعالى، نزلت هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَّكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يبالغ في قتل الكفار حتى يقهرهم جميعا ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذ الفداء ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ ثوابها بقتلهم ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا منسوخ بقوله "فإما منًّا بعد وإما فداء" ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ بإحلال الغنائم والأسرى لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الغنيمة أحلت لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما حلت لأمة قبلها قال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[1] أهل الأديان غير الإسلام ليس لهم أن يؤدوا صلواتهم إلا في كنائسهم وبيعهم، والمسلم حيث أدركته الصلاة يصلي وكأنه صلى في المسجد، وطهورا من لم يجد ماء تطهر بالصعيد

وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض على أصحابي من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة. إلى آخر الحديث صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (3309).

1 – في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (810) وفي صحيح البخاري: كتاب التيمم/ باب قول الله تعالى ولم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا (335).

بالتيمم، وأحلت لي الغنائم وبعثت إلى الناس كافة وكان النبي يبعث إلى قومه ونصرت بالصبا. لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء آدم أبا البشر قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أبا البشر أنت خير الناس، خلقك الله بيده، وأكرمك بالعلم، وأسجد لك ملائكته، وأكرمك بزوجة منك، ولعن عدوك، وأباح لك الجنة بحذافيرها[1]، قال له آدم: بل أنت خير الناس أكرمك الله بأن جعل شيطانك مسلما، شيطاني أغواني وشيطانك جعله الله مسلما تبعا لك، وقهر لك عدوك وزوّجك زوجة مثل عائشة سيدة نساء الجنة، وأحيى لك جميع الأنبياء تعظيما لك، - ليلة الإسراء بعث الله الأنبياء كلا فأَمَّهم صلى الله عليه وسلم إكراما له أو إكراما لهم - وأطلعك على أسرار أمتك، كل ما نعمل فالرسول صلى الله عليه وسلم يشاهده في محله، وأعطى لأمتك ست خصال: أنا أهبطت من الجنة بمعصية وأمتك يعصون ولا يخرجون من المسجد، وانتزع مني لباسي بمعصية وأمتك تعصي الله ولا ينزع الستر عنهم، ونقصت قامتي وأمتك تعصي ولا تنقص قاماتهم، وفرق بيني وبين زوجتي وأمتك تعصي الله ولا يفرق بين الأزواج، وأنا بكيت مائتي سنة قبل أن يغفر لي وأمتك يغفر لهم عندما يستغفرون، أنت خير الناس، صدق، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى﴾ نزلت في العباس بن عبد المطلب[2] لما أعطى هذا من المال قال الله في حقه «يَاأَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى» ﴿إِنْ يَّعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانا وإخلاصا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من الفداء بأن يضعفه لكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ

1 – أورد المحاورة إسماعيل حقي البروسوي في روح البيان ج374/3.

2 – حاشية الصاوي على الجلالين ج134/2.

رَّحِيمٌ﴾ كان العباس بعد ذلك يتحدث يقول أنا أعطاني الله خيرا مما أخذ مني[1] إن لي عشرين عبدا الآن كلهم يتردد إلى الشام بالتجارة، رأس مالي أكثر من عشرين ألفا كل هذا من مالي. فلما جيء بمال البحرين وهو أكثر مال أُتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم صب في المسجد جزاف الذهب حتى أن الذين جلسوا في ناحية لا يرون الذين جلسوا في الناحية الأخرى لكثرة الذهب، فلما أذن للفجر اجتمع أهل المدينة كلا في المسجد فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقال لعلكم بلغكم شيء، توافدوا على المسجد وقت صلاة الصبح وما كانت تلك عادتهم، سمعوا بالغنيمة فكلهم بادر إلى المسجد. فلما صلى صار يقسمها بينهم، وجاء العباس فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم احمل كل ما تقدر أن تحمل فهو لك، فنشر ثوبه فحثا وحثا حتى جمع كثيرا وأراد أن يحمله فلم يقدر، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ارفعه لي، قال له: لا، إلا ما ترفعه أنت بنفسك فقط، قال مر بعضهم يرفعه لي، فهمّ ولده فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لا، ما تحمله فقط فهو لك، فنقص منه شيئا وأراد أن يرفعه فلم يقدر، ونقص منه شيئا ورفعه بجهد وسار إلى بيته فأتبعه الرسول بصره حتى دخل بيته تعجبا من حرصه[2] وجد

1 – حاشية الصاوي على الجلالين ج134/2. وفي تفسير المراغي مج4/ ج10/ ص39. وفي تفسير ابن كثير ج328/2.

2 – أخرج البخاري في صحيحه عن أنس قال: أتي النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين فقال: انثروه في المسجد، فكان أكثر مال أتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسي وفاديت عقيلا، قال: خذ، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: مر بعضهم يرفعه إلي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يرفعه فقال: فمر بعضهم يرفعه علي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال يتبعه بصره حتى خفي علينا عجبا من حرصه، فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منها

كل هذا القدر من المال، قال العباس: هذا مصداق ما قال الله «إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم» قال وجدت هذا في الدنيا وها أنا أرجو المغفرة في الآخرة[1] ﴿وَإِنْ يُرِيدُواْ﴾ الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهروا من القول ﴿فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ قبل بدر بالكفر ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ببدر قتلا وأسرا فليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَنَصَرُواْ﴾ وهم الأنصار ﴿أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة والإرث، المسلمون كانوا قسمين: المهاجرون والأنصار، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)[2] أي المرتبة الأولى من المؤمنين المهاجرون ويليهم الأنصار، كونه في المرتبة العليا وهم المهاجرون هو الذي منعه من أن يكون من الأنصار (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار). الذين هاجروا والذين آووا كان الإرث بينهم في بداية الإسلام ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّنْ وَّلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فلا إرث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم في الغنيمة ﴿حَتَّى يُهَاجِرُواْ﴾ وهذا منسوخ بآخر السورة. كان العباس لم يهاجر لما أسلم ببدر وافقه الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يخفي

درهم. هذا طرف حديث من صحيح البخاري: كتاب الجزية/ ما أقطع النبي من مال البحرين وما وعد من مال البحرين (3165).

1 – حاشية الصاوي على الجلالين ج134/2 وفي تفسير ابن كثير ج328/2.

2 – عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وسلكت الأنصار واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار) صحيح البخاري: كتاب التمني/ باب ما يجوز من اللو (7244) وفي صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام... (1758)

إسلامه لكثرة ماله في مكة وتفرق ماله في الناس، ولو أظهر الإسلام لضاع ماله، حتى كتب للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد الهجرة قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: تأخر ستكون أنت آخر المهاجرين كما كنت خاتم النبيئين، فلم يخرج للهجرة إلا بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى فتح مكة، فقال له: أنت آخر من يهاجر كما أني آخر المرسلين[1] ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ لهم على الكفار ﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة والإرث فلا إرث بينكم وبينهم ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ تولي المسلمين وقطع الكفار ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بقوة الكفر وضعف الإسلام، ما لم يتفق المسلمون ويكونون شيئا واحدا على الكفار فستكون فتنة في الأرض وفساد كبير هذا ما كان ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ﴾ المهاجرون والأنصار أيضا ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ﴾ بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾ أيها المهاجرون والأنصار ﴿وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ﴾ ذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في الإرث من التوارث بالإيمان والهجرة المذكور في الآية السابقة، نسخت الموارثة التي كانت بين المهاجرين والأنصار نسخت بهذه الآية فرجع الإرث إلى ذوي الأرحام ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه حكمة الميراث.

---

1 – جاء في كتاب هذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ص255.

سورة التوبة

مدنية أو إلا الآيتين آخرها، مائة وثلاثون أو إلا آية

لم تكتب فيها البسملة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم وأخرج في معناه عن علي أن البسملة أمان وهي نزلت لرفع الأمن بالسيف[1]. وعن حذيفة (إنكم تسموها سورة التوبة وهي سورة العذاب)[2]. وروى البخاري عن البراء أنها آخر سورة نزلت[3]. هذه براءة.

كان في بداية الإسلام كثير من الكفار عقدوا عهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صاروا حلفاء له، وفي عام فتح مكة عام ثمانية ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على الحج، وفي عام تسع ولى أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الحج فحج بالمسلمين والكفار، فلما ذهب أبو بكر حتى توسط الطريق أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبي طالب يركب القصواء ناقة

---

1 - أخرج الحاكم في مستدركه بإسناد إلى علي بن عبد الله بن عباس قال سمعت أبي يقول: سألت علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لِمَ لَمْ تُكتَب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان. المستدرك: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة التوبة ج360/2 رقم (3322).

2 - أخرج الحاكم في مستدركه عن حذيفة رضي الله عنه قال: ما تقرؤون ربعها، يعني براءة وإنكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب. قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة التوبة ج360/2 رقم (3323).

3 - أخرج البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق قال سمعت البراء رضي الله عنه يقول آخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة وآخر سورة نزلت براءة. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب قوله براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (4654) وفي صحيح مسلم: كتاب الفرائض/ باب آخر آية أنزلت (3038).

رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاثين من أول هذه السورة، فلما سمع أبو بكر رغاء ناقة وعرف أنها القصواء توقف حتى جاء علي فقال له: أمير أم مأمور؟ عُزلتُ وأمِّرتَ أم لا؟ قال علي: لا، أنت أمير وأنا مبعوث في شيء فإن هذه قطْع العهد الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين القبائل من المشركين[1]، وكان عادة العرب أن مثل هذا لا يفعله إلا الرئيس بنفسه أو أحد من أهله من قرابته فلذلك لا يمكن لأبي بكر أن يبلغ هذا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ليقطع العهود التي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين وإلا يسمونه غدرا[2]. فلما وصلوا إلى مكة خطب أبو بكر وبين مناسك الحج وقام علي وقرأ هذه الآيات وقال: أرسلت بأربع: ألا يحج بعد العام مشرك البيت، وألا يطوف بالبيت عريان، وأن لا عهد لمشرك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الجنة ليست إلا للمسلمين[3]. هذه ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واصلة ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ

---

1 – جاء في سنن الترمذي: عن ابن عباس قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات ثم أتبعه عليا فبينا أبو بكر في بعض الطريق إذ سمع رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء فخرج أبو بكر فزعا فظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو علي فدفع إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر عليا أن ينادي بهؤلاء الكلمات فانطلقا فحجا فقام علي أيام التشريق فنادى ذمة الله ورسوله بريئة من كل مشرك فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا مؤمن وكان علي ينادي فإذا عيي قام أبو بكر فنادى بها. الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة التوبة (3016)

2 – عن أنس بن مالك قال بعث النبي صلى الله عليه وسلم ببراءة مع أبي بكر ثم دعاه فقال لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي فدعا عليا فأعطاه إياها. الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة التوبة (3015).

3 – ذكر المسائل الأربع الترمذي في سننه وأحمد في مسنده. ففي سنن الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع قال: سألنا عليا بأي شيء بعثت في الحجة؟ قال: بعثت

الْمُشْرِكِينَ﴾ عهدا مطلقا أو دون أربعة أشهر أو فوقها، ونقض العهد بما يذكر في قوله ﴿فَسِيحُواْ﴾ سيروا آمنين أيها المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أولها شوال. شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم أو عشرون من ذي الحجة لأن تبليغ علي وقع يوم النحر، عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وعشرة من ربيع الأول، انقضى العهد في عشرة من ربيع الأول ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ﴾ فائتي عذابه ﴿وَأَنَّ اللّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ مذلهم في الدنيا بالقتل والأخرى بالنار ﴿وَأَذَانٌ﴾ إعلام ﴿مِّنَ اللّهِ﴾ تبارك وتعالى ﴿وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ يوم النحر ﴿أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وعهودهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ براء أيضا فبعث النبي عليا من السنة وهي سنة تسع فأذن يوم النحر بمنى بهذه الآيات، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

يوم الحج الأكبر يوم النحر، يوم تمام الحج، أو يوم الحج الأكبر يوم الوصال، يوم وصول العبد إلى حضرة مولاه تبارك وتعالى ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم وهو القتل والأسر في الدنيا والنار في الآخرة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُواْ﴾ يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من الكفار ﴿فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى﴾ انقضاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدتم عليها ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ بإتمام العهود ﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ خرج ﴿الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وهي آخر

بأربع أن لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة التوبة (3017). وفي مسند أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة/ مسند علي بن أبي طالب (560).

مدة التأجيل ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حل أو حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ في القلاع والحصون حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ طريق يسلكونه ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ من الكفر ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ ولا تتعرضوا لهم. كلما ذكر الصلاة ذكر الزكاة للمقارنة بين أعمال الأبدان وأعمال الأموال، عمل البدن الصلاة وعمل المال الزكاة، «فخلوا سبيلهم» ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ إن استأمنك من القتل أحد من المشركين ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أمّنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ إن آمن يكون مع المسلمين وإن لم يرض بالإسلام رد إلى بلده لينظر في أمره ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ دين الله فلا بد لهم من سماع القرآن ليعلموا ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ لا يكون للمشركين ﴿عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ وهم كافرون بهما غادرون ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يوم الحديبية وهم قريش قال جلال[1]: المستثنون من قبل، وهذا غير سديد، قريش المستثنون من قبل «إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا» وقد تبع المفسر في ذلك ابنَ عباس وهو مشكل لأن هذه الآيات نزلت في شوال في السنة التاسعة وقريش إذ ذاك مسلمون، لأنها كانت نقضت في السنة السابعة وحصل الفتح في الثامنة، فالصواب كما قال الخازن[2] أن ذلك محمول على بني ضمرة الذين دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية مع جملة من القبائل، فكلهم نقضوا إلا بني ضمرة فلم ينقضوا فلذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإتمام عهدهم إلى مدتهم، هذا هو الصحيح «إلا الذين عاهدتم

---

1 – أي جلال الدين السيوطي ج139/2.

2 – قاله في تفسيره ج206/2.

عند المسجد الحرام» هم بنو ضمرة ليس قريشا كما قال، قريش دخلوا في الإسلام عام الفتح ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ﴾ أقاموا على العهد ﴿فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ على الوفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم حتى نقضوا بإعانة بني بكر على خزاعة ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد ﴿وَإِنْ يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم ﴿لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ﴾ قرابة ﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ عهدا، بل يؤذونكم ما استطاعوا، وجملة الشرط حال ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بكلامهم الحسن ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الوفاء به ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ناقضون للعهد ﴿اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا تركوا اتباعها للشهوات والهوى ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ بيس ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ﴾ نبين ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبرون ﴿وَإِن نَّكَثُواْ﴾ نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ مواثيقهم ﴿مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ عابوه ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ رؤساءه فيه ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ﴾ لا عهود ﴿لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن الكفر ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ﴾ نقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ عهودهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة لما تشاوروا فيه بدار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حيث قاتلوا خزاعة حلفاءكم مع بني بكر فما يمنعكم أن تقاتلوهم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتخافونهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك قتالهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ﴾ يقتلهم ﴿بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ يذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ مما فعل بهم هم بنو خزاعة ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ القرآن وصفه الله أنه ليس بشعر، وهذا النمط لا يقدر عليه الشعراء، والنبي صلى

الله عليه وسلم لا يعلم الشعر، قال تعالى "وما علمناه الشعر" وقد قال عتبة لما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم يكلمه فقرأ عليه سورة فصلت رجع قال: هذا الكلام الذي سمعت ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن وليس بشعر أنا أعرف الشعر هزجه ورمله ورجزه، هذا ليس بشعر[1]. حقا أن بعض الآيات توافق شطرا من الشعر أو بيتا من الشعر ولكن لشدة الانسجام، انسجام القرآن وبلاغته جاء هكذا، وهو كتاب كريم يمد جميع الفنون فكل فن يقتبس من القرآن، الفقهاء اقتبسوا الأحكام من القرآن، والنحويون اقتبسوا الإعراب من القرآن، وأهل الصرف كذلك وأهل البلاغة والبديع كذلك، والشعر أيضا مقتبس من القرآن لأنه كتاب كريم، هذا بيت من الوافر:

ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مومنين،

وجاء: وجفان كالجوابي وقدور راسيات،

وجاء: فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر،

وجاء: فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، بسيط.

وكل هذا ليس بشعر إنما هو كتاب بحر يستخرج منه كل شيء "ما فرطنا في الكتاب من شيء" والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الشعر ولا يزنه، كان يتمثل ببيت طرفة: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار، يقول له أبو بكر: يا رسول الله ليس هكذا، ويأتيك بالأخبار من لم تزود، قال هذا معنى واحد[2]. حقا هو أفصح الناس ولا يعلم الشعر، وهذا الذي

1 - سيرة ابن هشام ج1/313 - 314.

2 - أورده ابن كثير في تفسيره مج3/ ص580. وذكر القرطبي كذلك ما روي من حكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت:

نطق به هو في باب البلاغة أوفق لأنه قدم العمدة وأخر الفضلة ويأتيك من لم تزود بالأخبار، ولكن ليس هذا موزونا في الشعر. تحاكم عنده حسان بن ثابت وكعب، قال كعب إنه أشعر من حسان، وقال حسان إنه أشعر، فتنازعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الرسول صلى الله عليه وسلم كلكم يقول لي شيئا من شعره، قال كعب أنا أقول:

إن الرسول لسيف يُستضاء به مُهنَّد من سيوف الله مسلولُ

قال قل يا حسان قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وِقاء

قال النبي صلى الله عليه وسلم: حَسَّان أشعرُ منك يا كعب. قال كعب صدق الله "وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعر". «ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء» بالرجوع إلى الإسلام كأبي سفيان «والله عليم حكيم» ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾ بإخلاص ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة وأولياء ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَّعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لعدم شرطها ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَّكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ نزلت في العباس قبل إسلامه عاتبه علي يقول له أنتم شر الناس أخرجتم الرسول وفعلتم وفعلتم وفعلتم، قال يا علي: أنتم تذكرون قبائحنا ولا تذكرون شيئا من محامدنا. قال له علي: وهل عندكم شيء من المحامد؟ قال: نعم نحن نسقي الحاج ونعمر المسجد ونقري الضيف كذا، ولكن أنتم أبيتم إلا ألا

... ويأتيك من لم تزود بالأخبار. الجامع لأحكام القرآن ج15/51

تذكروا شيئا من فضائلنا، فنزلت ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ﴾ في الفضل ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين نزلت ردا على من قال ذلك وهو العباس[1] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ رتبة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ من غيرهم ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بعمارة المسجد بالبناء وإقامة العبادة في المساجد والكنس والفرش وإيقاد المصابيح ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم ﴿خَالِدِينَ﴾ حال مقدرة ﴿فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ونزل في من ترك الهجرة لأجل أهله وتجارته ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ﴾ اختاروا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقرباؤكم ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ عدم نَفاقها[2] ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقعدتم لأجله عن الهجرة وعن الجهاد ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تهديد لهم ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ كبدر وقريظة والنضير ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ واد بين مكة والطائف، يوم قتالكم فيه هوازن وذلك في شوال سنة ثمان. بعد فتح مكة تجمع جموع الكفار ثلاثون ألف مقاتل على حنين يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم باثني عشر ألفا ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فلما خرجوا نظر أحد الصحابة قيل

---

1 – حاشية الصاوي على الجلالين ج141/2.

2 – قال في مختار الصحاح: نفق البيع ينفق بالضم نَفاقا راجَ.

أبو بكر إلى جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا الجيش عرمرم اثنا عشر ألفا، فالتفت يمينا وشمالا وقال: لن نغلب اليوم من قلة، والله تبارك وتعالى غيور ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ فلما تصافوا مع العدو فروا كلا إلا اثني عشر رجلا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقي معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد والزبير وسعد وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الله بن مسعود وأبو عبيدة بن الحارث ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فروا كلا إلا هؤلاء الإثني عشر وثبت النبي صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء ليس معه غير العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذا بركابه، وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فردوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس بإذنه وكان صوت العباس يبلغ ثمانية أميال فدعاهم يا أهل القرآن، يا أهل بيعة الرضوان، يا أهل الجنان، هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهرولوا كلهم ورجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطردوا الجيش ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ملائكة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَّشَاءُ﴾ منهم بالإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ قذر لخبث بواطنهم ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لا يدخلوا الحرم ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ عام تسع من الهجرة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقرا بانقطاع تجارتهم عنكم ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ وقد أغناهم بالفتوح والجزية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وإلا لآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كالخمر ﴿وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الناسخ لغيره من الأديان وهو

دين الإسلام. كل من لم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن بالله و لم يؤمن بالآخرة، وكل من لم يقبل ما حرم الرسول صلى الله عليه وسلم ليس على دينه، وكل من لم يتدين بالإسلام فليس على دينٍ اليوم "إن الدين عند الله الإسلام" ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى، اليهود والنصارى الآن، بقوا ليسوا على دين لأنهم لم يتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ﴾ الخراج المضروب عليهم كل عام ﴿عَنْ يَّدٍ﴾ منقادين أو بأيديهم لا يوكلون بها ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أذلاء منقادون لحكم الإسلام ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ﴿ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لا مسند لهم عليه بل ﴿يُضَاهُونَ﴾ يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ من آبائهم قالوا هذا تقليدا لآبائهم ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ لعنهم الله ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق مع قيام الدليل ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ عباد النصارى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ حيث اتبعوهم في تحليل ما حرم وتحريم ما أحل. قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم معاذ الله ما اتخذناهم أربابا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أليسوا إذا أحلوا لكم شيئا حراما تقبلونه؟ قالوا: نعم، وإذا حرموا شيئا حلالا تتركونه؟ قالوا نعم، قال: ذلك هو اتخاذهم أربابا[1] ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وجعلوا المسيح ابن مريم أيضا هو الله. هم أقسام: نسطورية ويعقوبية وملكانية وإسرائيلية، الإسرائيلية هم الذين بقوا على دين عيسى عليه الصلاة

1 – جاء في سنن الترمذي: عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله" قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة التوبة (3020).

والسلام، وكان بقي منهم النجاشي وقومه. واليعقوبية قالوا إن عيسى ابن الله تبارك وتعالى. والنسطورية قالوا إن الإله ثلاثة: الله ومريم وعيسى، والملكانية قالوا إن عيسى هو الله نزل إلى الأرض ورجع إلى السماء وهو الله لا إله غيره، كلهم كفار إلا الإسرائيلية الذين بقوا على أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم[1] ﴿وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ﴾ يعبدوا ﴿إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ﴾ شرعه وبراهينه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بأقوالهم فيه ﴿وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ﴾ يظهر ﴿نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك. الكافرون هم اليهود والنصارى والمشركون كل من لم يؤمن بالله ورسوله والقرآن فهو داخل في جملة الكافرين والمشركين هو جماع الكفر ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ يعليه ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ جميع الأديان المخالفة له. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجعلوني كقدح الراكب)[2] يخلّف وراء الركاب حتى إذا احتيج إليه تُنُوِّل ولكن اذكروني في أول حديثكم وفي وسطه وفي آخره، لا تجعلوني كقدح الراكب، اذكروا النبي صلى الله عليه وسلم دائما بالصلاة عليه أن تذكروه في أول أمركم وفي وسطه وفي آخره صلى الله عليه وسلم "إن الله وملائكته يصلون على النبيئ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" هو باب الله من أراد دخول حضرة الله

---

1 - راجع كيف افترقت النصارى في تفسير القرطبي ج6/ ص24.

2 - (لا تجعلوني كقدح الراكب إن الراكب يملأ قدحه ماء ثم يضعه ثم يأخذ في معاليقه حتى إذا فرغ جاء إلى القدح فإن كان له حاجة في الشراب شرب وإن لم يكن له حاجة في الشراب توضأ وإن لم يكن له حاجة في الوضوء أهراقه ولكن اجعلوني في أول الدعاء وفي آخر الدعاء). رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر. الجامع الكبير للسيوطي ص881.

تبارك وتعالى فالباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا باب غيره. وظهرت معجزاته في الأشياء ربما عُثر على حجارة مكتوب فيها بقلم القدرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي بعض الأشجار في بلاد الهند تفتح ورق شجرة فتجد مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي بعض الحيتان.

«هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» وعد الله أنه سيعلي الإسلام على جميع الأديان المخالفة له يكون أعلى منها أو يمحق جميع الأديان حتى لا يبقى على وجه الأرض دين سوى الإسلام. مرتبتان: الإسلام يكون فوق جميع الأديان وهذا ما وقع الآن لا يبقى دين على وجه الأرض يشاكل الإسلام في شكله وسيمحق جميع الأديان ويبقى الإسلام وحده ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وإن كان الكفار لا يحبون ذلك فذلك وعد الله تبارك وتعالى وسيقع في المستقبل القريب إن شاء الله. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

فهرست الجزء الثاني